مذاهب وشخصيات

مع الأبطال

بقلم

محمد رجب البيومي



مذاهب و شخصيات

مع الأبطال

بقلم محمد رجب البيومي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

كتب التاريخ أكثر من أن تحصر ، وأعظمها أثرا ما صور نواحى البطولة ، فرسم للرجولة صورا شاهدة ، وأقام على خلودها دلائل ماثلات .

وبين يدينا الآن كتاب يصور بطولات سابقة لأعلام تتألق فى سماء الاسلام فينقل الينا عبر القرون المتراخية ساحات القتال المترامية وما شاهدت من صيال مرير ، وكفاح دءوب حتى انتصر الحق فى أكثر أحيانه ، أو تراجع مضطرا فى فترات الضعف بعد أن أدى ضريبة الكرامة دما يتدفق ، وذكرى تفوح .

وقد اخترت أن أتحدث عن عصور التاريخ الاسلامى من خلال أبطاله، ليكون المثال الحى ناطقا بأعماله ، ملهما شتى العبر لمن يتدبر عن ثقة ممن كان له قلب فألقى السمع ، وكان من السهل الهين أن يدور الحديث عن الواقع لا عن الاشخاص ولكن مجال القدوة فى بنى الانسان أكثر وضوحا وأقرب نفاذا ، وليس معنى ذلك أن هناك وقائع بلا أشخاص .. فهذا ما يستحيل بداهة ، ولكن معناه أن تأثر القارىء بشخصيةالبطل الجرىء ، ومتابعته المخلصة لأدوار حياته ، ومرهقات عسره ، ومرتفعات مجده ، مما يملؤه ثقة واعتزازا ، ويدفعه الى التعلق بأهدابه ، ومحاولة محاكاته ان استطاع .

ولم نزعم لأكثر من خصصناهم بالحديث عصمة ومثالية تتجافى عن الضعف الانسانى ، ولكننا أظهرنا جوانب الضعف مع ظواهر القوة • فلم نغمض عينا عن مؤاخذة البطل حين تجب المؤاخـذة ، ومن الذى ترضى سجاياه حتى نملأ عنه الصفحات بالتحميد والاطراء ••!

قد تكون فى بعض هؤلاء الابطـال حقيقة من لم تعثر له على عيب واحد كنور الدين فى مثاليته ، والمثنى بن حارثة فى بطولته ، وعبد القادر فى استبساله ، ولكن بين هؤلاء من انتقد بعض المنصفين أعمالهم كموسى ابن نصير والظـــاهر بيبرس ••! وشرعة الحق أن نذكر لكل بطل ماله وما عليه ، ومجال الأسوة الحسنة متحقق فى الحالتين : فى حالة السمو : اذ يدفع القارىء الى الاقتداء بذوى التحليق فيستعير جناحا يرفعه نفسيا الى قممهم الشماء ، ويريه من بواهر الضياء فى ارتفاع الأوج واتساع الأفق ليعود على شخصيته بالتسامى المشرئب ، والطموح الوثاب ، كما أن مجال القدوة متحقق فى حالة الهبوط ، اذ تنفجر الهوة أمام القارىء فيضيق بها ويحاذر أن يبتعد عنها جهده ، وربما تغلغل الشعور بها فى نفسه فدفعه الى مجافاة كل بغيض ••! وذلك كسب كبير لنفسه فى دنيا السلوك ، كما هو كسب لعقله فى مضمار النقد والترجيح •

وقد اعتاد المتحدثون عن أبطال الفتح الاسلامى أن يسهبوا فى الحديث مبتدئين بسعد بن أبى وقاص ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وأبى عبيدة الجراح ، ولكن تكرار الحديث عن هؤلاء الاعلام هو الذى سوغ لى أن أبتدىء بالمثنى بن حارثة ، ولست بذلك أجحد قليلا ما اضطلعوا به من أعباء ثقال ! ولكنى أحيد فى اجتنابهم عن الذائع المعاد •

وكما ألمعت الى أبطال الفتح ، فقد أشدت بأبطال الدفاع فى عصر الحروب الصليبية ، وفى العصر الحديث ، لأن واقعنا العربى الاســـلامى يتطلب الاشـــادة بمن سطعوا كالكواكب فى عهود الاحتلال الغاشم ••! فاستطاعت عزائمهم المثابرة أن تكون أشعة وضيئة تكتسح الظلمات ••!

فاذا عرف القارىء أن عبد القادر الجزائرى والامام شامل القوقازى وعمر المختار الليبى ـ قد استطاعوا بأسلحتهم البدائية أن يهزموا الجيوش الغربية الجرارة المدججة بأحداث ما أبرزه العلم المعاصر من مبيدات ساحقة فانه يطمئن الى كفاحنا المناضل للاستعمار فى النصف الثـــانى من القرن العشرين ، بعد أن أصبحت الجمهورية العربية المتحدة قلعة الاحرار فى كل مكان ، وبعد أن تبوأت مكان القيادة البصيرة فى ركب التحرر والاستقلال•

ولعل هناك من المشابه ما تتعدد الوانه بين عصر الحروب الصليبية والعصر الحديث ، اذ أن تكالب الغرب على الشرق العربى لا يزال يتحين الفرص اللئيمة للعبث بمقدسات العروبة والاسلام ، وقد أوجد اسرائيل الحقيرة لتكون معبره الدنىء الى السيطرة والاحتلال ، ولكن الشعور العربى المتأجج فى الدول المتحررة يمنع أن يتاح لهؤلاء اللصوص بعض ما يأملون من اغتصاب ، وكذلك كانت عصور الحروب الصليبية مجالا لعدوان الغرب وطغيانه، وميدانا لظهور أبطال صناديد من أمثال عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين ، وقطز ، والظاهر بيبرس ، وبجهودهم جميعا خابت آمال المعتدين الفجرة فى اذلال الشرق ، واحتلال العرب ..! وترديد بطولات هؤلاء المجاهدين مما يدفع الثقة القوية الى نفوسنا فى معركة اليـــوم بين التحرر والاحتلال ، لذلك كان الحديث عن عمـالقة المسلمين فى الحروب الصليبية حديث الأمس واليوم معا ، وقد ظهرت أضواء النصر فى الأفق وأخذ الاستعمار يتضـــاءل ويستخذى ، كمـــا أصبحت اسرائيل تصرخ وتستجير من قوة الجمهورية العربية المتحدة وترى نذر فنائها ـ على يد شبابنا الباسل ، وتحت قيادة زعيمنا المظفر تلوح من قريب .

فاذا استطاع هذا الـكتاب أن يعيد مجدا ، ويحيى شعورا ، ويبعث أملا ويوجه ركبا ، فذلك حسبه فى دنيا التأليف ، وانى لأثق أكبر الثقة فى نبيل رسالته ، وشريف هدفه ، وجزيل جدواه .

محمد رجب البيومى



المثنى بن حارثة

بطل الإسلام فى فارس

المثنى بن حارثة بطل الاسلام

لا أدرى لماذا يتردد اسم المثنى عاليا فى العراق ، وخافتا فى شتى عواصم العربية ، ألأنه الفارس البطـــل الذى ضم ما حول الفراتين الى الاسلام ، فحق له أن يذكر هناك بالمحمدة والثناء ؟ ولكن عمر وخالدا ، وسعدا وأبا عبيدة تتردد أســـماؤهم رنانة فى كل مكان يشيد بالفتـح العربى والتاريخ الاســـلامى ٠٠ أيكون المثنى أقل منهم كفاحا ، وأهــون استبسالا ؟ ان تاريخه ليشهد بأنه قريع هؤلاء الابطـــال ونظيرهم همة وشجاعة وتمرسا بالخطوب والأعوال ٠ وما قرأت وقائعه المجلية الا عجبت كيف لا تفرد الكتب الخاصة بتحليل روائعه ، وهأنذا أشير اليه من بعيد ، راجيا أن أوفق الى رسم خطوط واضحة عن بطولته الشماء !

لقد انحدر المثنى بن حارثة الشيبانى من قبيلة بكر بن ربيعة ذات الأنفة والعزة والاستعلاء ، وتاريخها فى الجاهلية عبق فواح يتأرج بعبير العزة والحرية ، اذ أن ربيعة انفردت بين القبائل بمنازلة الفرس ، وتحدى آل ساسان ومن شـــايعهم من بنى المنذر بن ماء السماء ! فكانت غاراتها المتتابعة لا توجه الى الأعراب من بنى القربى وذوى الرحم ، بل تهدف فى صميمها الى منازلة الأعاجم ممن يبسطون سيطرتهم على العرب فى تغطرس وخيلاء ، حتى لقد عرفت ربيعة بين القبائل بربيعة الأسد ، وربيعة الفرس، رمزا لشجاعتها وعلو همتها فى مصاولة الأكاسرة العتاة ، وبنوشيبان من ربيعة فى الذروة والسنام ، اذ كانوا قادة المعركة فى يوم ذى قار ، حتى ضرب بهم المثل فقيل : كاثر بشيبان وحارب بشيبان ٠٠!

وقد نشأ المثنى بن حارثة فى هذه القبيلة الباسلة ، تجرى فى عروقه دماء العزة والأنفــة ، وتفور نفسه حفيظة أن يســـيطر على قومه أعجمى يستعين عليهم بالأساورة والمرازبة والدهاقين ٠٠! فوقف يوم الفرات ٠٠ أحد أيام العرب فى الجاهلية ـ على رأس المقاتلين من بنى شيبان ونازل الأعاجم بسيفه حتى شردهم أباديد ، وغرق مئات الأساورة فى الفرات ،

وساق أنعامهم وخيولهم وأموالهم نهبا مقسما لربيعة الأسد ، حتى أرخت ربيعة بيوم الفرات ، كما أرخت قريش بيوم الفيل ٠٠!

وحين أشرق نور الاسلام كان المثنى مع قومه على شواطىء الفرات ، لا يعلم كثيرا عن حقيقة الدعوة الاسلامية ، فالأنباء تصله من مكة والمدينة متضاربة متناقضة لا ترسم لعينه طريق الهداية على وجهه الصحيح ، فرأى أن يتريث حتى يستيقن ، وبعث بمن يجمع له الحقائق عن قريش بمكة والأنصار بالمدينة ، وأخذ يوازن ويعلل ، حتى اهتدى الى الدين الصحيح، فأسرع بالرحيل الى المدينة ، وبايع الرسول الأعظم على الاسلام فى السنة التاسعة ، ورجع الى مقره ، مطمئنا واثقا بدينه الجديد ٠٠!

وكان يخلو الى نفسه فيتذكر جهاد المسلمين فى بدر وأحد والخندق وخيبر ، ومؤتة ، وتبوك ، فيستشعر أسفا يضيق به اذ ابتعد عن شرف هذه المعارك ، وهو البطل الفارسى ، ومن له أن تعود الغزوات من جديد ليقف الى جوار رسول الله بسيفه وبسالته جنبا الى جنب ٠٠! قد فاته الشرف الأسنى ، اذ تقاعس معذورا عن ميدانه الاصيل فى حمى المسلمين! وليت الايام تفسح المجال من جديد !

وكأن الأقدار قد سايرت هواه ، فلم تلبث حروب الردة أن نهضت بعد وفاة الرسول على قدم وساق ، وسارت الجيوش الاسلامية من المدينة تصاول أعداء الله من المتنبئين ومن لف لفهم من المؤلفة قلوبهم والمنافقين ، ووقفت القلة المؤمنة أمام الكثرة المرتدة ومعها ايمانها الراسخ ، ويقينها الأكيد ، فسارع المثنى مشوقا الى أداء واجبه فى هذه المعمعة الخطيرة ، وقاد كتائبه من ربيعة وشيبان حتى التحق بعلاء بن الحضرمى قائد جيوش المسلمين بالبحرين ، فأسهم معه اسهاما باسلا ، وأخذ يواصل القتال متتبعا كتائب الكفر والمروق حتى استولى على القطيف ، وتابع الزحف الى دلتا الفرات حتى أشرف بجيشه على ارض السواد ، وتمت كلمة الله بانتصار الاسلام فرجع المثنى بقومه سعيدا منتشيا دون أن يعرفه أبو بكر خليفة المسلمين ٠٠! وأخذ يحس بفرحة تغمره ، لانه بدأ الجولة الاولى من جولات الاسلام ، وطالما وازن بين شعوره بالنصر فى معركة الردة ، وشعوره بالنصر قبل ذلك فى معارك الجاهلية ، فرأى أن المعركة الاخيرة ذات طعم هنىء لذيذ ، فأجرها العظيم مدخر عند الله فى جنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين ، أما معارك الجاهلية فذات طنين يدوى فى القبائل دون أن يكون له رصيده الضخم من رضوان الله ٠٠! وشتان ما بين

الناحيتين من فروق ، ومن ثم فقد عزم على مواصلة الجهاد تحت لـواء الاسلام ، ليضيف الى سعادته الراهنة فيضا من السعادات !!

وكان مما يأكل قلب البطل منذ نعومة أظفـاره خضوع القبائل الضاربة حول الفرات لسلطان العجم ، وخضوع الحيرة بملوكها وأمرائها لكسرى وذويه ، فلماذا لا يحشد جهوده ، لحرب هؤلاء المتسلطين تحت راية الاسـلام ، لقد كانت العروبة وحدها تلهب أحاسيسه فتدفعه الى منازلتهم برغم ضآلة ما يمتلك من سلاح وعتاد ! أما الاسلام اليوم فقد أصبح دافعا قويا لهذه الحرب الضروس ، واذا كان هذا الدين القيم عربى النشأة فلا بد أن يمتد حتى يشمل هؤلاء الذين يدينون بتفاوت الطبقات فى فارس ، ولا يعلمون ما علمه الاسـلام لأبنائه من أن الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فرق بين عربى وأعجمى الا بتقوى الله والجهاد ٠٠! ان هذه المشاعر الاسلامية الجديدة تفتح منـافذ جديدة فى أحاسيسه ، وتغمره بقوة لا تنفد ، فتدفعه دفعا الى منازلة الفرس ، ودعوتهم الى الدين الجديد ، وقد شاء أن ينهض لذلك الامر بنفسه دون أن يرجع الى خليفة المسلمين خشية أن يجد لديه ما يخـالف رأيه فى هذا الميدان الرهيب ، فتتفرق كلمة بنى شيبان وربيعة تفرقا لا يرضى البطل الكبير ، ومن ثم فقد أعلن الحرب على العـجم ، وقاد الجيش الاسلامى من ربيعة الى ميـادين رائعة ٠ نازل بها فريقين مجتمعين : فريق الأساورة الفرس ممن تعاظمهم أن يقف القائد العربى أمامهم بشجاعته الباسلة ، وفريق العرب من أتباع كسرى وخشاة بأسه ممن يستكثرون على أنفسهم منـازلة طاغية جبار يسيطر على الشرق منذ أحقاب طوال ، واذا كانت الاعمال بالنيات ، فقد استطاع المثنى ومعه أخواه البطلان الباسلان المعنى وسعود أن يهزم كتائب الفرس حين تحرك شمالا على رأس قوة من رجال القبائل مساحلا الخليج الفارسى حتى بلغ مصب نهرى دجلة والفرات ، فأدار المعركة الاولى بعد الاسلام ادارة المنتصر الباسل ٠ وتردد نجاحه الرائع فى آفاق العروبة حتى جاء أبو بكر بالمدينة فدهش كثيرا حين علم وأخذ يسأل أصحابه : من هذا الذى تأتى أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ ، فرد عليه قيس بن عاصم المنقرى : « هذا هو المثنى بن حارثة الشيبانى رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ! انه المثنى ! »

كانت جيوش الخـلافة الاسلامية ، تتجه بكتائبها المحتشدة لغزو الروم فى ديار الشام ، ولم يكن ليجول بخاطر أبى بكر أن يبعث رجاله الى فارس ، فالروم منذ غزوة مؤتة فى تربص وتأهب لملاقاة المسلمين ، وقد كان اتجاه الرسول الى غزوهم بالشام مبعث ثقة وايمان فى النفوس ، فكل

مجاهد ينهض لهؤلاء انما يحقق رغبة نبيه ، ويتابع خطته مطمئنا الى نجاح العاقبة باذن الله ، أما الفرس فقوم صلاب شداد سار لهم فى العرب ذكر مهيب مخوف ، والتفكير فى منازلتهم مظنة خطر بعيد، اذ أن أفيالهم الكثيرة تتقدم جيوشهم الظافرة فتغنى غناء أبشع الاسلحة فتكا ، وأعتى الذخائر ابادة ، فكيف يلبى أبو بكر دعوة المثنى الى نضال آل ساسان !؟ لو كانت دعوته تلك قد سبقت أوانها قبل أن تتحرك الجيوش الى قتال الروم . لأمكن الخليفة أن يوحد جبهة القتال ، فيجعلها فى الشرق مع فارس دون أن يتشعب الجيش الاسلامى الى فرقتين متباعدتين ! الحق ان المأزق حرج، ولا بد للخليفة أن يتبصر مواطىء أقدامه قبل أن يصدر قراره النهائى ..!! فلبث حينا لا يدرى ماذا يصنع ، ولكن المثنى العظيم يصل الى المدينة بنفسه ، فيقابل خليفة رسول الله ، ويهون من شأن الفرس ، اذ يبسط أمامه سجل حروبه معهم فى الجاهلية والاسلام ، ثم يتشعب الحديث ، فيناقش أبا بكر فى قراره الذى اتخذه بشأن المرتدين بعد أن رجعوا الى الاسلام ، اذ شاء أبو بكر أن يحرمهم الجهاد فى الفتح الاسلامى ، ليقصر شرفه على الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الوفاء للدين والثبات عليه ! فكان من رأى المثنى أن يرجع أبو بكر عن قراره .. ليتيح لهؤلاء سبيل التوبة الحقيقية ، اذ يمتشقون الحسام دفاعا عن دين الله ، وتكفيرا لما أسلفوا من حرب الاسلام ..! وكان للبطل منطقه السديد ورأيه النافذ، فاقتنع أبو بكر بوجهة نظره ودعا المسلمين عامة الى البلاء فى الغزو ، فسنحت الفرصة أمام هؤلاء النادمين ليقوموا بما يكسبهم شرف الرجولة فينسخوا ليل الماضى بصباح الغداة ، وما أعظمها من خطة جعلت كتائب المجاهدين تتدفق من كل مكان راغبة فى الجهاد عن طواعية وترحاب ، وسالت الشعاب المنفرجة فى بطن الجزيرة هاتفة بالغزو ، مدوية بنشيد الجهاد الله أكبر الله أكبر ..! غير أن التفكير كان متجها بهؤلاء الى الروم لا الى فارس ، ولكن المثنى الباسل يعتلى المنبر ليهون من شأن المجوس ، وليسترعى الانظار الى الميدان الجديد ، وقد شاء الله أن يختار أبا بكر الى جواره الكريم قبل أن يصدر قراره النهائى فاستدعى رضى الله عنه عمر ابن الخطاب فى مرضه الاخير ليقول له فى اصرار : « اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به ، انى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فاذا أنامت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وان تأخرت الى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس معه ، ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ، ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله » .

مات أبو بكر ‥ ! فبايع الناس عمر ، وكان أول مابدأ به أن ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر من هذه الليلة نفسها ، وقام المثنى فخطب الناس بعد البيعة قائلا « أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فاننا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ، ونلنا منهم واجترأ من قلبنا عليهم ، ولها ان شاء الله ما بعدها ‥ ! » ثم تحدث المثنى عن جهاد خالد معه فى حرب العراق ، وكان أبو بكر رضى الله عنه قد أمده به ليحمى العرب على شواطىء الفرات فقط، دون أن يدور بخلده امتداد القتال الى بطن فارس ، فأبلى خالد أحسن البلاء مع المثنى وانتصر القائدان فى مواقع ذائعة تذكر منها « الولجة » و « ذات السلاسل » و « الأنبار » ثم جاء أمر أبى بكر بانتقال خالد الى كفاح الروم فى اليرموك، مكتفيا بتأمين الحدود العربية ‥ ! فأسف المثنى أسفا زائدا لمحـــاولة انتهاء المعركة مع فارس على هذا النحو المفاجىء ، وجاء بشخصه الى المدينة ليعلن تصميمه على مواصـــلة القتال ، والحق انه نجح فى مســـعاه أكبر نجاح ، اذ أقنع أبا بكر وعمر وخطب الناس بالمدينة فثبت يقينهم وهون عليهم أمر المجوس ‥ ! فسارت الكتائب مشوقة للصراع ‥

على أن عظمة المثنى الباهرة تتخطى الحدود المعقولة ، حين نجده يتناسى شخصه فيقبل بارتياح تام أن يكون الأمير المسلم على الجيوش غيره ، وهو الذى ذلل عقبات النصر ، وفتح باب الهجوم على الأساورة متحديا جميع الصعاب مهما تجمعت من حوله وتذاءبت عليه ، ! فحين جاء خالد بن الوليد الى الحيرة سارع فانضوى بجنده تحت لوائه ، وأبدى من الجهاد والبسالة ما تعجب له خالد وأكبره ‥ وحين هم بالرحيل الى اليرموك شد على يد المثنى وقال فى اعتزاز : ارجع الى امارتك منصورا سيدا كما كنت ، وقد يكون خالد أعرف الناس ببسالة صاحبه ، كما يكون المثنى اكثر ميلا الى الانضواء تحت رايته من غيره ، اذ أن كفاح سيف الله فى حرب الردة قد جعل القيـادة من حقه فى معتقد بعض الناس ، أمـا الذى يثبت العظمة النفسية على وجهها الصريح للمثنى فهو قبوله امارة أبى عبيد بن مسعود الثقفى حيث أمره ابن الخطاب دون المثنى ‥! ولم تكن له من الســـابقة الذائعة ما يقنع المثنى بكفايته عن يقين ، ولكن المثنى كان أطوع له من بنانه، وقد أخذ يبصره بمواقع الأمر تبصير من يرجو على يديه النجاح والظفر ! وكان فى أبى عبيد الثقفى ايمان واخلاص ، ولكن الدربة الحربية كانت تعوزه وهى وحدها وسيلة الانتصار ، فحين تجمعت الجموع الفارسية فى معركة الجسر وقد حشد لهـا رستم مئات المهرة من القواد وعشرات الآلاف من الجنود مصمما على أن يقذف بالعرب نهائيا من أرض العراق ، أقول

حين حشد رستم جموعه الكثيفة خلف الأفيال والخيول والسلاسل ، ونظر المثنى فعلم أن الجيوش العربية ستطوق تطويقا حاصدا بهذا الجمع الهائل المديد أشار على أبى عبيد بالانسحاب من الحيرة الى خفان ، ليستطيع أن يجد فى الصحراء الممتدة ملاذا للفرار اذا ضاق به المأزق ، وتلك خطة سديدة اذ أن سياسة الاحتفاظ بالأماكن المحتلة كثيرا ما تجلب الوبال على المحتفظين بها وقد قبل أبو عبيد مشورة صاحبه ، فانكفأت الجيوش متراجعة الى خفان ٠

وحانت الساعة الفاصلة أمام جسر الفرات، فرأى المسلمون على الضفة المقابلة من الطوفان الفارسى الزاحف مالا يحصى عدده غير الله من الجنود والخيول والسلاح ، وبعث « جاذويه » قائد الفرس رسوله الى العرب يسأل من الذى يعبر الجسر من المقاتلين ليلتحم النضال ، وكان من رأى المثنى أن يعبر الفارسيون ليكون أمام العرب متسع من البادية اذا حان خطر شديد ، وصمم أبو عبيد على أن يعبر المسلمون لتشتد حماستهم الدافعة ، وتكون الثقة الحية فى نفوسهم كفيلة بالتقدم فالاكتساح ٠ وقد أطاع المثنى أمر القائد العربى كارها غير راغب ، وزحفت الجيوش الاسلامية لترى كوكبة من الأفيال تبعث الرعب فى النفوس ، وقد سارع أبو عبيد الى الفيل الأكبر فضرب خرطومه بسيفه ضربة لم تصب مقتله فهجم عليه ووطئه بخفه فسقط شهيدا ، ودب الرعب فى نفوس المسلمين وهموا بالانسحاب الى الجسر ، ولكن احد المتحمسين من العرب قد ارتكب خطأ فاحشا حين هدمه ليمنع الفرار ٠٠ ونظر المثنى فاذا الحرب بعد سقوط الجسر تصبح حرب ابادة واستئصال للمسلمين فتقدم مضحيا بنفسه مع لفيف من قومه الأشداء ، وتصدى صابرا لهجمات الفرس ثم بعث بمن يعيدون بناء الجسر فامكنهم فى ظل هذه المؤخرة الصامدة الثابتة التى دفعت باستبسالها المستميت كل زحف أن يقوموا برسالتهم فنهض الجسر كما كان ، وانسحب الباقون الى حيث كانوا من قبل ولولا وقفة المثنى وجماعته لكانت موقعة الجسر موقعة ابادة واستئصال ، للعرب ! ولكن الله قد أيد البطل بروح من عنده فلم يتوان لحظة فى مأزقه مع ما صوب الى جسده من النصال ٠٠!

ولو أن جيوش (جاذويه) تتبعت فلول المنهزمين اثر معركة الجسر لا ندحر المسلمون اندحارا يتغير معه وجه التاريخ ، ولكن الخلاف حول الحكم فى المدائن بين رستم والفيوزان قد وجد سبيله الى الجيش الفارسى، فلم يغتنموا الفرصة السانحة وأضاعوا النصر الساحق لأمر قدره الله ، فأخذ المثنى يجمع الفلول المتناثرة ، ويرسل الى العرب فى القبائل البعيدة يدعوهم لنصرة اخوانهم المستبسلين ، وأمده عمر بن الخطاب بكتائب جديدة

تعوض بعض ما ضاع يوم الجسر من آمال ، ثم احتشد بمجموعه بالبويب قريبا من الكوفة ، وشهد الفرات مرة أخرى جيشين يتقابلان على ضفتيه وليس بينهما غير الجسر ، فبعث مهران القائد الفارسي الجديد ، رسوله يسأل من الذى يبدأ بالعبور ، وكان المثنى هو القائد دون سواه فلم يقع فى خطأ أبى عبيد ، وطلب من الجيش الفارسى أن يجرب دوره فى العبور ثم استعد بأبطاله ليقابل المندفعين اليه كالطوفان المزبد يملئون الارض عجيجا وجلبة ، وقد وجد المسلمين يتنكبون الفيلة خائفين ، فتجرأ على منازلتها بالسيف عن خبرة واقتدار ، وقد سبق أن عرف مقاتلتها فى معركة بابل ، وطار له معها بين العرب حديث سجله الفرزدق بعد عشرات السنوات حين قال :

ومنا المثنى قاتل الفيل وحده ببابل اذ فى فارس حكم بابل

أجل هجم المثنى على الأفيال جريئا غير هياب ، وهجم أخواه المعنى ومسعود معه فى ساحة الموت مستبسلين ، ونظر المسلمون ، فاذا آل حارثة الشيبانى يتوسطون النار الملتهبة مغامرين فغمرت الناس حماسة لا تعهد ، واندفعوا وراء الأبطال ، وكأنهم فقدوا عقولهم ، فلم يفكروا فى خطر الأفيال والسيوف والرماح ، ونظر المثنى فاذا صفوف بنى عجل تتقهقر ، فترك مكانه ليصرخ فى وجوههم يا بنى عجل ٠٠ اتقوا الله حق تقواه ، ولا تفضحوا المسلمين ثم عاد الى مكانه فوجد آخاه مسعودا قد استشهد فخاف أن يزعزع مصرعه بعض الناس فكظم حزنه الأليم وصاح « يا بنى الاسلام لا يزعجكم مصرع أخى فهكذا مصارع الاخيار » واندفع الى الميدان مجلجلا بالتكبير ، وكان البطل قد جمع الى جيشه فى معركة البويب طائفة من نصارى العرب يقاتلون حمية لاخوانهم فى الدم لا فى الدين ، فلما طال القتال واشتد أراد أن يلهب حمية المسلمين فتقدم الى أنس بن هلال النمرى وقال له : انك امرؤ عربى وان لم تكن على ديننا ، فاذا حملت على قائد العجم فاحمل معنا ، فأطاعه أنس مع نفر من قومه ، وحملوا على القائد فقتله غلام نصرانى من تغلب ٠٠ ! ورأى المسلمون ذلك فاستبسلوا مستميتين ، حتى انكشف الأعداء وقد اهتبل المثنى الفرصة فتقدم الى الجسر وأسقطه لينتقم للمسلمين من المعركة السابقة وخف المنهزمون من الفرس الى الجسر فلم يجدوه ، فتتبعهم العرب قتلا واستئصالا وصاروا بين قتيل وغريق ٠٠ وقر المثنى عينا بالنجاح » ٠٠ وهال يزدجرد ملك الفرس ما حل بقومه بعد معركة البويب فاستعد لموقعة تكون فى رأيه معركة

الحياة أو الموت ، وجاءت النذر للمثنى بما ينتويه صاحب الفرس ، فكتب الى عمر بن الخطاب يسأله المدد الحفيل ، فأرسل سعد بن أبى وقاص على رأس جيش كبير الى المثنى ، وقد شاء القدر ألا يتقابل البطلان ، فقد مات المثنى متأثرا بجرح أليم أصابه يوم الجسر فظل يهادنه مستعينا بالصبر حتى انتفض عليه فجأة فأسلم الروح شهيدا أبيا ذا همة وعزة وايمان ، وحين تيقن الموت دعا كاتبه يملى عليه كتابا الى القائد الجديد ضمنه خلاصة تجاربه ، وزبدة نصائحه ، فضرب بذلك أرفع الأمثلة فى الاخلاص لعقيدته ، والحرص على انتصار ذويه ، وان كان النصر على يد غيره من اللاحقين ٠٠٠ مات المثنى فبكته البطولة والكرامة ، وجاء سعد بن أبى وقاص ليلتقى بجيوش فارس فى القادسية ، وقد تكاثرت الفيلة تكاثرا عنيفا بسطوتها القاهرة على العرب ، ففر كثير من المسلمين مذعورين ، ورأت سلمى زوجة المثنى ــ وسعد من بعده ــ ما كان ، فصاحت فى غضب وامثناه ! ولا مثنى للخيل بعد المثنى ! فخجل الفارون خزيا ورجعوا الى الحومة مستبسلين حتى كسبوا النصر ، وقال قائلهم فى اكبار ٠٠ رحم الله المثنى ، فقد نفعنا حيا بجهاده ، وميتا بذكراه ٠



النعمان بن مقرن

بطل نهاوند

النعمان بن مقرن بطل نهاوند

بيت النعمان بن مقرن من بيوت الايمان ٠٠ هكذا قال عبد الله بن مسعود ، وقد صدق فيما قال ، فقد قدم هذا البيت الى الاسـلام سبعة صناديد أشاوس أقبلوا على رسول الله فى غيرة واخلاص ، وعرفتهم معامع القتال فرسانا مغاوير ، يجودون بأرواحهم فى سبيل العقيدة المؤمنة دون أن يدخروا وسعا فى الجهاد والجلاد ، وبأمثالهم من الصفوة المختارين خفقت راية الاسلام على آفاق مترامية ، وسارت العربية مسير الشمس فى كل مكان ٠

وقد كان النعمان يعيش فى قبيلة « مزينة » جنوب يثرب حين انتقل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا الى ربه ، وتطاير الى الرجل أنباء الدعوة الجديدة فأخذ يفكر فيما يسمع حتى أشرق قلبه بالايمان ، وعزم على أن يشخص مع قومه الى المدينة ، وكانت السنة مجدبة قفراء ، وليس لقبيلته من الزروع والثمار ما يحملونه الى المدينة قربة خالصة حين يقدمون مؤمنين ، فاعتذر قومه بما لحقهم من جدب وامحال ، أما النعمان واخوته فكانوا أكبر من أن يخضعوا لفاقة ممحلة ، فجمعوا ما حول أخبيتهم من غنيمات ، وما بداخلها من حب وتمر ، وساروا به الى رسول الله منكرين أن تكون وفادتهم الأولى عـارية عن معـونة صادقة ، تنبىء عن اخلاص وايثار ، وقد تقبل رسول الله هداياهم المتواضعة أطيب قبول ، وزكاها القرآن تزكية طاهرة ، اذ قال الله عز وجل عن النعمـان واخوته « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخـر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم » ٠

وقد انتظم النعمان واخوته فى صفوف المجاهدين ، فشهد المواقع الأولى للاسلام ، وقام فى حفر الخندق بنصيب ممتاز ، كما أسهم فى النصر بسيفه وعقله ، وحين تمت كلمة الله بنصر الاسلام وتقدم الرسول

لفتح مكة كانت قبائل « مزينة » تختال فى عددها الكثير ، وقوتها العظيمة وقد حمل رايتها النعمان وتقدم فى الطليعة يثبت مالدى الاسلام من شكيمة وبأس ، وكان يوما أغر سجلت فيه « مزينة » اعتزازها بالاسلام وسبقها الحميد .

وجاء الامتحان العنيف بعد وفاة الرسول فى حروب الردة ، فقد سار أبو بكر الصديق بنفسه لمهاجمة المرتدين ، وكان النعمان صاحب ميمنته ، وأخواه عبدالله وسويد على الميسرة والساقة ، فقد آثر الفرسان الثلاثة أن يتزعموا كتائب الاسلام فى أحرج مواقفه وأضيق مآزقه وأبدوا من الجلاد والكفاح ما تفيض به النفوس المؤمنة ، وكان النعمان أبرزهم موقفا ، وأشدهم شكيمة فاتجهت اليه الأنظار ، ونيطت به الآمال العريضة بكفاحه ونضاله ، فخلفه أبو بكر بعد الموقعة الظافرة قائدا على الكتائب المتخلفة ، ورجع الى المدينة يفخر بأبطاله الأشاوس ، وفى طليعتهم بطل « مزينة » العظيم ، وقد رعى النعمان حقوق القيادة ، فآثر واستشار ، ورسم ونفذ حتى أطفأ الجمرة المشتعلة ، ورجع الى المدينة يحمل ألوية الفوز ، ويردد أهازيج الانتصار ..

ولئن كان من لوازم البطولة العربية الساحرة أن يصحبها لسان ذرب وعقل رزين ، لتبلغ بصاحبها الأوج فى تاريخ العظمة والخلود ، فقد رزق النعمان لسانا فصيحا يجادل به فى حومة الاقناع ، كما يجالد بسيفه فى حومة القتال ، ويرسل خطبه الحماسية وشوارده البليغة ، فيدفع الجنود الى التضحية والفداء ، وقد أدت بلاغته العالية رسالتها الناجحة ، فجادل أعداءه بالبرهان الناصع ، وحفظت له كتب الأدب نماذج مختارة من البيان الرفيع ..!

ثم جاء دور الفتح فى فارس ، فتسابقت القبائل العربية الى تسجيل أمجادها العريقة ، وطبيعى أن تكون « مزينة » فى طليعة الغزاة الفاتحين بما قدمت من أسود وأشبال ، فانتقلت من جنوب المدينة ، الى أرباض الكوفة وأصبحت تحتل الصفوف الأولى فى معركة الكفاح الاسلامى، وتهيأ سعد بن أبى وقاص لقيادة المعركة ، وهو يعلم ما سيقدم عليه من ابتلاء رهيب ، اذ يرمى بكتائبه المحدودة فى متاهة واسعة من السيوف والحراب ، ويجالد قوما تأثل تاريخهم الحربى قرونا عدة ، وعقدت لهم الزعامة العالمية فى دنيا الصيال والقتال ؟ موقف خطير رهيب يتطلب الحكمة العاقلة بجوار البطولة الباسلة ، فاستشار سعد رجاله ، ورأى أن يبعث وفدا عربيا الى يزدجر قبل المعركة ، فيبلغه رسالة الاسلام ، وكانت

مخاطرة جريئة من هؤلاء الوافدين ، اذ يتجهون الى طاغية متجبر لايحترم حقوقا أو يعبأ بتقاليد ، فيسمعونه ما يملؤه غيظا وكمدا ، والرجل فى سلطانه نافذ الأمر ، رهيب الطلب ، فما يشير اشارة ، حتى تطير الرقاب ، وتتناثر الأشلاء ، ولكن الايمان الحق لا يبالى بالأهوال فيفترض الفروض ، ويتربص المخاوف ، بل توجه الوفد الاسلامى الى « يزدجر » ، وكان أعضاؤه من الشكيمة والعقل والأبهة بمكان يبهر العيون ويأخذ بالألباب ، فتقدموا ينبئون عمن خلفوا من الكماة الباسلين ، وقبل أن يدخل الوفد على « يزدجر » شاور النعمان أصحابه فى اختيار رجل يتكلم فينوب عن غيره ، فأجمعوا أن يكون البطل « المزنى » لسانهم الناطق ، فاندفع يعلن كلمة الحق فى صراحة وقوة ، وكسرى يستمع مدهوشا مأخوذا من أعراب جفاة تبلغ بهم الجرأة أن يقتحموا عرينه ، ويهددوا سلطانه ..

وكان لغروره السادر ، يراهم من الاحتقار بمكان لا يلتفت اليه عظيم مثله .. فبدأ يسأل فى غيظ وانفعال ..!

ماذا جاء بكم .. ؟ وما دعاكم الى غزونا والولوغ ببلادنا ؟ أمن أجل أنا أجمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فانتظر النعمان حتى أفرغ جعبته وأجاب فى هدوء ..

« ان الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به . ويعرفنا الشر ، وينهانا عنه ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع الى ذلك قبيلة الا صارت فرقتين : فرقة تقاربه ، وأخرى تباعده ولا يدخل معه فى دينه الا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ الى من خالفه من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعا على وجهين : مكره عليه فاغتبط ..! وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعا ما جاء به على العداوة والضيق مما كنا عليه ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف ونحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح ، فان أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه ، الجزاء – جمع جزية ، فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وان اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم » .؟ ما هذا الذى يسمعه كسرى ..! صواعق ملتهبة لم يتعود أن تطرق سمعه فى جبروته ! ونيران مشتعلة تعصف به من كل ناحية فتخرجه عن صوابه ويصيح .. انى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ، ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكل قرى الضواحى فيكفوننا

غاراتكم ، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فان كان عدو لحق ، فلا يغرنكم منا وان كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فأسكت القوم ٠٠!

واجابة كسرى تصور مدى احتقاره للعرب ، وتفصح عن تعاظمه وغروره ، وطبيعى أن تنتهى المحاورة بالفشل ، اذ أنه لم يفطن الى كلام النعمان ، ولم يشأ له تعاليه أن يسأل عن حقيقة الدين الجديد وصاحبه ، وعن أهدافه ومراميه ، وأنى له ذلك وهو يرى فى العرب رعاعا أوشابا يعوون اذا نزل بهم الجدب ، ودهمتهم السنون ٠٠! ولكنه سمع الردود القوية تقصم ظهره ، فطاش حلمه ، وأمر بوقر ثقيل من التراب ليحمله أعظم وافد عليه احتقارا واستهزاء ، حتى يخرج من باب المدائن ، وقال فى غيظ : ارجعوا الى صاحبكم فأخبروه أننى مرسل « رستم » حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور !! ورجع الوفد الى سعد يحمل الوقر الثقيل ٠٠ ! فقال فى تفاؤل واطمئنان ٠٠ أبشروا فقد أعطانا الله أقاليد ملكهم العريض ! وهكذا تضىء الحقيقة المؤمنة فتنير طرائق الأمل فى غياهب اليأس ٠٠! وتجعل من التفاؤل قوة ناصرة ذات ذخيرة وسلاح ، وقد شاء الله لبشارة سعد أن تتحقق ، فقد جمع القائد الفارسى عدته وعديده ، وخف لقتال المسلمين بالقادسية فى معركة تعتبر فى رأيه ورأى الدولة الفارسية جميعها معركة حياة أو موت ، ولا تسل عما أبدى الغزاة الفاتحون من كفاح واستبسال ، فقد كان الظفر بالاستشهاد أحب اليهم من التراجع والنكوص وزادتهم كلمات كسرى المتعاظمة جلادا واستبسالا ، فاندفعوا مستميتين ليعرف من هؤلاء الذين يتحدث عنهم بمثل هذا الحديث ، وقد أخذ رستم ٠٠ بما شاهد ، فأمامه قلة تقتحم الكثرة الطاغية فتنجاب عنها كما ينجاب الضباب فى ضوء الشمس الوهاج ، وكان ينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى الا شرا مستطيرا يوشك أن ينقض عليه فى عرينه ، فهؤلاء جنوده يتساقطون ويتخاذلون ومن كانت لديه بقية من شجاعة أسلم ساقه للريح وترك المعركة بما يقر عين الاسلام ويعقب النصر للغزاة الفاتحين ، ومازال التطاحن يشتد حتى اندحر المجوس ، وتركوا وراءهم من الغنائم ما لم يكن يحلم به المسلمون ، فأصاب العرب كنوزا ثمينة ، وغنموا سمعة طيبة ، وزادهم النصر قوة وايمانا ثم أدوا ما جمعوه من النضار على وفرته الى قائدهم سعد ٠٠! فقال كلمته الشهيرة ٠٠ « والله ان الجيش لذو أمانة ، ولولا

ما سبق لأهل بدر من المكرمة لقلت انهم على فضل كفضلهم » وطارت البشائر الى أمير المؤمنين عمر بالمدينة تحمل أنباء النصر وأوساق الذهب، وكنوز الغنيمة ، فعم الفرح كل مكان ، وسجد المسلمون شكرا لله ، اذ أمدهم بتأييده ورزقوا فى حروبهم الطاحنة كل هداية وتوفيق ..!

وانقضت حومة القادسية ، ورجع النعمان الى «كسكر» ليتولى خراجها ويقوم بتعهدها ، ولكنه بطل فدائى لم يخلق للجباية والتحصيل ، فهو يعد نفسه للشهادة فى حومة الجلاد ، ولم يركن الى الدعة والراحة ونوازعه تطير به نحو التضحية والاستشهاد ، لذلك أرسل الى أمير المؤمنين يقول.. ان مثلى ومثل «كسكر» كمثل رجل شاب الى جنبه مومسة تتلون له وتتعطر ، فانشدك الله لما عزلتنى عن « كسكر » ، وبعثت بى الى جيوش المسلمين ..!

ماهذا الايمان الدافق ، وما هذه الحمية الأبية ..! رجل يتولى الامارة فى بلدة عامرة وافرة الخير تجبى اليه أموالها ، ويكون صاحب الكلمة النافذة فى هدوء وطمأنينة بال وامتداد جاه ..! ثم يكفر بما بين يديه من متع ورغائب ، ويود أن ينتقل الى نيران الحروب فيكابد أهوالا جسيمة ويتعرض للموت فى كل لحظة تمر ، وللفزع فى كل بارقة تسطع !! انه الايمان الصادق قد سما بالنعمان الى أفق الكرامة والعزة ، فاحتقر رغائب الحياة ولذائذ العيش وتطلع الى مثل رفيع لا يحلم به غير النادرين من أعلام الدنيا وأبطال التاريخ ، وقد توالت الأنباء على المدينة بأن «يزدجر» قد اعتزم أن يثأر للقادسية فجمع جيوشا تفوق جيوشها عدة وعددا ، وأخذ لكل خطر أهبته ، فحفر الخنادق وأعلى الحصون ، وأقام الجسور ، وأرسل الأرصاد وهيأ المسرح الحربى لقتال مستأصل وقد سمع الفاروق بذلك ، فالتهب حمية وأنفة وأراد أن يسير بنفسه لقيادة الجيوش ، ولكن الامام عليا كرم الله وجهه يرى غير رأيه ، ويشير بأن يمكث عمر بالمدينة ويبعث بغيره من الأكفاء ، اذ أن القائد معرض للمخاطر فاذا رزق الشهادة فلابد أن يكون أمير المؤمنين من ورائه يختار خلفه ويرسم الخطة العليا دون أن يصيب المسلمين وهن أو تضعضع ..! وقد اقتنع عمر برأى على ونثر كنانته فاختار القائد الباسل «النعمان بن مقرن» ليقوم بدوره الخالد . وكان اختيارا موفقا ضمن الحظوة والنجاح ..!

سار النعمان الى «نهاوند» وقد انضمت اليه كتائب كثيرة تلقت أمرها من الفاروق نفسه ، فكان الجيش يزدان بأبطال كماة من الطراز الاول فى النضال ، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان ، ونعيم

ابن مقرن ، وسويد بن مقرن والقعقاع بن عمرو ، وأميرهم من فوقهم يرسم الخطط ، ويشير بالأمر ، ويطير بأصحابه من نصر الى نصر ، فقد افتتح فى طريقه (أريق) ذات الموقع الهام ودلف الى «السوس» فافتتحها وهو واثق من الفوز النهائى فى معركة بدأت مقدماتها السارة فى الطريق !

ولم يسكت الفاروق عن النعمان ، فقد كانت وصـــاياه تترى اليه وكلها حث على الجهاد ، ودعوة الى الصبر ، وتوجيه الى مايجب أن يصنع ، وكان مما قاله الفاروق «من عبد الله أمير المؤمنين الى النعمان بن مقرن : سلام عليك فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو ، أما بعد فقد بلغنى أن جموعا من الأعاجم قد جمعوا لكم بمدينة « نهاوند » فاذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله ونصره ومعونته بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعرا ، ولا تمنعهم حقهم فتـــكفرهم ، ولا تدخلنهم غيضة وان رجلا واحدا من المسلمين أحب الى من مائة ألف دينار والسلام عليك ٠٠! الله أكبر ٠٠٠ رجل واحد من المسلمين أحب الى أمير المؤمنين من مائة ألف دينار !! أهذا كفاح ينتظر الغنيمة والسلب ، كما يقــول الخونة من المغرضين ، أم أنه كفاح العقيدة المؤمنة تتقدم برسالتها الوضيئة الى غياهب الوثنية ومجاهل الشرك الوبىء ، وبهذا التآخى الحبيب تجمـــع المسلمون على قلب رجل واحد ، وكانوا فى عهدهم الاول يدا واحدة على من سواهم ، ومن يعجب لتآزر الاسلام وتسانده فى نشأته الاولى فليسمع كلام عمر ليدرك البواعث الأصيلة لهذا الاتحاد المتمـاسك ، وليعلم أى أخوة وافية شرعهـا الاسلام لأبنائه الغر الميامين ، ولم يقتصر الدفاع على القـــوة ، فهى بالغة ما بلغت لا تغنى غناء العقل المدبر ، والذكاء اللماح فليعمل الفكر حيله فيما يجبهه من المعاضل والحروب ، لقد رأت الطـلائع المتقدمة فى طريقها الى العدو مسامير حادة تملأ الجادة ، فتوخز الخيل وتعوق التقدم ٠٠! فرجعوا الى قائدهم يتشاورون فيما يصنعون ٠٠! وهنا برز العقل الحصيف بدهائه وحيلته فأجمع الرأى على أن يتظاهر الجيش الاسلامى بالتراجع والتقهقر ، وما عهد الفرس به غير الهجوم والوثوب ، فيضطرون مخدوعين الى تتبعه ويقومون بجمع الحسك والمسامير من الطريق ، واذ ذاك تتيسر المهمة للغزاة فينطلقون متدافعين الى لقاء العدو ٠٠! وكانت حيلة قوية أدت الى نتائجها الظافرة ، فصالت الصوافن العربية دون عائق ، وظهرت البطولة الاسلامية ظهـــورا أخاذا أعاد الى المجوس ما تناسوه من الفزع والاندحار فانكفئوا مذعورين ٠٠!

ودارت المعركة الحاسمة فى نهاوند ٠٠! تلك التى عبق بهـــا ذكر النعمان فى صحائف الخلود ، وقرنت اسمه بهـا فى سطور التاريخ ،

فقد استمر القتال ثلاثة أيام متتاليات ، وايقن الفرس أنهم أمام هزيمة محققة اذا واصلوا القتال فمددهم الزاخر ينقطع ويتفرق ، وغزاتهم دائبون ملحون يتلمسون المقاتل ، وينصبون الفخاخ ، ولا يدعون لهم وقتا للروية والانسحاب ، وحين أقبل الليل بجحافله السوداء تسربوا تحت دياجيره الى الحصون والقلاع ، فاحتموا بالآطام والصروح ، وانحجزوا فى الخنادق لا يريمون مكانا أو يبتدرون سانحة ، والمسلمون على الابواب يؤسفهم أن تحول دون القتال قلاع ساحقة ، وحصون شاهقة ، فعقد قادتهم مجلسا حربيا يتشاورون فيما يصنعون ، وبسط النعمان الموقف على حقيقته مستشفا ما تنفتق عنه العقول · واليك طرفا مما دار · قال عمر بن بنى : ان التحصن عليهم أشد من المطاولة علينا ، فدعهم أيها الأمير وطاولهم ، ولا تخرجهم وقاتل من أتاك منهم !!

وقال عمرو بن معد يكرب : ناهدهم أيها الأمير وكاثرهم ، واقتحم عليهم الجدران والحصون ·· وقال طليحة بن خويلد الأسدى ··! وكان ذا حيلة وعقل : أرى أيها الامير أن تبعث خيلا معها فرسانها فيحدقوا بهم ثم يرموهم بالنبل لينشبوا القتال ، فاذا خرج اليهم بعض المتحصنين تقهقروا قليلا فيطمع المجوس ويخرجون كتائب كتائب ثم يستمر التقهقر حتى يتم خروجهم وتأهبهم فنعطف عليهم بسيوفنا وتجرى الاقدار بعناية الله وتوفيقه فنغنم الفوز والنجاح ·

فقال النعمان بعد أن ناقش جميع الآراء ·· لقد أصاب طليحة ، وهذا ما نرى فيه الخير والسداد ، ثم أمر القعقاع بن عمرو التميمى أن يقوم بالمناوشة مع كتيبة يختار أعضاءها من ذوى ثقته ، فصدع بالامر لوقته ، ونهض الامير الباسل فخطب طويلا جنوده ·· وقال انكم بين خيرين تنتظرون احدى الحسنيين من بين شهيد حى مرزوق ، أو فتح قريب ، وظفر يسير ، فاذا قضيت أمرى فاستعدوا فانى مكبر ثلاثا ، فاذا كبرت التكبيرة الاولى فليتهيأ من لم يكن قد تهيأ ، واذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه ، وليتهيأ للنهوض ، واذا كبرت الثالثة فانى حامل ان شاء الله فاحملوا معى ، ثم رفع يديه وقال ·· اللهم أعز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك ··! وما كاد الفرس يواجهون العرب بعد أن قام القعقاع بمهمته الدقيقة حتى حمل النعمان رايته وكبر تكبيراته الثلاث ، واندفع الى اللظى المشبوب يحمل معه الويل والرعب ، ويترك فى أعدائه ما تترك البراكين المروعة من هول وتدمير ! وقد خاض فرسه فى موج دافق من الدماء بعد أن أطاح برءوس كثيرة تجمعت عليه من كل صوب دون أن يفقد جنانه الثابت ، أو يتزحزح

عن عزمه الباسل ٠٠! خاض الجواد مندفعا فى لجته الحمراء فزلق زلقة انتهزها أحد الأعداء فبادره بسيفه ، فهوى صريعا فى مكانه ، وكان أخوه نعيم على مقربة منه فحمل الراية قبل أن تسقط وتوجه بها الى حذيفة بن اليمان ، وقد تواصيا على أن يكتما نبأ استشهاده ، كيلا يتطرق الأسف الى النفوس ، واستمرت المعركة الهائلة مشبوبة الجحيم محرقة الشواظ حتى اندحر المشركون فتعقبهم الغزاة بسيوفهم ، وكان المجوس قد ربطوا أنفسهم بسلاسل حديدية كيلا يحدث أحد نفسه بالفرار ، فأدركهم الفزع والرعب، وأخذوا يتساقطون فى الخندق المشتعل يجر كل مقيد زملاءه من خلفه حتى بلغ صرعى الخنـــدق وحده مائة ألف ٠٠! غير الذين سقطوا فى المعركة وهرب « الفيرزان » قائد المجوس ، فتتبعه القعقاع بن عمرو ، وتم النصر للمسلمين لولا أن مصرع النعمان قد نسج سحابة مظلمة فوق العيون ٠٠! فبكاه المسلمون فى فارس ، والمدينة أمر بكاء ، وتفجع الفاروق عليه وهو يستقبل الغنائم ، ويتلقى أنبـــاء النصر ، ثم غلبه الحزن فصعد الى المنبر ونعى الشهيد الحبيب مؤبنـــا رجولته وبطولته ، فضج الحاضرون بالبكاء أسفا على البدر الآفل ، والنسر الذبيح ٠٠!

ولقد انتقل النعمان من الحياة ، ولكن الى روضة الشهداء فى الجنة!، وقمة الخلود فى سجل التاريخ ٠٠!



عقبة بن نافع
فاتح افريقية

عقبة بن نافع فاتح افريقية

يتدخل الحظ فى كتابة التاريخ تدخلا يدعو الى الدهشة أحيانا ، فقد نجد رئيس قبيلة أو أمير مملكة يأخذ من اهتمام الكتاب نصـيبا موفورا تفصل فيه المواقف ، وتحلل الحوادث ، ولا تترك له واقعـة ما دون افاضة فى سرد البواعث واستخلاص النتائج ، وقد يكون صاحب هذا التاريخ الذائع المدوى رجلا عاديا ورث الملك عن أبيـه وجده دون أن تؤيده بطولة خارقة أو موهبة عالية ، ولكنه لشىء لا نعلمه ونسميه المصادفة دائما قد رزق الحظوة والخلود ، ودار اسمه على الأحقاب دورانا لا معا ، وعلى النقيض منه نرى بطلا عبقرى الشجاعة فذ الموهبة ، رائع المغامرة قد كسب لوطنه ودينه مجدا تتألق بواهره ، وتعمق جذوره ممتدة الى الأغوار ، فيتردد حديثه على الألسنة سنوات وسنوات ، ثم تجر الأيام ذيولها الطامسة على صداه فلا يهتم بدراسـته كاتب منصف الا نبذا متطايرة متضائلة هنا وهناك ، وما تزال تتناثر وتتنـاثر حتى توشك أن تبيد ، وتسأل نفسك عن سر لهذا الخمول الغريب فلا تجد اجابة شافية غير ما يؤكد أثر الحظ أو المصادفة فى احيـاء الدارس ، واعادة الطامس ، والحظ أسطورة جذابة يتمسك بهـا من يتطلب الدليل المقنع فيعييه .

هذا هو عقبة بن نافع ، بلغ بجهاده مابلغ خالد وسـعد وعمرو وأبو عبيده ، والدينا جميعها تدوى بخالد ورفقائه .. ! أما عقبة فاسم شاحب تنطق به الشفاه فى خفوت يشبه الهمس فاذا حاولت أن ترفع بذكره صوتك الممتلىء أعوزك أن تجد السمع المتيقظ ، والانتباه الحافز ، الا ما كان من قلة قليلة ذات بصر بالتاريخ ، وهذه القلة الطيبة فى حاجة الى مقدمة تمهيدية توطىء لها سبيل هذا البطل الكبير ، فتعرف كيف أدى دوره وفى أى ميدان تألق وبزغ ، وأنت محتاج الى أن توضح ذلك بايجاز أمين .

لقد انتصرت الجيوش الاسلامية على الدولة الرومانية لاول مرة فى مشارف الشام ، فذعر الروم ذعرا شديدا وأيقنوا بالخطر الداهم يفاجئهم من حيث لا يتوقعون ، فى حين ارتفعت الروح المعنوية للجيوش الظافرة، فاتجهت الى مصر وتقدم الجيش العربى الى وادى النيل فانقذه مما كان يتخبط فيه من عسف الرومان وجبروتهم ، وانتشر لواء العدالة بقيام النظام الاسلامى فى مصر ، وفاض نور الاسلام على وادى النيل ، فأصبحت هذه التبعة من شمال افريقية احدى معاقله الحصينة ، وتشرب أبناؤها روح الدين الجديد فاعتصموا بحبله وحفظوا قرآنه ، وتحدثوا بلغته ، ولم يكن بد من التطلع الى افريقية لتنضم برجالها وحصونها الى الدولة الاسلامية الناشئة ، فاتجهت همة القائد الحكيم عمرو بن العاص اليها ، فسار غربا الى برقة ، وطرابلس فافتتحهما وترك بهما حامية عربية ، وفى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه توجه عامله وأخوه من الرضاع عبد الله بن أبى سرح الى افريقية على رأس جيش عربى يبلغ عشرين ألف مقاتل ، وقد انضم اليه عقبة بن نافع قائد حامية برقة ، وخرج البربر والروم للقائهم فى جيش كثيف يزيد عن جيش الاسلام بما يقدر بمائة ألف مقاتل ودارت معارك رهيبة ثبت لها المسلمون برغم ضآلة العدد والعدد ثباتا رهيبا فدارت الدائرة على أعدائهم وأبلى عقبة فى هذه الملاحم بلاء حميدا فتألق نجمه ، وعد من قادة الاسلام وحماته الميامين ·

كان عقبة بن نافع شجاعا مقداما وهو من كرام التابعين الذين أدركوا فضلاء الصحابة وأخذوا عنهم الورع والشجاعة والايمان ، وقد امتلأت جوانحه حمية وبسالة وسحره ما أبداه أبطال الاسلام من فتوة وتضحية فأعجب بحمزة وعلى ، وخالد وسعد ، وآلى على نفسه أن يقوم مقام هؤلاء الأبطال ليعلى كلمة الله فى بلاد تكتنفها الغياهب ويلفها الظلام ·

سار عقبة الى برقة وأبلى أحسن البلاء فى جيش ابن ابى سرح وأخذ يتحرق شوقا الى لقاء الاسلام فى معارك حاسمة ، غير أن الخليفة عثمان كان قد استشهد فى داره ، ووقعت الفتنة بين المسلمين ، فقامت الحروب الداخلية فيما بينهم ، ووقف طوفان الفتح ريثما تنجلى الغمرة وتتحد الكلمة ، وعقبة فى حاميته كالأسد السجين فهو ببرقة يتوق الى الحرية فى ميدان النضال حيث تتصل السيوف وتعج الدماء ·

وفى عهد معاوية تحقق ما يبتغيه ، فقد ولاه الخليفة القيادة وبعث

اليه بعشرة آلاف مقاتل ليواصل الفتح ، فاندفع القائد الباسل بجنوده ونفث فيهم من روحه فتقدمهم في كل موقعة وأصبح موضع الأسوة بمهارته النادرة ونضاله المرير .

وكان عقبة يقف بجيشه العربى أمام الرومان والبربر معا ، والروم قوم متضلعون بفنون الحرب يعملون الحيلة ويرسمون الخطة ، والبرابرة معشر كفاح وجلاد ، فقد صهرتهم شمس الصحراء ، فتسلقوا الجبال واختبروا الآكام والصخور ، ونازلوا الوحوش فى أرباض ملتوية ، وأدغال كثيفة ، فهم أشبه الناس بالعرب حماسة وقوة لولا أن ايمان المسلمين يدفعهم الى المهالك ويحبب لهم الاستشهاد ، هذا الى ان البرابرة اصحاب الصحراء يعلمون مخابئها ودروبها ، ويعتصمون بقللها وآكامها ، والعرب غرباء نازحون يجهلون ما يجهل الغريب فى أماكن لم تطأها قدمه أو يأته عنها حديث .

كانت الصعاب تكتنف الجيش الاسلامى من كل ناحية ، ولكن عقبة يستهين بما يعترضه منها ، فعليه أن يتغلب عليها باذلا جهده وفكره وحيلته ، ومن ثم فقد استبسل وجالد ومضى يشق البيد ، ويطوى المراحل وينكل بأعدائه الأشاوس حتى خافه محاربوه ، وذاق حلاوة النصر فى مطلع كفاحه ، فوثق به جنده وسيطر عليهم سيطرة الحازم البصير ، وعالج بالقوة ما يحدث من شقاق ، فأخذ الخونة بالجزاء الصارم ليكونوا عبرة بالغة لمن يظهرون الاخلاص فى الوجوه ويبطنون البغضاء فى القلوب .

تقدم عقبة بأبطاله فأحرز النصر والكفاح ، ثم عمد الى أجمة عظيمة تسكنها السباع والأفاعى ويرهب البربر وحوشها الكاسرة ، وهوامها المؤذية فأزال أحراجها وأعمل الرماح والسيوف فى حيواناتها ، ففرت هائمة تلتمس النجاة ثم ابتنى فوقها مدينة القيروان ، ورأى البربر كتائب الوحوش تفر هاربة من الغزاة الظافرين ، فزادت رهبتهم وعدوا ذلك انتصارا حاسما للاسلام تؤيده السماء فأذعن الكثيرون لدين الله ، وهبوا يساعدون فى بناء القيروان ، فشيدوا دارا للامارة ، ومسجدا للصلاة ، وبيتا للناس ، وفى فترة يسيرة أصبحت حاضرة العرب فى افريقية تتجاوب آفاقها بالآذان ، وترتل فى جوانبها آيات القرآن .

واصل القائد المغوار زحفه وفتوحه ، ولكن النبأ يأتى بعزله على الرغم من انتصاره الساحق ، ومجده العظيم ، فاكتأب البطل أسفا وحسرة اذ حيل بينه وبين أمانيه ، وضاعف شجونه أن القائد الجديد أبا المهاجر لم يرع له مكانته فلم يطق صبرا على ما يرى ويسمع ، وسار الى دمشق

فأبلغ معاوية مالحقه من تنقص واستخفاف ، ومكث فى عاصمة الخلافة وفى قلبه أمل بارق يود أن يتحقق عن قريب ·

كان أبو المهاجر ينتهج سياسة المسالمة والأمان ، فرأى الملاينة سبيلا ناجحة الى تجمع القلوب ، وتآلف النفوس ، فصانع البربر حتى أمنوا جانبه ، واعتنق رئيسهم « كسيلة بن لمزم » الاسلام ، فجامله أبو المهاجر وشفعه واجتباه ، ثم تقدم قليلا الى الغرب دون أن يحرز فتحا مبينا ، والجيوش العربية مشوقة تتطلع الى قائد مغامر يطير بها من نصر الى نصر ، ويعيد اليها أمجاد عقبة وفتوحه الظافرات ·

ولم ترض الأقدار للبطل الأعزل أن ينأى عن مسارح كفاحه ، وميادين فتوحه ، فمات معاوية وأعاده يزيد الى مكانه من القيادة ، فاستقبله جنوده استقبالا رائعا ، ورجع البطل الى مضماره الفسيح والأمل يفسح له الرغائب ، وينير فى عينه الحياة ، ولم ينس ما فعله به أبو المهاجر فكال له صاعا بصاع وأوثقه فى الأغلال ثم حمله مكبلا فى جيشه الفاتح ليرى بعينيه انتصاراته الباسلة ، فيتحرق فى قيده لهفة وخذلانا ، وليت عقبة قابل السيئة بالحسنة فيسجل له الدهر أخذه بالعفو واعراضه عن المخطئين ·

ولابد من وقفة منصفة يناقش فيها ما أتاه الرجلان ، فقد كان أبو المهاجر على خطأ فادح حين استمع الى نوازعه المغرضة ، فاندفع يرهق عقبة بما أحرج صدره وآد قواه ، وكأنى به وقد لمس مكانة البطل فى جنده ، وعلم أنه لا يوزن به كفاية واقداما ، فخاف على نفسه من مقارنة أكيدة يقيمها الجنود فى خواطرهم حين يصمتون ، ثم تتهامس بها الأفواه حين يتحدثون ، فلابد من الانتقاص والتهجم ، ومازال الضعف الانسانى يحيق بالنفوس ، فلا تستطيع له دفعا ! هذا الضعف الذى لم ينج عقبة منه حين أسرف فى الانتقام لنفسه اسرافا لايجدر بفاتح مترفع كبير ·

ومهما يكن من شىء فقد تسلم عقبة الامارة فوصل ما قطعه من الجهاد واستخلف زهير بن قيس على القيروان ، وتقدم بجنوده يخوض المعارك الدامية ، ويقتحم الحصون والآكام ·

وكان حر الهجير يحرق الجلود ويرمض الأحشاء وعوائق الطبيعة من جبال ورياح ومضايق تجثم بأهوالها فى الطريق ، والأعداء يتجمعون من وراء الكثبان والهضاب والوحوش المتنمرة تتربص مع البربر كل هول محيق ، ولكن البطل يستهزىء بالخطوب ، ويرسم للفتح خططا محكمة ،

فيهجم على « باغاية » ويمزق مابها من الحشـــود ثم يطير الى (الزاب) فتسقط (اربه) منكسرة خاشعة تحت أقدامه ، ويفر جنودها الى الهضاب والتلال بعد تلاحم رهيب ، وتأخذ عقبة النشوة فينـــدفع الى (طنجة) ويستقبله قائدها مصالحا مسالما بعد أن أفزعه الرعب ، وتحقق الكارثة الفاجعة لمن هم بمكابرة وعصـــيان ٠٠ ! ويتقدم الجيش ليرى فى بلاد (السوس) برابرة كالوحوش الضارية حفاة عراة يرسلون الضـفائر ، ويتسربلون بالجلود ويرسلون الصرخات المنكرة فى آذان لم تسمع من قبل زمجرة الوحوش فى أفواه الآدميين وتدور المعارك فيتساقط الصرعى من الجانبين ، ويتلاحق الطوفان البربرى من كل صوب وحدب ولكن القائد يتقدم ويرمى بنفسه تحت الظبا والأسنة والنبال ، وجنوده من ورائه لايحفلون بشهيد يسقط أو جواد يكبو ، ويأذن الله بالنصر لدينه ، فتخسر الجموع المتراكبة وتتفرق الوحوش الواثبة وترفرف راية الاسلام ، ويندفع البطل الى الأمام حتى يبلغ المحيط الزاخر تتلاطم أمواجه وتهدر أواذيه فيقـذف بجواده الى الماء حتى يبلغ صدره ، ويرفع يديه الى السماء ليقول فى بسالة واعذار : اللهم انى أشهدك أن لا مجاز للخيول فى هذا الماء ، ولو وجدت مجازا لجزت الى الغرب فى سبيل الله !

قوة عامة تملأ روح هذا البطل الطموح ٠٠ ! لقد توغل فى المهامه الشاســعة الأطراف ، والمطارح المجهولة الى مدى لم يخطر بذهن عربى حين ذاك ، وها هو ذا يرجع أدراجه الى القيروان ، وقد اعتقد أن الطريق ممهدة ذلول ، والأوبة هينة مسالمة ، ولكن الروم والبرابرة يتحرشون بالفاتحين ، وكلاهما فى حزن مؤرق ساهد ، فالروم يلتاعون لملك فقدوه، وعدو يأخذ عليهم الطريق ، والبرابرة قد خضعوا خضوعا منكرا لزعيمهم « كسيلة بن لزم » وقد اعتنق الاسلام ، وشايع أبا المهاجر ثم نكل به «عقبة» حين رجع الى القيادة ، فاستذله فى قومه بعد عزة ، وهذا خطأ كبير دون شك ، وبالغ فى تحقيره حتى أجبره على سلخ الشياه وغسل القدور ٠٠ ! فثارت ثائرته وهو السيد المطاع ، واندفع الى محالفة الرومان ، ونبـذ الاسلام ، وهذا متوقع جدا ممن كان فى مثل موقفه ٠٠ ! وتلك ثانيـــة نعدها على «عقبة» ونجعلها مدعاة بلاء كارث كان من الواجب تلافيه ٠

أجل لقد دبر البربر والرومان مكيدة أليمة للجيش الظافر ، فوقف الروم أولا أمام «عقبة» ، ولكنه أسرع اليهم ببقايا جيشه ولم يكن يتوقع أن يهاجمه البربر من الخلف بقيادة « كسيلة » ٠٠ ! فما لبث أن وجد نفسه بين المطرقة والسندان فأعداؤه يحاصرونه برماحهم وخيولهم فى كل مكان

وكان أبو المهاجر العظيم لايزال مكبلا بالأغلال ، فثارت حمية الاسـلام فى نفسه ، وعز عليه أن يجد أبناء دينه ودمه ولغته يتساقطون ، فصرخ فى الأغلال ، واستنجد بعقبـة ليفك وثاقه فيقف مع قومه فى مأزقهم الكريه ، واستجاب عقبة الى ندائه فخلى عنه ، ونسى البطلان ما بينهما من خصام ، فتقدما الصفوف معا فى حمية واستبسال ، والعدو يبرق ويرعد والثقة من الجنود يتهاوون شهيدا خلف شهيد ، ويخلف النصر هذه المرة وعده للغزاة الظافرين ، فيستشهد أبو المهاجر فى حومة النار بعد أن ضرب المثل الأعلى للحمية العاقلة والرجولة المترفعة عن النزوات ، ويتبعه عقبة فيظفر بالاستشهاد وقد بذل المكنون من بطولته وحيلته ولكن أجل الله قد جاء ·· !

ولابد من وقفه ثانية نناقش فيها ما أتاه البطلان ، فقد سـجلنا عليهما فى الوقفة الاولى استجابتهما معا الى الضـعف الانسـانى الاليم ، ولكننا فى هذه المرة نستلهم البيان أصفى مشارعه لنحيى هذين العملاقين فقد هتف بهما الايمان الحى أن يتذكرا الاسلام فى أحلك المواقف ، فينسيا أحقادهما السالفات ، واندفع كلاهما فى لجب الموت الطائش يخط مصرعه فوق ركام من جثث الأعداء ، حتى اذا ضاق المأزق لقى الله بطلا باسـلا تفوح أدرانه بالطيب ، ويتألق وجهه بالثواب ·

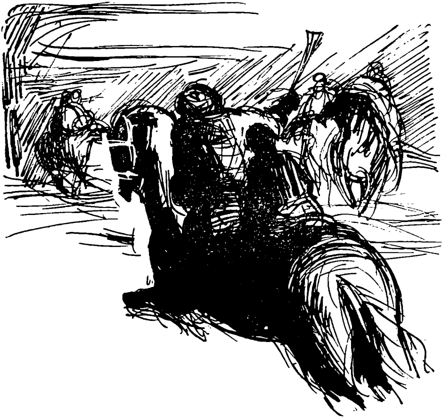
لقد أعاد عقبة بجهاده فى افريقية أمجاد اليرموك وحمص والقادسية وبابليون ، بل ان الأسـتاذ محمـود الخفيف ليرى أنه قد فاق خالدا وأبا عبيدة بما قام به من نضال ، وها نحن ننقل هنا بعض ما قال ··

« لقد حارب خالد قوما هدهم الغرور والترف ، كانوا قبل لقـاء المسلمين بأسهم بينهم شديد ، فلم يكونوا حين ساقوا جموعهم يدافعون عن عقيدة أو يذودون عن مبدأ ، بل كانوا يقفون فى وجه عقيدة منبعثة من الصحراء ، الموت فى سبيلها أحب الى أصحابها من الحيـاة ، وكان المسلمون تحت راية خالد ، وأبى عبيدة يقتلون ويقتلون ، وقد باعـوا أنفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة ، كلمتهم كلمة أميرهم ، ووجهتهم وجهة خليفة رسول الله فيهم فلا تنازع ولا تنابذ ولا احن ولا انقسام ·

أما عقبة فقد جاء دوره بعد أحقـاد واحداث فرقت الكلمة بين المسلمين ، وجعلتهم شيعا ، وكادت تأتى على بنيانهم من القواعد ، جاء دور عقبة فى الجهاد بعدما كان فى الاسلام من قتل عثمان ، وبعدما كان من أمر الجمل وصفين ، جاء دوره بعد أن عرف الاسـلام الخوارج وغيرهم من الأحزاب ، وبعد أن عرف المسلمون طريقة أخرى فى الغنائم والأسلاب

أو كان عقبة يحارب الروم والبربر وكان البربر أولى بأس وعنـاد ، جبلوا على الحرية ، فما كانوا يعرفون ما الخضوع ٠٠ ؟ طبيعة نفوسهم كطبيعـة بلادهم ، فيها مناعة الجبال ، ووعورة الجبال ، وفيها صرامة البيد وبساطة البيد ، فهم لذلك فى القوة كالعرب المهاجمين يطرحون نفوسهم تحت المنايا ولا يطرحونها تحت أقدام الفاتحين » ٠

وان بطلا ينتصر بجنوده القليلين مع هذه الموانع لجدير بالمحمدة ٠ والتبجيل ، ويكفى أنه جاهد وجالد حتى جاد بنفسه سهلة راضية فى سبيل الاسلام ٠



عبد الله بن الزبير
الشجاع الأبي

عبد الله بن الزبير الشجاع الأبى

كما يدل العود الصغير فى التربة الطيبة على ما ينتظره من نضرة زاهية فى منظره ، وثمرة شهية فى مستقبله ، ثم يتعهده الغـــارس بالرى والتنمية ٠٠ حتى يترعرع على الايام ساقه ، وتتهادى مع النسيم أوراقه وثماره كذلك ينمو الناشىء الصغير رويدا رويدا وفى عينيه بريق يومض بالنجابة والذكاء ، وفى فمه لسان ينبىء عن الألمعية المتيقظة ، والبديهة الآخذة ، وفى أفعاله مخايل صادقة تسفر عن العزيمة الصادقة والارادة الصلبة حتى اذا أسلمه الصبا الغض الى الشباب الحاد تكشــفت براعمه المكنونة عن أحسن ما تتكشف عنه معادن الرجال من فراسة نظر ، وعمق تجربة ، وهمامة نفس ، وهـكذا كان عبد الله بن الزبير فى طفولته هلالا يتكامل ضوؤه فى سطوع ، ويمتد شعاعه فى قوة حتى اذا عبرت به الايام فى سيرها الدءوب تطلعت العيون منه الى بدر متوج ، يتخلى من أوجه فى أرقى منال ، ويسطع من عزه فى أعلى سماء !

أجل لقد كانت بوادره العجيبة فى طفولته مثار الدهشة والابداع ، واذا كانت اللمحة السريعة من الطفل الصغير تروع ذوى الفراسة بما ترمز اليه من ذكاءه وافتنان ، فان كل رائعة ممتـــازة من بداءة عبد الله كانت ترى مألوفة معتادة فى نفوس ذويه ، لما توالى عليهم من بدائهه النافذة ، وتقاطر دونهم من فرائده الفاتنة ، ولا عجب فقد تربى فى بيئة صالحة كريمة ، وتعهدته أمه ذات النطاقين بأسمى ما عرف فى عهده من التربية والتقويم ، ورأى فى جده العظيم أبى بكر مثالا عاليا للمؤمن الطاهر فى صلابة ايمانه ، وصدق يقينه وصفاء قلبه ، كمـا شاهد فى والده الزبير شجاعة الواثق بربه واخلاص المعتز بدينه ، وفدائية المقاتل عن عقيدته ، أما جدته صفية بنت عبد المطلب فقد جمعت أكرم العناصر الطيبة ، وأنفس الأعلاق المدخرة ، واذا درج الطفل هذا المدرج فى حجر هذه الأم الرءوم ، تلك التى نافست الرجال منافسة عارمة فى كبت العواطف ، وقهر النوازع

كما ورثت عن أبيها الطيب ، وزوجها الكفء أسمى ما يمتدح به الناس فى أقوالهم من نقاء الصفحة ، وبلاء التضحية ٠٠ أقول اذا درج الطفل هذا المدرج فى كنف هذه البيئة الأصيلة فلا تسل عما تتميز به تربيته القويمة من استشراف للعظائم ، وتطلع الى التحليق ، ورسول الله من وراء ذلك يغذى الشبيبة الاسلامية بتعاليمه الطاهرة ويفتح النوافذ الموصـــدة على أضواء متألقة باهرة ، تصل الى أعماق النفوس ، فتكتسح الغياهب ، وتجلو الشكوك وتنشىء من الشباب المسلم نموذجا رفيعا يشغل الناس بمجده ، ويبهر الدنيا بفتوحه ، وعبد الله أحد هؤلاء الشباب المتوثبين ذوى الأمل النازح والمطمح البعيد ٠

ترعرع الأملود الصغير لدن جالد الاسلام الوثنية بسلاح لا يفل من الصبر والشجاعة والايمان ، فهب الطفل الناشىء ليرى فى سنه المبكرة والده الزبير يغدو ويروح الى الحرب ، متقلدا سيفه ، راكبا جواده ، وتوالت على مســمعه الغض أحاديث الوقائع فى بدر وأحــد ، والأحزاب وخيبر ، فاولع بالفروسية والـكفاح ، وتمنى أن يقذف بروحه فى طوفان لجب من السيوف والارماح ، واذ عجز الواقع أن يتيح للصــغير مأمله فى ساحة الحرب فانه لينشىء بنفسه ساحة أخرى بالمدينة تطفىء حنينه الملتهب الى ميادين الصيال ، فأخذ يجمع لداته من الغلمان فى عسكرين يتقابلان ، ثم تنقض كتيبة على كتيبة ، وان الحماســـة العارمة لتدفعهم — فى تمرينهم العملى — الى التمثيل الدقيق فى المسرح العاصف ، لتكون البطولة ناضجة جياشة حين يشتد العود ، وتصلبالقناة ، على أن هيامه بالبسالة قد أورثه ثباتا واقتدارا، فكان فى عهده الناعم يناقشرسول الله ويساجله حتى قال عنه « انه ابن أبيه ! » وقد بلغ حب الغلام لرســـول الله مبلغا ملك عليه جوارحه ، وتغلغل الى المسارب الدفينة فى أعماقه ، ومن ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد احتجم ذات ليلة ، وأعطى الناشىء الصــغير دمه الشريف ليهرقه ، فلما ذهب به عبد الله شربه عن آخره ، ورجع الى الرسول الكريم يقول : لقد جعلت دمك الطاهر فى مكان يخفى على الناس !! فقال رسول الله — وقد فطن الى ما سمع — لعلكشربته فقال نعم ، وكأنى بعروق الغلام وقد سرت بها نشوة البهجة حين اختلطت بدمائها النابضة قطرات من دم محمد ، فاعتقد ابن الزبير انه أضاف الى كيانه قوة روحية تطهره وتزكيه وهذا العمل فى ذاته مضافا الى كثير مثله مما اشتهر به المســـــلمون فى تعلقهم برسول الله برهان رائع على الحب الخارق ، والايمان النادر ، وبهذا الحــب الخـالص أمكنهم أن يتخذوا منه على سمو أهدافه وعلو آفاقه قدوة حسنة فرزقوا سعادة العيش فى الدنيا ونعيم الفردوس فى الآخرة ٠٠ أى

شجاعة كانت لهذا الناشىء الصغير ؟ ! فقد مر عمر بن الخطاب ذات يوم بشوارع المدينة وبها أطفال يلعبون ويتحدثون ، فتفرقوا بددا حين طلع عليهم صاحب الهيبة المربكة ، وبقى عبد الله فى مكانه لا يريم ٠٠ ! فقال له عمر لم لم تذهب مع اخوانك ياغلام ؟ فقال قولته المشهورة لم أكن مذنبا فأخافك ٠٠ ؟ ولم يكن الطريق ضيقا فأوسعه لك يا أمير المؤمنين ٠

واذا كان الفاروق من المهابة والجلالة فى مربأ تتطامن دونه أعناق الجبابرة المتمردين فان بسالة عبد الله فى مواجهته لأحد شواهد مستقبله الألاق ، ولك أن تضيف الى بسالته فصاحة حكيمة تتضح بها حكمة الاجابة وسداد المنطق ، ولعل بيانه الرفيع قد مهد له السبل ــ فيما بعد ــ الى السيطرة والنفاذ ، فما قاد النفوس الناشزة كالمنطق الساحر يتدفق على لسان بطل مرموق ٠٠ آ

لقد هاجت نوازع الصبى الناشىء الى الحرب وما استطاع أن يرى أباه الزبير يغدو ويروح الى قتال الوثنية فى الفتوح الاسلامية وهو قابع فى المدينة يمثل الشجاعة فى أدوار مسرحية تجنح الى الأحلام والخيال ، فصمم على أن يلج الحروب العملية فى طراوة العمر ، ومقتبل الشباب ، وناقش الفتى وصابر وجالد وحاور حتى رضى والده بأن يصحبه الى قتال الروم يوم اليرموك ، وكان الوالد الشفيق خائفا على نجله الغض ، ثم لم يجد مناصا من اردافه معه على جواد واحد ٠٠ ! وقد أعطاه سيفا باترا ، وانطلق الجواد بفارسيه يقطان الرقاب فى رحلة عاصفة مع الأهوال ، دون أن تطير بالصغير الناشىء رعشة من خوف أو خفقة من اضطراب ٠٠! وكان منظرا ساحرا أخاذا عجب له المسلمون ، وأقبلوا بعد الموقعة الظافرة يهنئون الوالد الكبير بالبطل الصغير ٠! فيامن رأى جوادا واحدا ينطلق بفارسين٠! ويتحصن من عدته بسيفين ٠٠ قبل مشهد اليرموك وما أعقبه من نصر مؤزر وبلاء حميد ٠

مرت الأيام على عبد الله تزيده قوة وثباتا ، وتمنحه عزيمة الرجولة، وصرامة البطولة حتى عد فى طليعة الأبطال الكماة ، واصطفاه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ليكون على رأس المدد الناهض الى افريقية فيسعف عبد الله ابن سعد فى غزواته الشاقة بالمهامه الشاسعة الاطراف والمطارح النائية ٠ ! وسار ابن الزبير مع جيشه يحمل عزيمته الماضية ، وايمانه الجرىء ، لا والله ماركن فى المسير الى راحة أو تلبث ، حتى وصل الى ميدانه ، وانضم الى لواء عبد الله بن سعد ، ومضى اليوم الأول وهو يدير الفكر ، ويجيل الرأى فلم يجد خطة ابن سعد فى حربه مغنية فى مثل موقفه ، فهو يقاتل أعداءه

صدر النهار ، ثم يرجع بجنوده حتى يحين اليوم التالى فيهيىء لعدوه فرصة مديده كل يوم للاستعداد ٠٠ والتاهب ٠ ! وهذا ما يبطىء بالنصر الى مدى تتحرق له النفوس ، فانكر الشاب الوافد خطه قائده ، وأشـــار بتقسيم الجيش الى فريقين ، فريق يقاتل عدوه صدر النهار ثم يجنح الى الراحه المتيقظه ذات الحذر البالغ ، والتاهب السريع ، وفريق ثان يتعقب العدو فى الظهيرة فينهك قوته ، ويفل عضده ، ويبدد جمعه ٠٠ ! وقد أخذ القائد برأى صاحبه ، وتزعم عبد الله الفريق الثانى ، ثم هجم على العدو هجوما أفزعه وشرده ، وضمن للمسلمين النصر فى مدى قصير ، ولقد كان«جرجير» قائد الجيش المنهزم فى قوة سابغة من دروعه وسيوفه ، وشكيمة مرهبة من حاشيته وحرسه ٠٠ ! وكان له بالميـــدان زأرات صارخة الدوى ، عالية الرنين فوجه عبد الله همه الى غريمــه ، ورأى فى مصرعه خورا فى نفوس أجناده ، وهزيمة يتزلزل لهــا الكيان المناوىء تزنزلا مبيدا ، ومن ثم فقد جمع أطراف قوته ، واختار كمـــاة كتيبته ، وعمد الى القلب بين الميسرة والميمنة ، فصاول الموت فى سجال جنونى رهيب ، لم يهدأ اعصاره الجارف حتى سقط رأس « جرجير » بضربة من ذبابة عبد الله فكبر المســلمون تكبيرا مدويا ، وغنموا غنائم طائلة يبالغ فيها الكاتبون مبالغة ترتكز من الواقع على أساس متين ٠٠! ومن الرائع المدهش أن عبد الله بن سعد قد عرض قيادة الجيش العامة على ابن الزبير ، وبذلك يصـــبح والى افريقية الظافر ، ولـكن الاخلاص لمهمته يدفعه الى الرفض الحـازم ، مؤثرا لنفسه أن يرجع بكتيبته الى المدينة بعد أن أدى مهمته الحربية ٠٠ ! ليضعه الخليفة حيث يشاء ٠٠!!

لقد كان اختيار عثمان موفقا كل التوفيق ، فهو اذ أرسل عبد الله لم يرسل قوة تمد القوة بالسلاح وحده ٠٠! فلو اقتصر الأمر على الصيـــال المتقطع ما بلغ النصر مبلغه الآخاذ ، ولكنه بعث مع القوة فكرا ناهضا واثبا يفعل بالخطة المدروسة ، والحيلة المحبوكة مالا تفعله السيوفالمنهمرة والرماح المتدافقة ،واختصرت الزمن اختصــــارا يفسح للراحة مهادا وثيرا،ويضاعف الغنيمة أضعافا مضاعفة ، فيا لله للعقل المدبر ، والنظر الحصيف !!

دقت بشائر النصر فى كل مكان ، وطار ابن الزبير الى عثمان بالمدينة ليخبره بالظفر المؤزر ، ويعيد على سمعه ما شاهد وما صنع ، وقد استمع أمير المؤمنين الى قائده الشاب فترنحت أعطافه تيها بحسن اختياره ، وباهر نتيجته ، وأخذت بلاغة الفتى الشـــاب مأخذها من نفس الخليفة المعجب ، فأحب أن يقوم ابن الزبير بنفسه ، فيغرد بفصاحته المؤثرة على منبر المدينة ، ويردد نغمات النصر فى خطبة عميقة الصدى ، عذبة الايقاع ، ولـكن !!

ربما تهيب الفتى الباسل مقامه فى الذروة بين الناس ، فتلجلج الحديث على شفتيه ، وانعقد لسانه المتدفق عن الفيضان ٠٠! ذلك هاجس هجس فى نفس عثمان ، فسأل فتاه : أرأيت لو جعلتك تتكلم فى المسجد مع اناس عن غراتك الميمونة ، أكنت تجيد ٠٠ ؟ فجاءه الرد مؤيدا بدليل من الواقع وحجة من المنطق، اذ يقول عبد الله: ياأمير المؤمنين أنا أهيب لك منى لهم٠! وفعل الرد المقنع فعله فى نفس الخليفة فاذن لابن الزبير أن يخطب الناس فى يوم أعر محجل ، فقدم الكلام بنموذج رائع من البلاغة تحفظه كتب الادب والتاريخ ، ثم عمد الى موضوعه فقال ٠٠ « أيهـــا الناس رحمكم الله ، انا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنا مع وال حافظ حفظ وصية أمير المؤمنين ، فلم نزل على أحسن حالة من ربنا حتى انتهينا الى افريقية ، فنزلنا منهـا حيث يسمعون صهيل الخيـل ، ورغاء الابل وقعقعة السلاح ، فاقمنا أياما نجم كراعنا ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم الى الاســلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، وسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة تختلف رسلنا اليهم ، فلمـا يئسنا منهم نهضنا الى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بينناوبينهم قتلى كثيرون ، واستشهد الله رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التى كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهـار ، وأصبنا غنائم كثيرة وفيئـا واسعا ، ثم سكت ٠ فضج المسلمون بالابتهاج ، وقام الزبير فعانق ولده وقبله ــ فقد عرفه قبل ذلك فارسا بطلا ــ ، وها هو ذا يعرفه خطيبا بليغا يمتلك زمام القول ، ويتصرف فى أفانين الكلام ، وقد كان عبد الله موفقا حقا ، فقـد أعذر الأعـداء ، اذ عرض عليهم الاسلام أو الجزية ، كما صور جنود الله فى ايمانهم السابغ ، واعتصامهم بالقرآن تصويرا يدفع الى التقدير والاعجاب ، ويرشد عن السر الهائل فى هذا الانتصار العظيم الذى أحرزته الجيوش الاسلامية فى مختلف الميادين ٠ !

أسرعت الحوادث فى سيرها ، فثارت الثائرة على عثمان رضى الله عنه ووقف عبد الله أمام الثائرين ٠٠! يدافع الجموع ، ويذود عن عرين الشهيد المظلوم ، وكان معه الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وفريق ممن صدقوا الله وعده ، فما تركوا جهـدا الا بذلوه وقد أصـيب الحسن وابن الزبير ، وكرت الدائرة بمالا يشتهون ٠٠ ! فصـعدت روح الشـهيد الى بارئها الرحيم ، وقامت الفتنة الهوجاء ، فاندفع المغرضون والغافلون ينقمون

من الامام على ذنبا لم يقترفه ٠٠ ! وكان عبد الله فى طليعة من قادوا المعركة يوم الجمل ٠٠ ! فألبوا الجموع على على ! ونحن هنا نكتب تاريخا واقعا نستلهمه العبرة والعظة ، ولن يمنعنا الاعجاب بعبد الله من أن نسجل عليه ماقد تورط فيه من خطأ ظالم ، حين ألب الجموع على الامام العادل كرم الله وجهه ٠٠! ومثله فى حصافته النافذة وخبرته الدراسة لا يجهل مكان الامام فى قومه ، وبلاء أبى الحسن فى دينه ، فقد كان على فتى الوقائع المشرقة فى بدر والاحزاب وخيبر ، وهو بدينه المتين وعلمه الغزير وشجاعته النادرة أحق الناس بالخلافة فى أمد حائر تكالبت عليه الاطماع ، وتدافعت الاهواء تعلن عن رغائبها الدفينة ، وآمالها البعيدة ٠٠ ! وصاحب الحق أبلج مشتهر ، لا يجهل مكانه ، ولا تجحد عوارفه ، فاذا اندفع عبد الله الى مناهضته المخطئة فقد اندفع اندفاعا لاخير للاسلام فيه والنفس الانسانية لا تعدم فترات تتغلب فيها الوساوس فتحجب اليقين لحظات عن العيون ، ونحن اذ نلوم ابن الزبير على موقفه هذا انما نقرر أن الكمال المطلق منال لم يتح لغير من اصطفاهم الله من الأنبياء والمرسلين ، وأن العظماء من قادة الرأى وساسة الأمر مناط الأسوة فى محامدهم ، ومجال العبرة فى تخلفهم ، فاذا كنا نقتدى بهم فى بعد الهمة وسموق المدى ، فاننا نعتبر بأخطائهم فنتحاشى أن نتورط فيما اندفعوا اليه من جموح ، ولا سيما اذا أدرك العظيم خطأه ، فرجع الى نفسه باللوم والتثريب ، فهو يعترف بشططه قبل أن يأخذه عليه المنصفون ٠٠!

والعجيب أن الزبير بن العوام والد عبد الله قد نفض يده أولا من مقاتلة على ، ولكن نجله الثائر دفعه الى القتال دفعا لا هوادة فيه يقول الزبير رحمه الله : (ماشهدت موقفا فى الشرك ولا فى الاسلام الا ولى فيه موقف وبصيرة ٠٠! غير هذا الموطن ، فانه لا رأى لى فيه) وسأله رجل عن موقفه فقال مغلوب مغلوب ٠٠! يغلبنى ابنى ويطلبنى ذنبى ! وأنت تلمس لاذع الأسف وبالغ الندم فى عبارته الحزينة ، وقد أدرك الامام كرم الله وجهه موقف الوالد فقال « مازال الزبير رجلا منا — أهل البيت — حتى أدركه ابنه عبدالله فلفته عنا » ! والزبير من أهل البيت فأمه صفية بنت عبدالمطلب ابن هاشم ، فهو من على قريب قريب !!

ومهما يكن من شىء فقد انتهت الثورة ، وأدرك عبد الله شروده النافر فاعتزل الخلافات السياسية حقبة طويلة ، ولزم بيته يصلى ويتعبد مستغفرا ، وجعل يخرج فى الكتائب الغازية حرصا على المثوبة والجهاد ، وكان خشوعه فى صلاته ذائعا مشهورا حتى قال عمرو بن دينار : ما رأيت مصليا أحسن صلاةمن ابن الزبير٠٠! ظل عبد الله بمنأى عن السياسة بعد

مصرع على فكان لا يلج أبوابها كى لا يثير عاصفة بعد التئام الشمل ، واجماع المسلمين على خليفة واحد ، ولكنه ظهر على المسرح ظهورا أخاذا حين رأى الخليفة الداهية يمهد لبيعة يزيد ، وتلك سابقة أولى فى الاسلام لابد أن تجد المعارض الغيور فى قوم يتمسكون بالحق ولا يريمون ، وقد عرف معاوية أن ابن الزبير ورهطا من رفاقه سيكونون عقبة فى طريقه فأجهد نفسه فى التدبير والتذليل ، وسار فى طريق وعر تكتنفه الصعاب ٠٠ !

كان عبد الله يرى للخلافة حرمتها العزيزة ، ويعلم أن اهداءها للابناء خطر يهدد مبادىء الاسلام ، فآلى على نفسه أن يجابه الخليفة مجابهة لا ينفع فيها الدهاء ويقتضينا الانصاف للحق وحده أن نذكر أن اتجاه معاوية الى استخلاف وليده كان خطوة نائية باعدت بين الواقع المغرض ومثل الاسلام الرفيعة ، فدين محمد لا يعترف بالكسروية الوراثية ، بل يعطى الرعية حقها الصريح فى اختيار حاكمها الذى تريد ، ولكن النقاش الذى دارت رحاه بين معاوية وخصومه يجزم جزما أكيدا بأن الرجل كان فى خطواته الجريئة متأثرا بعواطفه الذاتية ، وحديثه مع معارضيه عن قريش وعبد مناف وعدى وتميم يؤكد أن العصبية القبلية مازالت تمتد بجذورها العميقة الى أغوار نفسه وكأن الله لم يجعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا بل لتشرئب بعض الأعناق فى قبيلة وتتطامن الرءوس فى قبيلة أخرى كما يصيح بذلك منطق الرجل الصريح ، ولم يشأ الخليفة أن يجاهر بنفسه أولا بضرورة البيعة لنجله ، بل اصطنع بعض المأجورين ليتقدموا بهذه الرغبة اليه فى ملأ من الناس حتى تكون منه الموافقة والتنفيذ لا الأمر والايجاب ، ولكن الباطل يضطرب فى مهب الحوادث فتتهلهل ستائره ، وتجلى العيون سنا الحقيقة فى وضوح ٠٠ ! فقد هبت الضمائر الحية تستنكر ما يحاك فى قصر الخلافة من تآمر وكانت المدينة بأفذاذها الغير وعبادلتها المخلصين أشجع غابة زمجرت بالاعصار الصاخب فى وجه معاوية فدوى الزئير فى أذنيه مجلجلا ، وفزع الى الحيلة كدأبه فأظهر من الهدوء المتربص ما يطفىء بمائه الجمر المشتعل فى النفوس ، ثم تقدم الى يثرب فجمع العبادلة الأربعة (ابن عباس ، وابن عمر وابن الزبير ، وابن جعفر) وهم يومئذ مهوى الأفئدة ، وقبلة الأنظار ، ثم أخذ يمهد لرغبته المجحفة تمهيدا يظن أنه سيطامن من النفوس الجامحة فقال ٠٠ « أما بعد فقد كبرت سنى ، ووهن عظمى ، وتسرب أجلى ،وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم يزيد ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ولم يمنعنى أن أحضر حسينا وحسنا الا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيى فيهما ، فردوا على خيرا يرحمكم الله وكان الخليفة يظن أنه بقوله المتكسر

وابتسامة الهادىء ، ووعده الخادع سيحمل مخاطبيه على شىء من المجاملة الرقيقة اذا تقدم بيض الاطراء المصطنع لســـامعيه ، فيفوز بمآرب ملح يسيطر على نوازعه ســيطرة لا فكاك من سلطانها القاهر ،،ولكن صوت المعارضـــة يرعد فى أذنه من كل فم ، ويأخـــذ بتلابيبه من كل ناحية ، وعبد الله أشد رفقائه حردا واستنكارا ، وأعلاهم حجاجا ومناكرة ، فانخذل معاوية دونه انخذالا جارحا وأيقن أنه ازاء قوة توشك أن تعصف بتدبيره ، فسكت على غيظ وارتحل ليدبر ٠٠ !

رجع الخليفة الى دمشق وولاته على المدينة يبلغونه فى كل يوم تأثير ابن الزبير على الناس ، فأفزعه أن تزأر الأفواه الغاضبة بيقينها الصراح على الملأ فتستجيب لها القلوب فى ثبات واذعان ، ولئن استمر فى اغضائه المتحلم لانفلت الزمام من كفه أسرع انفلات ، واذن فلابد من كرة ثانية الى المدينة ، ولابد من مهـاجمة معارضيها الأول ابن الزبير مهاجمة تكف غربه وتلين قناته فهو ــ فى منطق الخليفة ــ أقل ذوى المكانة بها حسبا ، واذا طعن من هذه الناحية فسيتقهقر تقهقرا ينقطع به صـــوته الجهير ، وكان للرجل ما أراد ، فارتحل ثانية الى المدينة ، وجمع عبادلة الاسلام ومعهم الحســـين ثم نظر الى ابن الزبير نظرة معبرة وقال يعيره : اياك أن تقع فى عرانين عبد مناف ، أما والله لئن دفعت فى بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس لتغطنك بأمواجها ثم لتهوين بك فى اجاجها ، ما بقاؤك فى البحور اذا دفعتك ، والأمواج اذا غمرتك ٠٠ ! قال ذلك معاوية ليرضى الحسين من ناحية ، وليشعر الناس أن ابن الزبير بمكان لايجيز له الاعتراض واللجاج ٠٠ ! ولكن الحمية الغاضبة تدفع عبد الله الى الرد المفحم ، فيصيح على ملأ من الناس : « أسألكم بالله أتعلمون أنى حوارى رسول الله ، وأن أباه أبو سفيان ٠٠ ! وأن أمى أسماء بنت أبى بكر ، وأمه هنـــــد آكلة الأكباد ، وجدى الصديق وجده المشدوخ ببدر ورأس الـــكفر ! وعمتى خديجة ذات الخطر ، وعمته أم جميل حمالة الحطب ، وخالتى عائشـــة أم المؤمنين ، وأنا عبد الله ، وهو معاوية ٠٠ !

أى رد هذا ؟ لقد فتح الخليفة على نفسه بابا من التقريع ، وكان أحرى به ، وهو الأديب الحصيف أن يتجنب مزالق المجابهة والتنديد ثم متى كان الفخر بالأحساب سلاحا يشهره خليفة الاسلام فى وجوه معارضيه ، وقد جاء محمد ليجعل الناس سواسية كأسنان المشط ٠٠ ! ان المســـاواة العادلة لأساس الصرح الاشم الذى نهض محمد ببنائه فكيف يعود أمير المؤمنين بالعصبية المنكرة الى جاهليتهـــا المتنـــازعة ، وقد اجتثهـــا الاســـلام

اجتثاثا لا هوادة فيه ، على أنه وقد أسكته الحق الصريح لم يتنا أن يفىء الى منطق الشورى المنصفة ، فيترك أمرا لا خير للاسلام فيه ، بل جرى فى الشوط الى غايته ، فاجتمع بالعبادلة مرة ثالثة وقال فى سمته الهادىء ودهائه البالغ ، لقد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وصلتى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وانما اردت أن أقدمه باسم الخلافة وأنتم تأمرون وتنهون ‥ ! أجل ؟ يقدمه للخلافة ، ويتركهم يأمرون وينهون ‥ ! أيستقيم ذلك فى ميزان ، واذا لم يأمر خليفة الاسلام بفضائل دينه ، وينهى عن منكرات رعيته ، فما بقاؤه فى منصبه ! انها آمال براقة ، يحاول معاوية أن يغر بها قوما يدركون خوافى سريرته ويبصرون دقائق مساربه ٠ ولكنها تبددت هباء حين اندفع ابن الزبير ليرد فى صلابة منطق وقوة يقين ، فيقول : « نخيرك يا أمير المؤمنين بين احدى ثلاث أيها أخذت فلك رغبة ، وفيها اختيار ، ان شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبضه الله ولم يستخلف ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وان شئت فاصنع ما صنع أبو بكر : عهد الى رجل بعيد ، وترك من ولده ورهطه الأدنيين من كان لها أهلا لو أراد ، وان شئت فاصنع ما صنع عمر : صيرها الى ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا ، فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، فقال للآخرين : ما عندكم ؟ فقالوا نحن على ماقال ابن الزبير !!

هذا طرف من الجدل الذى كابد معاوية مرارته ، وتحمل شجونه وتباريحه ، وقد حرصنا على أن نذكره ليعلم القارىء مدى شجاعة ابن الزبير ، وكيف صدقت فيه المخايل والظنون ، فأبدى من الشجاعة الأدبية فى مضمار الجدل ما فاق بسالته الخارقة فى ساحات القتال ، وقد صمم الخليفة على رأيه ، فبذل الأموال ، واشترى الضمائر ، وكانت سابقة جارحة فى الاسلام نذكرها آسفين ، فلو لم يقدم الرجل على فعلته لاطرد الحكم الاسلامى سابقا الى مثله الأعلى ولظلت تعاليم محمد سافرة وضيئة تعلن للناس قداسة الشورى ، وأصالة المساواة ، على أن يزيد لم يل الحكم الا ليزيد الفتنة اشتعالا ، واللهيب اندلاعا ، فقد كثرت الأحزاب السياسية ، وانصرف المسلمون الى قتال أنفسهم ، بعد أن كانوا يجالدون الوثنية فيما حول الجزيرة العربية من ممالك وامارات ، وسالت الدماء العزيزة كل مسيل ، اذ وقع بأس العرب بينهم وأعداؤهم يرمقونهم شامتين مشتفين ‥ ! حتى حلت النكبة القاصمة فصرع الحسين فى قلة من جنده ، وتحرشت السيوف بنفوس طاهرة ، وجزع المسلمون فى كل

ناحية على البطل الشهيد ، فقامت المآتم المعولة ، ودوت الصرخات الفاجعة ولا يزال صدى المصرع الرهيب – على تناسل الأجيال – يملأ القلوب حسرة ، ويفيض بالدمع الزاخر من المحاجر الشحيحة ، ومن وراء ذلك خزى الله ، وانتقام السماء .. !

مات الحسين ،فتزعم عبد الله بن الزبير معارضة يزيد ، وصادفت دعوته تأييدا كبيرا اذ أن اللوعة المحرقة على الشهيد الصريع قد أضرمت الشعور الاسلامى بنار الكراهية والسخط على الامويين ، وجذبت الى ابن الزبير الأعنة ، فاتجهت القلوب فى أكثر أصقاع الدولة الاسلامية الى تأييده ، وقد وازن المسلمون بين يزيد وعبد الله ، فرأوا البون شاسعا بين الرجلين فى المواهب والمواقف والايمان فنبضت بحب عبد الله العروق ، ووجدت فيه النفوس المحروقة ظلا منعشا يدفع عنها سموم الجور ، ويوقظها ببرد العدالة والاطمئنان ، وفى خلال ستة أشهر فقط بايعه أهل الحجاز ومصر وقسم كبير من اليمن وخراسان وحمص وفلسطين ، بل ان الخطر قد تدفق الى أبواب الشام .. ! ونظر يزيد فاذا الهاوية تتسع والحرج يفغر فاه .. ! فماذا يصنع حاكم دمشق ووارث معاوية .. ! لقد استشار ذوى رأيه ، وأصحاب أمره ، فلم يجدوا بدا من المقاومة والجلاء ، فأخذوا الأهبة، وأعدوا الأسنة والرماح والخيول ، ثم سارت جحافل الشام الى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، فتحول حرم رسول الله الى شواظ ملتهب برمى بالحمم والأهوال ، واستباح الغزاة محارم المدينة ، فأكثروا القتل والسلب والاعتداء فى مدى ثلاثة أيام أمحلت العامر ، واكتسحت الأخضر واليابس وعرفت هذه الموقعة فى التاريخ بموقعة الحرة ، وتابع الجيش المنتصر سيره الى مكة ، فزحفت اليه قوات ابن الزبير ، ودار القتال بين الفريقين ، وقد أغرت جيوش أمية هزيمة المدينة بالعجب والكبرياء فحسبوا مكة ستكون سهلة الازدراد ، هينة الجلاد ، ولكن عبد الله قد ثبت ثباتا مدهشا ! واكتفى الجيش بالمحاصرة بعد أن ضرب الكعبة بالمنجنيق وأشعل النار فى سقوفها وجدرانها ، ثم جاءت الأنباء بموت يزيد ، فتخاذل الجيش الأموى وتضعضع ، وانتهز ابن الزبير هذه البادرة فحمل عليه حملة صادقة ، وانتقم للمدينة الجريحة فى يوم صعب بئيس !

أى نصر يبقى على الأيام ، لقد مزق عبد الله فلول الشام ، وحسب ان النوم سيداعب عينيه قليلا فيرتاح من حر الصيال ارتياحا يعيد الى جيشه القوة والأمن والعتاد ، ولكنه ينظر فيجد الخوارج يأخذون أنفسهم بمناوأته ، ثم يتتابعون فى صرامة وعنف ليرهقوه بأسئلة لا طائل من

ورائها ولا نفع ، فهم يسألونه عن رأيه فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى فلا يجدونهم ذوى اتفاق معه فى الرأى المتطرف والمذهب الجرىء ، والحكم القارص .. فهو يلجأ الى الحكمة والموعظة الحسنة ، ويستشهد بالقرآن والحديث ، وذلك لا يقنع مجادليه فى قليل أو كثير .. ! فانقلبوا عليه أسوأ انقلاب وجمحوا الى حرب السنان حرب الشائعات والأراجيف .. !

ثم ماذا ؟ لقد اتجهت جيوش الشام الى مصر فطردت عامل ابن الزبير فى معركة شابت لها الرءوس .. ثم انتفض الأزارقة من الخوارج عليه أيضا بفارس وعاثوا فى الأرض فسادا ، ولو كان الرجل يحارب فى جبهة واحدة لأمكنه أن يمد ظلاله على الدولة الاسلامية فى عزيمة ويقين ! بل لو كان يعطى الدنية فى عقيدته لهادن الخوارج فسكتوا عنه الى حين .. ! ولكنه تمسك بمبدئه اذ ترك العاقبة للأقدار تجىء بها كيف تشاء .. وقد بعث أخاه (مصعب ابن الزبير) الى قتال الخوارج بالبصرة فجالدهم مجالدة رهيبة ظافرة ، وقد ذاق حلاوة النصر بعد أن بذل من جنوده وعتاده مددا زاخرا ما كان أحوج عبد الله اليه فى تدعيم امارته وقد تعرضت الى اعصار جديد يهب ثانية من الشام اذ وليها عبد الملك بن مروان وبادر الى مساجلة ابن الزبير سجالا يبرق فيه الموت ، ويحيط المستقبل بنذر غاشية ترمض لها الجوانح وتنفجر الشئون .. !

لقد سار جيش عبد الملك الى العراق فلاقاه مصعب ليستأنف قتالا لم تتعادل فيه الكتفان ، بين قوم أجهدتهم الحرب السالفة من الخروج ، وطحنهم الجلاد العاصف طحنا مبيدا ، وقوم يتأهبون ويستعدون وقد أخذوا لكل موقعة حسابها ، فاكتملت ذخائرهم اكتمالا يبعث الحمية ، ويرتفع بالروح المعنوية الى أوج منيع ، زد على ذلك أن أعوان مصعب من العراقيين قد انتفض عليهم داؤهم القديم ، فتخلوا عنه وخانوه فى أحرج مواقفه ، وحانت ساعته فسقط شهيدا بعد جلاد يائس أسيف !!

ياللحزن الرهيب يطوف بالنفوس الصابرة فما يكاد يلم بثباتها الوطيد حتى يذعره اليقين الصارم فيفر مندحرا مقهورا .. ! لقد تماسك عبد الله وتجلد ، ثم استشعر لذعة الأسى على مصرع شقيقه فنفس عن صدره الكظيم بخطبة مؤثرة ، أخذ يزفر بها زفرات مكروبة حيث يقول : « الا وان خبرا من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا ، فأما الذى أحزننا فان لفراق الحميم لذعة يجدها حميمه ثم يرعوى ذوو الألباب الى الصبر وكريم الأجر ، وأما الذى أفرحنا فان قتل مصعب له شهادة ، ولنا ذخيرة ، أسلمه الطغام الصم الآذان أهل العراق وباعوه بأقل الأثمان ، فان يقتل فقد قتل

أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين ، أما والله لا يموت حتفا كما يموت بنو مروان ، ولكن قعصا بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ٠٠ !

واذا كان النصر يدفع ني النصر فقد تحمس جند الشـــام لمصرع مصعب ، وهرعوا لمحاصرة الأسد فى عرينه بمكة ، وتزعم الحجاج قيادة الجيش المهاجم سالكا طريق العراق نحو الطائف ، ومرت شهور قاتمة حزينة على عبد الله فالغزاة يغيرون على المسالك والدروب فيقتلون الرجال والنساء والأطفال ، ثم يجيئهم المدد المتلاحق من جند الشام فيحيطون بأم القرى وينصبون حولها حصارا يمنع الطعـام والشراب ، ثم تنصب المجانيق على هضاب أبى قيس لترمى الكعبة بالنيران المشتعلة مع القذائف الصواعق ٠٠٠ فاذا ارتجف الجنود قليلا لمهـــاجمة بيت الله صرخ فيهم الحجاج صرخات متوعدة ، وبدأ بنفسه فقذف اللهيب ، وأدار المنجنيق !! وهرع المكيون يطلبون الأمان من الحجـــاج وقد أرهقهم الجوع والعطش واللهب ، وتفرق الأنصار عن عبد الله فلاحت نهايته المتوقعة عن كثب ، وقد اســتمع الى أمه أسـماء بنت أبى بكر فافرغت عليه من ثباتها المؤمن ما حبب اليه الاستشهاد فى حديث قوى تحفظه الأجيال ، وترويه صحائف الأدب والتاريخ ، واذ ذاك تقدم الى الشهادة موفور الكرامة ثابت اليقين ، واستقبلت السماء بمصرعه روحا جريئا وثابا تعاظمت آماله ، وسمت همه ٠٠ فما استكان لطاغية أو اعترف بدخيل ٠



موسى وطارق

فاتحا الاندلس الكبيران

موسى وطارق
فاتحا الأندلس الكبيران

نجاح العصامى دليل لا يخطىء على مقدرته وكفايته ، فلولا ماوهبه الله من المزايا الباهرة ما استطاع أن يقفز الى القمة فى دنيا تتزاحم بها المطامع ، وتتصارع عليها الأهوال ، ولا كذلك من يتوارثون المجد فى بيوت يتسلق أبناؤها على جهود الآباء والأجداد فيجدون الأبواب مفتحة ، ويشعرون أن وراءهم سواعد قوية تدفعهم الى التقدم والفوز ، وتزيح ما يعترضهم من العقبات فهم من ذويهم فى عسكر وعتاد حصين ، أما موسى بن نصير وطارق بن زياد وغيرهما ممن حلقوا بجهودهم الفردية فى الأجواز الشاهقة وارتفعوا بمواهبهم الشخصية الى الآفاق العالية فجديرون ـ قبل سواهم ـ بالاكبار والاطراء !

وولد موسى بن نصير فى خلافة الفاروق رضى الله عنه وكان والده نصير عربيا صريحا ممن سباهم خالد بن الوليد فى بعض حروبه ، فتنقلت به ظروف حياته من سيد الى سيد حتى صار قائما على حرس معاوية بالشام ، ومع صلته الوثيقة بمولاه فقد أبى أن يشترك معه فى حرب الامام على كرم الله وجهه ، ولم يشأ معاوية أن يضطره الى مجهود لا تسنده العقيدة ولا يتوافر به الاخلاص ، ونحن نقدر لهذا الرجل الأبى اعتزازه برأيه ، وتمسكه برفيع المبادىء ، وقويم القيم ، على الرغم مما ضرب عليه من رق مرير ، ولو وجدنا فى الاحرار من يقتدون به فى اعتزاز الحق ونصرة الفضيلة لتغير وجه التاريخ الاسلامى ، وخفق لواء الخلافة فى كل عصر من عصورها المتتابعة على أناس شرفاء يهدون بالحق وبه يعدلون ..

وقد شب موسى فى كنف هذا الوالد ، فأخذ عنه بعض الصحابة ، وروى الحديث المحمدى ودروس مبادىء الذكر الحكيم دراسة تهدى الى الجوهر الصريح ، ورأى من كوارث عصره وتقلبات زمانه ما أوسع فى تجربته ، وأمد فى معارفه ، وقد جبل فى حداثته على تقدير المسئولية

ومواجهة الصعاب بعزيمة عاقلة وصبر بصير فكانت ارادته المثابرة معوانا يأخذ بيده اذا تأزم الامر ، وغم السبيل ، وقد ورث عن أسلافه فى البادية فصاحة تأسر القلوب حتى قال عنه صاحب نفح الطيب « لقد رويت عنه بلاغة فى النظم والنثر تدخله ـ مع نزارتها ـ فى أصحاب درر الكلام » ورجل هذه مزاياه لابد أن يجذب اليه انظار الناس ، فقد وكل اليه معاوية بعض الاعمال الادارية ، ثم رمى به غازيا فى احد المناحى القاصية فأبدى كفاية حميدة ، وكسب نصرا مؤزرا وعاد الى دمشق ومصر وغيرهما ليكون رجلا من رجال الحروب وعظيما من عظماء الاسلام .. !

وكان من سياسة عبد الملك بن مروان أن يقيم اخوته أمراء على حواضر الخلافة ، ويعززهم بأهل الدراية والدربة من العقلاء لتسير السفينة فى رعاية مفكرة راشدة تتجنب بها المآزق والاهوال ، وحين بعث أخاه بشر بن مروان الى البصرة انتدب معه موسى بن نصير وزيرا يشير بالرأى ومؤازرا يتحمل النتائج ، فساس الامور بلباقة حصيفة وأصبح ذا الأمر الفعلى يصدر ويورد كما يشاء ولكن الدنيا تتبدل ، ويأتى الحجاج واليا جديدا مكان بشر وهو كمستبد باطش لا يقبل أن يقف بجواره نائب يشير بالامر ويناقش الرأى ، فعزم على التخلص من موسى سريعا وبادر باتهامه لدى الخليفة مدعيا أنه نهب أموالا واختلس جواهر وحليا وكانت كارثة أليمة تتهدد موسى وتأخذ بخناقة لولا تدخل عبد العزيز بن مروان فقد شفع له عند أخيه فأحكم الدفاع ، وبدد الشبهات، ونجا موسى من مأزقه ، وسار مع شفيعه المخلص الى مصر ليقف الى جواره ناصحا مطيعا ، وناصرا ذاهمة واختبار .. وكان اعجاب عبد العزيز بموسى مفتاح مجده وسلم سعادته ، فقد اقتنع الرجل اقتناعا كاملا بمواهب صاحبه ولمس فى مختلف أعماله وشتى مناحيه كفاية يؤيدها الواقع ، وينطق بها الناس فسعى سعيا حثيثا حتى كسب له ولاية أفريقية وكان البربر لعهده فى ثورة لاتخمد ، وفتنة لاتنقطع ، فهم يتحرشون بالولاة ، ويغرسون بذور الشر فى كل مكان ، وقد قاموا فى وجهه لأول عهده بفتن دامية واضطرابات مثيرة وظنوا أن الوالى الجديد سيعجز عن ملاقاة العاصفة فيلتاث عليه الامر ، وينقطع به السبيل ولكن موسى يجتمع بذوى رأيه فيناقش ويستشير ، ثم يندفع مصمما على قمع الفتنة واخماد الثورة بين الناس ، فيقابل الاعصار الهائل باعصار أعنف تدميرا وأشد نقمة ، ويجد الثائرون أنفسهم تجاه قوة عاتية لا تدع من شىء الا أتت عليه ، فيلوذون بالفرار ، ويعتصمون بالمغاور والهضاب

وكهوف الجبال ويفرغ الرجل لتدبير أمره ورعاية شــأنه وقد رأى أن خضوع البربر لا يتم لحاكم مثله الا اذا نشر تعاليم الاسلام وجلب اليــه ذوى المكانة والرأى فى ملئه أولا ثم يدفع بهم - بعد الايمان الراسخ - الى أبناء جنسهم فينشرون بينهم دينا يهدى الى البر ، ويدعو الى الخير ، وقد حرص موسى على ذلك حرصــا دقيقا فبعث الائمة والهـــداة فى المدن والفيافى ، وحمل رسالة محمد الى القلوب المتحجرة فتصدعت من خشية الله، واستجابت الى هداية الســماء ، ودخل البربر فى دين الله افواجا خلف أفواج ولولا انتشار الاسلام على يد موسى ما استقر له الامر فى المغرب مع برابرة اشارس تنزو بهم المطامع ، وتتكالب عليهم النزوات ٠٠ !

وقد كان موسى مع حزمه العاقل على جانب كبير من خشية الله وتقواه ، وبايمانه المشرق استطاع أن يكسب العرب خصوما لدا تنأى بهم الأحقاد والشرور ، كما ايقظ الاسلام فى نفســه احساسا صادقا يتجه به الى السماء دون الناس ، فقد وقع بالمغرب قحط شــديد وفزع الرجل الى ايمانه فدعا أصحابه الى الصوم والصلاة واصلاح ذات البين .. ! وخرج بهم فى الصحراء يؤدون صلاة الاستسقاء فى تبتل وخشوع ٠ وخطبهم خطبة مؤثرة تستدر الدموع وتلين القلوب ، فقيل له : ألا تدعو لامير المؤمنين !! فصاح به ايمانه البصير ، رويدا ، هذا موقف لا يذكر فيه غير الله ، وكانت اجابة قاصمة لأناس لا يكفون عن الملق والمداهنة فى أحلك المآزم وأحرج العقبات .. !

واذا كان الاسلام دين العمل والكفاح ، فقد أمد موسى بقوة فوذلاية تدفعه الى الســهر والنشــاط ، فعكف على بناء المصانع ، وتجهيز السفن ، وانشاء الاساطيل ، وفطن الى الخطر الرومى الذى لايزال يتهــــدده فى كل حين ، فقد راعه ما يقوم به الأعداء من غارات متتابعة على الثغور الافريقية ، فيوقعون الذعر والقلق ، ويجمعون الى صفوفهم من لا تزال تأكله الضغائن السوداء على انصار الاسلام وحين أكمل الرجل عتاده الحربى ترك سياسة الدفاع ، وبدأ بالهجوم المنظم على الجزر المتاخمة ، ففزا جزائر البليار ، وافتتح منها ميورقة ، ومنورقة ، وهاجم أسطوله صـــقلية وسردينيا حتى بسط حمايته على الشمال برا وبحرا ، أما فى الداخل فقد غزا قبائل هوارة وكتامة وصنهاجة ، وزناتة ، والسوس الأقصى ، ثم افتتح طنجة ، وكانت معقــلا حصــينا للثــوار فخضعت لشكيمته ، وتبدد خصومه أبادید ، وترك عليها جنديه الباسل « طارق ابن زیاد » ٠٠ !

وقد همدت اذ ذاك ثورات القبــائل همودا لم تقم معه قائمة

لصاحب فساد واضطراب ، وأصبح موسى سيد افريقية وبطلها المرموق ، وقد درس النفوس دراسة حصيفة ، فكان يعلم بنظراته الفاحصة واختباراته الملهمة من يخلصون له المودة عن صدق واعجاب ، ومن يتربصون به دوائر الهزيمة والاخفاق ، وأفصح عن سرائره حين قال في بعض خطبه « أيها الناس ان كل من كان قبلي كان يعمد الى العدو الأقصى ، ويترك عدوا منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عونا عليه عند النكبة ، وأيم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ، ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين » وهذا تهديد قاس لطابور خامس يظهر المودة ويطوى الضلوع على جمر مشتعل ، وحقد أثيم ، وقد فضحه موسى فضيحة تكمد النفوس ، وتفت فى الاعضاء ، وتوهن العزائم وهنا لا عافية فيه ، اذ ان المنافقين فى كل عصر ومكان يحذرون أشد ما يحذرون أن تنزل على خصومهم سورة تنبئهم بضغائن القلوب ، وأحقاد الصدور ، وهواجس الحفيظة والانتقام ، وهيهات ، فالله عز وجل مخرج ما كانوا يحذرون ..!

لقد كانت ولاية موسى بأفريقية حدثا رائعا لا ينبغى ان يترك فى تاريخه دون أن تسجل أمجاده الخالدات ، ودون ان تحلل ازماته ومضايقه تحليلا يكشف عن المقدرة والقوة والثبات .. ! وقد ألف الكاتبون أن يمروا بهذه المرحلة من حياة موسى مرورا عابرا حيث يتسع المجال لتقدير بطولته فى فتح الاندلس .. ! وافريقية فى رايى اولى بعناية الكاتبين ، وأجدر ، فلولا أن رسخت بها أقدام العرب أتم رسوخ وأثبته ما استطاعوا أن يواصلوا المد الطبيعى الى أوربا .. وأى ثبات رسخ بالاقدام هناك .. ؟ لقد طوح البربر بقادة من العرب اعزاء تناثرت دماؤهم على البطاح المترامية شهيدا خلف شهيد ، وفيهم من بلغ ذروة البطولة والقوة والكياسة ، الا أن عقارب الخيانة قد نفثت سمومها القاتلة فلم تجد البسالة فى قليل أو كثير ، حتى جاء موسى بن نصير فتغير وجه الحياة ، وشمل النفوس استقرار هادىء لا تنال منه الزعازع ،بل تفتحت العيون الى مطارح نائية ، ورفرفت فى النفوس احلام وضيئة طلع عليها الصبح المبارك فانتقلت بسرعة خاطفة من أودية الخيال الحالم الى دنيا الواقع وصدق الحياة ..

لقد كانت الاندلس حلقة ثانية فى جهاد البطل الكبير ، وكانت نتيجة محتومة للظفر الاسلامى الذى امتد الى آخر شبر فى المغرب الأقصى ، ووقف البحر الهائج يعترض الخيول العربية بأمواجه المتراكمة ، وزبده الجياش ، ويقف كطود راسخ دون الاكتساح الاسلامى الذى دقت

نواقيسه ، وجلجلت رعوده ، واذا كان موسى قد انشأ المصانع ، وهيأ السفن فانما بذل الجهد الجاهد بعبور هذا المحيط الزاخر دون أن ينتظر معونة انسان ..

ولن نقدر نعمة الاسلام على اسبانيا المسيحية الا اذا استعرضنا فى ايجاز ما كان يرين على الاندلس من ظلام دامس ، وما كان يخنق الأرواح ، ويكتم الانفس من جو آسن تفشاه الأوبئة والسموم حتى انفتح مصراعا الباب فجأة بأيد مسلمة ، فمر هواء عاطر يحمل النسيم الشذا والأريج الفواح .. ! لقد كانت اسبانيا القوطية تنوح صارخة مما يجثم فوقها من أهوال ، فهناك السادة من الأمراء والنبلاء يمزقهم الترف ، ويضعضعهم الاغراق الشائن فى الملاذ والشهوات والاموال تتدفق سائلة فى أيديهم من جهد العامل ، وعرق الكادح ، وهناك رجال الدين من القساوسة والأساقفة يضعون أنفسهم فى مصاف السادة من الحكام فيفرضون على الناس حقوقا تصل بهم من التقديس الى حد سمج دميم ، ثم يصدرون الاحكام القاسية على الرعايا البائسين ، ويؤيدون فرض الضرائب ، وابتزاز الاموال بنصوص كهنوتية تضج منها الارض والسماء ، وقد تعاون أولئك وهؤلاء على امتصاص الثروة امتصاصا لا يسمح لاحد الكادحين بفضلة من ثراء ، وهناك الارقاء وأشباههم من الزراع والفعلة يقضون أيامهم محنية أصلابهم على الفئوس والمحاريث يشقون الأرض ويضعون البذر ويقودون الماشية فاذا حصدت الثمرة سيقت سوقا مغتصبا الى السادة المسيطرين دون أن ينعشهم الكدح اللاغب بما يمسك الرمق ، ويدفع ألم الحرمان . وهناك الطبقة الوسطى من الصناع والتجار ، وكان الظن أنهم يجدون ما يكفل لهم الحياة الكريمة والسعادة النسبية ، اذ يكونون حلقة وسطى بين الأمراء والعبيد ، ولكنهم لا ينعمون بأمن ، أو يركنون الى استقرار ، ففى كل يوم ضرائب جديدة يفرضها الطغيان وتمليها الشهوات حتى أوشك هؤلاء التعساء أن ينحطوا ألى مستوى العبيد فيما فرض عليهم من مذلة وهوان .. وهناك اليهود يتعرضون كذلك لمأساة أليمة ، اذ تصادر أموالهم وتزهق أرواحهم ، وتسترق نساؤهم ويوزع صغارهم خداما على الأسر المسيحية ليقطعوا كل علاقة تربطهم بدينهم التليد ، بل يحرم على كل يهودى أن يتزوج يهودية من بنات دينه حتى ينقرض النسل تدريجيا وتصبح النصرانية دينا شاملا لايند عنه فرد من الافراد .. ! وهناك بعد ذلك كله ملك جديد طاغية يثب الى العرش فجأة بعد أن يطوح بصاحبه اغتيالا فى مأساة رهيبة ثم يبطش بأنصاره وذويه فينصب المشانق ، ويفتح الاحباس ويرين على

اسبانيا ليل من الارهاب الاحمر لا يبدو فى حنادسه الحالكة شعاع من رجاء ٠٠ ! كل أولئك قد دفع بالعيون الى المغرب وقد تراقص فى الأسماع نغم حالم يهتف بالعدالة والمساواة ، ويفرد بالمودة والاخاء فى ظلال العرب الأمجاد .. ! فوفدت الرسل فعلا الى موسى بن نصير تسأله المبادرة العاجلة ، وتبسط الأيدى عن رغبة وولاء ، متطلعة الى انقاذ الاندلس وشعبها الجريح ! أجل وفدت الرسل بزعامة يوليان حاكم سبتة الذى ازعجه أن يبطش الملك الجديد بأولياء سالفه .. !

وقد كان يوليان صهرا للملك الصريع ، وهو متعرض لا محالة الى النكبة الماحقة بين صباح ومساء ، فلابد أن يرمى آخر سهم فى جعبتـــه بدعوة المسلمين الى بلاده ليعيدوا السكينة والاطمئنان الى نفوس أزعجها الارهاب الطاغى فغدت ترقص من مخاوفها المزعجة على بركان ثائر يقذف بالحمم والأهوال ، وفى قوة العرب ومبادئهم المنصـــفة ما يــكفل سحق الطاغية ، ونشر ألوية السلام ، وتضيف بعض الروايات الى مخاوف يوليان السياسية حقدا داميا ينفر فى أحشائه ويكدر عليه صفاءه ، فقد اعتدى « لوزريق » طاغية الاندلس على عفاف ابنته « فلورندا » وكانت تتلقى دروس التربية وأساليبها الراقية فى البلاط الملكى ، جريا على رسوم العصر فى ذلك الزمان ٠٠ ! وحانت من الملك لفتة والهة الى جمالها الغض وحسنها الجذاب ، فوقع أسيرا متدلها ٠٠ ! ولم يأت البيوت من أبوابها ، بل هجم على المهاة العذراء فى لحظة معربدة هوجاء فسلبها أثمن ما تعتز به فتاة ٠٠ وطار الخبر الى يوليان فكأن شعلة نار قد التهبت فى أضلعه ، فلم يطعم الراحة فى صباح أو مساء ، بل لجأ الى موسى مع الوافدين ، وصحب وراءه وفدا من اليهود والتجار ، باذلا سفنه وذخيرته وخبرته ٠٠ ! والقائد الباسل يسمع ويزن ، ثم يرسل الى الخليفة يستأذنه فى الغزوة ، وان آمالا عراضا تجيش فى صدره وتتراءى لعينيه حتى اذا جاءت رسالة دمشق بعدم التغرير بالجيش والاكتفاء بارسال بعض الكتائب ، مستطلعة فاحصة ، سارع القائد العربى فأرسل كتيبة من الجند قوامها مائة فارس وأربعمائة راجل بقيادة « طريف بن مالك البربرى » فعبرت بوغاز جبـــل طارق ، واستولت على حصون هامة ووقع للمسلمين من الغنائم والأسلاب ما أدهش وبهر ، ثم يرجع طريف الى موسى مبشرا ومشجعا ٠٠ فاشرأبت الأعناق وتطلعت العيون ٠٠ !!

لقد كان « طريف » رائدا مسلما يختبر بلادا تسمع عنهـــا الأنباء دون أن يشهدها العيان ، وأراد موسى ببعثته أن يجمع الشواهد الصادقة

على نجاح الغزو من ناحية ، وأن يختبر ثبات يوليان من ناحية ثانية ، فمن يدرى فلعله صاحب حيلة يريد بها أن يخدع أناسا سبق أن ناوءوه وحاربوه ، فاستعان عليهم بجيرانه وذويه ، ولعل سفنه التى يبذلها راضيا لحمل الجنود ستار يحجب نيات غادرة يجب أن يحسب لها حساب دقيق، ثم ان موسى وحده مسئول أمام الخليفة عن نتائج الغزو ، فما عسى أن يكون مركزه السياسى حين تتكشف الآمال عن سراب يخدع ببريقه دون أن ينقع غلة لظمآن ٠٠ ؟ مهما يكن من شىء فقد كانت عودة « طريف » بغنائمه وأسلابه برهانا صادقا يحسم الشك ويقطع سبيل الهواجس ، فلم يعد بعدها مجال يتسع للريب والظنون ، وقد بادر موسى من فوره فجهز الحملة الثانية ، وتفرس فى جنوده فاختار بعد روية وامعان جنديا باسلا أبلى بلاء حسنا فى مختلف المعارك فى بلاد المغرب ، وحكم طنجة فى ظروف عصيبة ، فأبدى من البطولة والعزم ما حفظ لها اطمئنانها الثابت بين الزعازع والنكبات ، واتسع ميدان الفتح الاسلامى لبطل فذ ، قدر له أن يؤدى دوره بنجاح ملحوظ ليحتل بين عظماء التاريخ مكانا مرموقا تتجه اليه الانظار ٠٠ ذلكم هو « طارق بن زياد » ٠٠

ولا نجد مفرا من الحديث عن طارق ببعض الافاضة فى صدد الحديث عن موسى بن نصير ، فقد جمعت بين الرجلين ملابسات متحدة فى البسالة والجهاد ، وقاربت بينهما ظروف متشابهة فى النشأة والخاتمة ، فكلا البطلين عصامى بنى مجده بيده ، وارتكز فى أعماله على شجاعته وصبره ، وعرقه فى كفاحه ، دون ظهير غير الكفاية والشخصية والمرانة وكلا الرجلين صادف تنكرا لأعماله ، وبخسا لجنوده حيث ينتظر أن يتبوأ ــ بما قدم ــ مكانا عاليا ، ومنزلة مرموقة ، ولئن وقعت محنة طارق على يد موسى ــ مما سنعرض للحديث عنه ــ فقد شاء القدر أن يذوق موسى الكأس مترعة ليعرف أى ذنب أسلف ، ومهما اختلفت النوازع أخيرا بين الرجلين فقد جمع بينهما التاريخ جمعا لافكاك منه ، فلن يذكر فتح الأندلس الا اذا ائتلقت فى العينين شخصيتان لامعتان ٠٠ ! شخصية القائد الفاتح ، طارق وشخصية رئيسه الباسل موسى بن نصير ٠٠ كان طارق مولى لموسى ! وقد اختلف الرواة فى نسبه ، فهناك من يعزوه الى البربر من قبيلة زناتة أو غيرها ، وهناك من يعزوه الى الفرس من همذان ، وهناك من ينتهى به الى العرب ، غير أن الدلائل الصادقة تؤكد نسبته الى البربر ، ونحن نشهد بين المؤرخين معارك كثيرة عن نسبة أفذاذ من عظماء الاسلام وكل كاتب يحاول أن يرجح نسبة على نسبة ،

ويدور النقاش فى غير طائل ، كما حصل أخيرا عن نسب ابن سينا وجمال الدين الأفغانى أهما للفرس أم للأفغان أم للعرب ؟ والاسلام لايعبأ بذلك ، اذ لايفرق بين عربى وفارسى وبربرى ، فلا يهمنا فى شىء أن نلحق طارقا بقوم دون قوم ٠٠ ويكفى أنه قائد باسل مسلم تربى فى أحضان القرآن وأشرب تعاليمه الخالدة ، فكان دينه والدا آخر يبعث فى نفسه معـــانى الكرامة والعزة ، ويخلق منه بطلا تضـيق الأرض عن همته ، ورســـالة الاسلام دائبة فى خلق الأبطال ، فهم اليه ينتسبون ، وبه يعتزون ، وفيه وحده الكفاء ٠٠ وتاريخ طارق ينطق باسلاميته الصادقة ، فقد كان خطيبا بليغا يستمد معانيه من القرآن والحديث ، ويبعث الهمم فى جنده بذكريات أبطال سبقوه فى ميدان الكفاح ، كعلى وخالد وأبى عبيدة وسعد ، وما كادت سفن جوليان تقله مع جنوده حتى تطلع الى السماء وقد انعكســت زرقتها على سطح البحر ، فتأمل مشهدا ساحرا من مشاهد الطبيعة فتذكر عظمة الخالق المصور ، وعلت أشواقه الى السماء تسألها الهداية والتوفيق، ثم أخذته سنة من النوم فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون قد تقلدوا السيوف ، وتنكبوا القسى ومحمد ينظر اليه قائلا : تقدم لشأنك یاطارق ! ولن يكون هذا الحلم غير صـــدى صادق لنفس تذكر الله ، وتتطلع الى نصرة السماء ، وعزة الاسلام ، فهو انعكاس باطنى يبرز الرغائب والأشواق ، ويصدر ما يغمر صاحبه من صوفية واشراق ، وكأنى به وقد وقع من طارق موقع البشارة ، فأيقن بالنصر قبل المعركة ، وكان من روحه المعنوية فى عدة واقية وجيش كثيف ٠٠

سار القائد الباسل فاخترق الجزيرة الخضراء بعد أن هزم جموعا من القوط تصدت لزحفه ، وسرعان ما انتشرت أنباء الزحف الاسلامى فى بقاع الأندلس ، وكان لها صدى مدو فى بلاط المملكة ، فحشد « لوذريق » قوته وعدته ، وأهاب بجيشه وشعبه أن يتعاونوا على درء الخطر الداهم ثم عقد هدنة سريعة بين مناوئيه ، وجمع حشدا يقدره أكبر الكاتبين بمائة ألف ، وكان « لوذريق » على طغيانه الشديد قائدا قوى العزيمة صلب الارادة ، فلم يفزع للكارثة بل استعد لها بما يملك ، ونحن حين نعترف بمواهبه فى عالم البطولة والارادة انما نوفى كل انسان حقه رعاية للتاريخ ، ولكن جيشه على كثرته كان نهب التخاذل والتفرق ! وماذا يصنع بأناس أنهكهم الطغيان ، واســـتنزفهم الاقطاع ونخرت فى نفوســـهم الخيانة ، فهـــم على الأصدقاء لا الأعداء الا أن كثرتهم الكاثرة قد أدهشت طارقا فطلب المدد من موسى على جناح السرعة فبادره بخمسة آلاف مقاتل ينضمون الى سبعة آلاف ليقف الجميع أمام مائة ألف ، وقد أكمل الاســـتعداد النفسى لدى

المسلمين والرغبة المخلصة فى احدى الحسنيين ما قد يعوزهم من حشود وجهود ، ووقف القائد الباسل يخطب جنوده فيمنيهم الأمانى ، ويبشرهم بالفتح والغنائم ، ويضعهم أمام الأمر الواقع ، اذ يقول : أيها الناس ، أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هـــذه الجزيرة أضـــيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وعدته وقواته موفورة ، وأنتم لاوزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم ، وتعوضـــت القلوب من رعبها منكم الجراة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هـــذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به اليـــكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت ، وانى لم أحذركم أمرا انا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيهـا النفوس الا لأبدأ بنفسى ثم اندفع الخطيب يذكر ما فى الجزيرة من مغانم ويبين لأبطاله حظهم من ثواب الله ، وجنة الآخرة ، فيجمع بين الدين والدنيا فى ترغيب ســاحر أخــاذ ٠٠ وقد شــك بعض الأدباء فى نسبة هذه الخطبة الرائعة لطارق ،ولا نرى موجبا قويا لهذا الشك المريب ، فطارق على بربريته قد اشتهر فى قومه بالفصاحة ولئن لم يذكر هـــذه الخطبة بكلماتها وحروفها فقد ذكرها بمضمونها ومغزاها ، فمـاذا يفيد الارتياب فى أمر محتمل لاتتكامل الأدلة على نقضـــه ، واذا كانت بعض الكتب القديمة لم تشر اليها فهل أشارت هذه الكتب الى جميع ماتتناقله الآن لكبار القادة من الخطب والكلمات ٠٠ وعلى كل فلن يضير طارقا أن تنسب خطبته الى غيره ، فنحن نتحدث عن طارق القائد لا طارق الخطيب الأديب !

وهناك شك آخر يتطرق الى ما اشتهر عن احراق طارق لسـفنه ، وهو شك مظنون محتمل ، وان لم تتضافر الأدلة أيضا على تدعيمه ، اذ أن احراق السفن فى حرب كهذه مغامرة جسيمة لاتتصـــور من قائد يتدبر العواقب ، ويقدر النتائج ، فمن المحتمل أن ينهزم المسـلمون فى أرض لايجدون بها حمى يعتصمون به ، فماذا كانوا يصنعون ٠٠ ؟ على أن السفن كانت ملكا ليوليان ، فكيف يقدم طارق على احراق ماليس له ٠٠ ولعمرى لذلك مما يجب أن يوضع موضع التقدير ، ولكنه برغم احتماله لايجزم بمنع الحادث ، ولا سيما فى صفحات التاريخ ما يماثله حين أحرق قائد الفرس سفنه باليمن فى نصرة سيف بن ذى يزن ، وحينما أحرق المسلمون

سفنهم فى صقلية مرة ثانية ، وفى أقريطش مرة ثالثة فى مستهل القرن الثالث الهجرى ..

وفى أقليم شذونة على ضفاف نهر « وادى لكة » تلاقى الجمعان فوقف المسلمون على صهوات خيولهم تأتلق العمائم البيض فوق رءوسهم ، وتلمع السيوف فى أيديهم ، ويبرق الزرد فوق الصدور بريقا أخاذا ، وطارق يروح ويغدو فى الصفوف يذكى نيران الحماسة ، ويؤجج الأشواق للقاء سريع يعقبه الفوز الباهر ، والقوط من أمامهم يتقدمهم الفرسان بدروعهم وأسلحتهم ، ومن ورائهم سيل زاخر من العامة يحملون الحراب والمناجل والفئوس والمقاليع ، وقائدهم « لوذريق » يجلس فى هودج من العاج يقوده جوادان أبيضان ، وعلى رأسه اكليل ذهبى رصعت وجهته بالدر والياقوت ، وفوقه رداء حريرى طرز بالذهب ، وأمامه الأعلام والبنود !! ودار صراع رهيب أفرغ فيه المسلمون ما فى نفوسهم من البسالة والحمية ، فهجموا على الموت لايبالون ، وكان على رأس الجناحين فى الجيش القوطى ولدا الملك القتيل ، ومن خلفهما رهط من الأتباع يضمرون لهما المحبة ، ويكنون البغضاء الدامية لمغتصب جائر يعتلى العرش بالسيف والدم ، ويحكم بالحديد والنار ، فما كاد القتال يستمر حتى اندحر الجناحان وثبت « لوذريق » محاولا أن يجمع حوله الانصار ، وقد أبدى من ضروب البسالة مالا ينكره كاتب يخلص للحقائق ويزن الرجال، ولكنه أخطأ خطأ فادحا حين وضع فى مقدمة جيشه أناسا تأكل قلوبهم الضغائن ، ويتحرقون شوقا الى الانتقام ، وكان يظن أن العدو المشترك سيوحد الجهود ، ويجمع القلوب ، ولكن النفوس البشرية فى جماعة كالقوط لاتنسى ضغائنها مهما ضاق المأزق وأحرج الموقف ، فلم تغن « لوذريق » شجاعته ، وشاهد صفوفه تندحر ، وأعداءه ينزلون به الضربات القواصم وكأنى بأرباب الفئوس والمناجل من الارقاء وفعلة الأرض من الأقنان والزراع قد أحسوا ارتياحا كبيرا للخطر المحيق ،فتقدموا بادىء ذى بدء بجسومهم ، ونفوسهم معقودة على الهرب والتراجع ، وقد أرضوا ثورتهم الناقمة على السادة ، فلاذوا بالفرار فى حومة لن يكسبوا خيرا منها اذا انتصر قائدهم الرهيب ، وقد ضاق الملك بالموقف ففر من الموقعة واختفى لساعته من الميدان ، وقد شوهد جواده الأشهب على شاطىء النهر مما دفع الى ترجيح الرأى القائل بغرقه فى الماء ، مؤثرا الا يرى الأغلال تصفده أسيرا ، ضارعا ، ينتظر المصير ، ودقت أنباء النصر فى كل مكان فاستولى الهلع والقنوط على الاسبانيين ، واهتبل طارق السانحة فتقدم بجنوده شمالا صوب طليطلة العاصمة ، وبعث بحملات متفرقة الى

قرطبة وغرناطة ومالقة ومرسية ، ثم زحف الى قشتالة وليون ، واستمر فى زحفه موغلا حتى جاءته رسالة بوقف الزحف ٠٠٠

وكانت أخبار النصر تجد دويها الرنان فى المغرب ، فزحف سيل عارم من المسلمين الى الأندلس ، وقد فتح أمامهم الطريق ليأخذوا بحظهم من الجهاد ، أو بنصيبهم من الغنيمة ، وتكامل للاسلام جيش قوى لاتنقصه الروح العالية ، والغنائم الغالية ، والعتاد الكثير ٠

ونحن نحار فى تعليل رسالة موسى ونتساءل : لماذا أمر بوقف الزحف ، وقد انتصر الجيش ، وسارت أنباء شجاعته تتقدمه فتهيىء له ظفرا آخر ، هل دبت الغيرة فى نفسه فنفس على جنديه أن ينم النصر على يديه ! هل أراد الاحتفاظ بما كسب المسلمون كيلا تدفعهم السبل المتشعبة الى متاهة شاسعة الاطراف لا تهيىء لهم سبيل التجمع والاتحاد ٠٠ لقد جمع طارق مستشاريه وعرض عليهم كتاب قائده ، فأشاروا بوجوب الزحف كيلا يظن بهم العدو النافر قصورا وانخذالا فيجمع من فلوله الشاردة جيشا آخر ويعوق التقدم الاسلامى فى وقت مهدت به السبل وحان اقتطاف الثمار ٠٠٠ واذ ذاك واصل طارق زحفه وقد عجل موسى بلقائه على رأس جيش متحمس مستبسل فامتدت فتوحه الى برشلونة شرقا ، وأربونة فى الجوف ، وقادس فى الجنوب الغربى ، وجليقة فى الشمال الغربى ثم التقى بطارق ، وكان المظنون أن يمطره قبلات الاعجاب والتقدير ، ولكن اللقاء كان عابسا كالحا يخفى وراءه شجونا مؤسفة ، فقد بدأ بالسؤال عن الغنائم ثم بالاتهام بالخيانة ، ثم بالتجريد من السلاح ، والزج بالشجاع الفاتح الى ظلمات الاعتقال ٠٠

ما هذا الذى فعله موسى ؟ الحق اننا نؤاخذه مؤاخذة قاسية حيث استمع الى هواتف الغيرة ، فخرجت به عن سنن العدالة والانصاف ٠

والضعف الانسانى داء عضال ينتقض على صاحبه فلا يستطيع له دفعا ٠٠ وكان الأحرى ببطل حازم كموسى أن يقدر بطولة قائد باسل صنعه على عينه ولمس فى مهارته وبسالته ما عاد على الاسلام بالمجد والفلاح ، وتصل الأنباء الى دمشق فيأمر الخليفة بانقاذ طارق ورجوعه الى ميدان بطولته ، فيستأنف الغزو مكللا بالظفر والابتهاج ٠ سار القائدان الباسلان كل فى طريقه يحارب فينتصر ، حتى نفذ موسى الى مملكة الفرنجة وغزا وادى الرون ، فتضعضع أمراء الفرنجة أمامه ، وهبوا فى جنون لملاقاة الغزاة الظافرين ، وقد دارت بمخيلة موسى أفكار ورقصت فى عينيه أحلام ، فهو يعتزم أن يواصل الفتوح فى جنوب فرنسا ويتجه

شرقا حتى يصل الى القسطنطينية التى عجز العرب عن فتحها من ناحيـة الشرق ، وبذلك يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية بعد أن يصل ما بين اسبانيا ودار الخلافة ، مخترقا أمم النصرانية وهازما ملوكهـا الصغار ، فهو يريد أن يعبر فرنسا الى ايطاليا فألمانيا فالبلقـان ، فالقسطنطينية فآسيا الصغرى ، حتى ينزل دمشق ! وقد يظن بعض الناس أن آمال القائد لاترتكز الى دعامة قوية ، ولكن الظروف السياسية لعهده لاتمنع من تحقق حلمه ، فأمراء الفرنجة متنابذون ودول أوربا غريقـة فى الفوضى والاستبداد ، وقد يعترض معترض بمـا وقع بعد فى معركة بلاط الشهداء من ارتداد المسلمين منهزمين ، ولـكن الزمن غير الزمن ، والجنود غير الجنود ، ولم يهزم عبد الرحمن الغافقى لقلة فى كفايته أو نقص فى مهارته ، ولكن لما اجتمع فى جيشه من وصـوليين يبحثون عن الغنيمة قبل الفوز ، ولولا أن الوليد بن عبد الملك قد حارب اتجاه موسى فى مواصلة الغزو متخوفا من عواقبه لكسب الاسلام نصرا عزيزا ، ونحن نأسى لضياع هذه السانحة الغانمة ، ونطوى الجوانح على وجد مرير ٠

وقد جاءت رسائل الخلافة باستدعاء القائدين قبل أن يتمكنا من القضايا نهـائيا على فلول القوطيين الذين لجئوا الى ناحية جليقية ، وذلك خطأ آخر ، فقد أتيح لهؤلاء أن يجمعوا أنفسهم فيضعوا النـواة الأولى لمملكة صليبية أخذت تنمو وتزدهر حتى استطاعت بعد ثمانية قرون أن تعصف بريح العرب مستعينة بالدس والوقعية حينا ، وبالقوة والبطش فى نهاية المأساة حينا آخر ٠٠

وقد بذل موسى جهدا كبيرا فى رسم الأسس لسياسـة الولاة من العرب قبل عودته الى دمشق ورجع الى الخليفة يجر الدنيا وراءه بما يحمل من الغنائم والأمتعة والأموال ، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبى بينهم مئات من الأشراف والعذارى والوصيفات ، وهنـا تأتى مأساة جديدة فقد قدم موسى الى دمشق قبيل وفاة الوليد بأيام ــ على ما تقول أكثر الروايات ــ أو عقب وفاته مباشرة كما تقول بعضها ، وآل الأمر من بعده الى سليمان ابن عبد الملك ، فنكبه نكبة منكرة وقسا عليه وأذله ، اذ لم يتمهل فى سبره قليلا حتى يموت الوليد ويعزى الفتح لعهده ، وقد نال سليمان هذا أكبر سخط من الناس فى الدنيا وعقاب من الله فى الآخرة ، فعلى يده وبتدبيره صرع أبطال أفذاذ فتحوا الممالك ، ودوخوا الشعوب ، وأنت حين تسأل عن نكبة موسى ، ومصرع قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفى وغيرهم ممن يذكرهم أعداؤهم قبـل ذويهم ــ بالعظمة والبطولة والاكبـار ، حين

تسأل عن هؤلاء لا تجد غير طائش أرعن شاءت له الأقدار أن يتحكم فى عمالقة أفذاذ فتحوا الدنيا ، وحملوا نور الاسلام الى حيث يبدد الغياهب، ويكتسح الظلمات ، وكم فى التاريخ من مهازل دامية تتفطر لها الأكباد !!

وقد قضى موسى آخر أيامه شريدا يسأل الناس ! لماذا ؟ ، ليجمع أموالا فرضها عليه سليمان ، اذ اتهمه بها فى غير انصاف ٠٠ وهكذا كانت المسألة الذليلة خاتمة أدوار هذا الفاتح العربى الكبير ٠ فليتعظ الناس !! على أن نتائج الفتح الاسلامى للأندلس كانت سعيدة مرضية لأصحاب البلاد أنفسهم ، فقد تغير نظام الطبقـــات ، وترددت أنســـام الحرية والاخاء والمساواة ، كما كانت مبادىء الاسلام وحدها سببا فى ظفره العاجل وفوزه السريع ، فلو لم ينخر الفساد فى كيان الشـــعب الاسبانى ما سهل على الاجانب الغزاة تثبيت أقدامهم وتشـــتيت أعدائهم فى الأقاصى المهلكات ، ولو لم يكن مع هؤلاء الغزاة قرآن يبشر بالرحمة والمحبة والاخاء لانتقضت عليهم الجمـــوع الغاضبة فاندحروا وعادوا الى قواعدهم خاسرين ، ولكن الاسلام يخدم نفسه بعدله المنصف ، وخلقه الوطيد ٠

وبعض الذين يتجاهلون هذه الحقيقة السافرة ، يحاولون أن يرجعوا توفيق العرب الى أمور شخصية لا تتصل بالقيم والمبادىء ، فهم يزعمون أن معاونة يوليان حاكم «سبتة» كانت وحدها طريق النجـــاح ، مع أن مساعدة حاكم صغير على ثغر ضيق لا تهـدم أمة ممتدة الاطراف ، كثيرة المدن والثغور ، عديدة الجيش والسلاح ، وقد نصدق ان حاكم «سبتة» بذل جهدا كبيرا فى اعداد السفن وايضاح الطريق ، وتيسير المؤن ، ولكن ذلك وحده ــ بالغا ما بلغ ــ لايكون مدعاة نصر حاسم مكتسح ، لولا ما بذله العرب فى جهادهم المرير من ايمان راسخ بالمثل الاسلامية ، واخلاص أكيد فى التضحية والاستبسال ٠٠



قتيبة بن مسلم
البطل الجرىء

قتيبة بن مسلم البطل الجرىء

كان العهد الأموى مسرحا للحروب الدامية داخلية وخارجية ، ومجالا رائعا للبطولة الباهرة ، والفروسية النادرة فاتجه شباب العرب الى النهوض بأعباء القتال ، وأظهروا من فنون الشجاعة أعاجيب خارقة ·

ونستطيع أن نطـــالع فى تاريخ هذه الحقبة الدقيقة أسماء مختلفة لأبطال ممتازين من كماة العرب وفرسانهم غنموا لأمتهم ذخرا كبيرا وكسبوا لدينهم مجدا تالدا ، ووثبوا الى القمة العالية منتصرين ظافرين · وفى طليعة هؤلاء المغاوير قتيبة بن مسلم الباهلى ، ذلك العملاق الفذ الذى ضم للاسلام دولا شاسعة الاطراف فيما وراء النهر ، فأخرج بكفاحه الباسل ـ القطيع الوثنى فى هذه الاصقاع الدامسة ، من ظلمـــات الشرك الى نور الايمان ، ومشرق التوحيد ·

ولقد نشأ قتيبة بن مسلم فى بيت يهيم بالفروسية والبطولة ، فأبوه مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلى كان مضرب المثل فى الفتوة والبسالة ، وكان له فرس من عتاق الخيل يسمى «الحرون» لا يمتطيه غير ذوى البأس والثبات من فرسان البادية المغاوير ، فشب قتيبة ولده طامحـــا للمجد والرياسة عن طريق الفتوة والبطولة ·

واذا كان الاسلام الخـــالد قد جاء بالمساواة العـــادلة بين القبائل والشعوب فان فريقا ممن سرت فى عروقهم دماء الجاهلية كانوا ينظرون الى قبيلة «باهلة» نظرة شزراء ، ويرونها دون القبائل العربية مجادة وبطولة ، فنظموا فى هجائها الأبيات الفـــاحشة ، وعدوا ـ بوحى من عصبيتهم ـ الانتساب اليها ضعة مهينة ·

ولكن قتيبة ـ ووالده من قبله ـ قد رفع هذه القبيلة المتواضعة ـ بما كسبه من مجد باذخ ـ الى مصاف القبـــائل العريقة ، ولولا المساواة العادلة التى سنهـــا الاسلام فى الشعوب والقبـــائل ما اختارت الدولة الاسلامية من باهلة قائدا يفخر بأمجاده كل عربى يعتز بلغته ودينه ، ثم

هو فى الوقت نفسه برهان عملى يقدمه الاسلام على صدق دعوته الرفيعة الى تكافؤ الفرص والمساواة .

وكانت معارك الخوارج الرهيبة مجالا رائعا لبطولة قتيبة فى شبابه الغض ، فقد خاض لججها الدامية بجنان ثابت ، وعزم صبور ، وأظهر من فنون الصولان وعجائب الاقدام ما جعل الحجاج بن يوسف الثقفى يقدر بطولته الخارقة وينوط به العظائم الفادحة فينهض بأعبائها أكمل نهوض.

وكان ــ الى قوة بأسه وشدة مراسه ــ عالى الهمة ، جرىء اللسان ، ينتقد رؤساءه فى صراحة تامة ، وثقة بالغة ، فحين فاجأ شبيب بن يزيد بطل الخوارج الكوفة ، عقد الحجاج مجلسا حربيا من قواد الجيش وأخذوا يتشاورون فيما يجب أن يقوموا به ازاء «شبيب» ، فقام قتيبة وكلم الحجاج كلاما قاسيا ينبئه عن تقصيره فى الأهبة ، وينعى عليه حيرته وتردده ، فقال الحجاج ما الرأى يا قتيبة ..؟ فقال : الرأى تخرج أنت وتقود الجيش ونحن وراءك ، وكان ما أراد البطل الباهلى ، فخرج الحجـــاج فى طليعة الجيش ، وأبلى قتيبة بلاء رائعا ، وقد ظهر فى لباس حربى أخاذ ، وانهزم الخوارج هزيمة ساحقة ، فتردد صيت الفارس الشاب فى كل مكان ، ولم تكن هزيمة شبيب وأصحابه بالأمر اليسير ، فهم على قلة عددهم يقتحمون الحتوف دون مبالاة بلهبها المبيد ، ثم هم يلجئون الى المكايد الواسعة ، والحيل الرهيبة فيسعفهم الرأى البصير بما تتقاصر عنه القوة الحافلة ، والعدة الصارخة ، حتى اقتحموا الكوفة ودخلوا على الحجاج عرينه المنيع ، فطلب المدد من الشام ، وغشيه القلق الساعد ، ولولا كفاح قتيبة الرهيب وتقدمه الصفوف فى طريق من الأشلاء ، ما تم النصر للحجاج فى معركة كانت ــ بالنسبة اليه خاصة ــ معركة فناء واستئصال .

أخذ الحجـــاج بعد مقتل شبيب يضع قتيبة فى الصف الاول بين جنوده وأعوانه ، ويراه كفئا لكل كريهة دامية تتطلب الكمى الباسل ، وكان يكن لآل المهلب عداوة شنيعة ، ويرى فى استئثارهم بخراسان نكبة فادحة ، فهم أهل عزيمة جبارة ، وأبطال كفــاح قاهر ، ومن الجائز أن يقتطعوا خراسان من الأمويين ، وينادوا بأنفسهم خلفاء كالزبيريين ، فكتب الى عبد الملك بن مروان يزين اليه عزل يزيد بن المهلب ، وأمير المؤمنين يعلم ما بين الرجلين من تطاحن مريب ، فيزيد ينظر الى الحجاج نظرة جاهلية تنطوى على الاستهانة بأصله المتواضع ، ونشأته فى ثقيف ، ويرى ــ وهو السيد العريق ــ أن مكانه من قبائل الأزد ذات القــوية ذات الحشد الهائل ، والأرومة المتغلغلة ، ويجعله فوق الحجاج مرتبة وكفاية ، والحجاج يرى

طموح يزيد وصولته فيتأكد من عصيانه ومروقه ، ويصارح بضرورة عزله واقصائه حتى تم له ما أراد ، ووافق عبد الملك على خلعه ، وتأمير قتيبة ابن مسلم مكانه ، ذلك القائد الذى رشحه الحجاج فنهض بالعبء وملك الزمام .

سار قتيبة الى خراسان فورا ، فاستعرض الجند ورتب شئون الامارة والحكم ، وتأهب لفتح ممالك ما وراء النهر ليشغل الخراسانيين بالغزو والجهاد ، ثم بدا له أن يعدل من سياسة «يزيد» فى اختيار القادة والأعوان حيث كان يعتمد فى استشاراته ومهامه الحربية على العرب وحدهم ، دون أن يشرك الفرس فى احكام خطة ، أو قيادة كتيبة مما فسح المجال للتفرقة، وغرس بذور الخلاف فى الجيش الواحد .

وقد شاء القائد الجديد أن يرأب هذا الصدع ، فوثق فى كفاية الفارسيين ، وقدمهم فى المناصب والقيادة ، وأصبح الجيش الاسلامى الى حد ما كتلة واحدة تقف أمام العدو متراصة متساندة ، واستطاع قتيبة أن يرضى نفوسا كثيرة لم تكن لتجاهد باخلاص وعزيمة ، وهى مهدورة الحق ، ضائعة المكانة بين الناس .

سار الجيش الاسلامى بقيادة «قتيبة» فعبر النهر الى أرمينية وبخارى والتركستان ، وكانت هذه الممالك فيما بينها متنافرة متدابرة يغمرها الجور والفساد ، وقد وقع الرعب فى نفوس ملوكها الضعاف ، وحاروا فيما يصنعون ازاء الخطر الداهم ، فمنهم من أذعن وصالح ، ومنهم من قاوم ودافع ، وقد سارع ملك الصغانيان فقدم التحف والهدايا ، وأعلن خضوعه واستسلامه ، فتقدم الجيش الى مملكتى أخرون ، وسومان فصالحهما على الجزية ، وسار قتيبة مثقلا بما حمل من مال وعتاد .

ولكن الحجاج لم يعجب بخطة المصالحة والهدنة ، فليس المراد من الغزو الاسلامى تكديس الثروات ، وجمع الاموال ، بل نشر الاسلام وحده هو الهدف الاول فى بلاد تغمرها الوثنية بظلامها الكثيف ، واذ ذاك بعث الى قتيبة يسترعى نظره الى المهمة الاساسية للغزو والجهاد ، ولم يكن قتيبة غافلا عن رسالته فى الغزو ، ولكنه كان لأول عهده يختبر الدروب ، ويستطلع المسالك فى مطارح نازحة تستدعى المصانعة والتريث ، حتى اذا ملك أمره ، وتبين طريقه عمد الى تحقيق هدفه فى ثبات واطمئنان ، وهذا ما كان منه بعد الجولة الاولى ، فقد أعد العدة الكافية لمهاجمة الحصون المنيعة فى بخارى والصغد ، ودقت طبول الحرب فى أصقاع التركستان .

وكان الخطر مزعجا داهما ، فتجمعت كلمة الملوك ، ووقفوا صفا واحدا أمام العدو المشترك ، وزحفت جموع الوثنية الى قتيبة ، فحاصروه حصارا أليما ، ولقى ضروبا قاسية من الاهوال فى مطارح نائية لا عهد له بوهادها المضطربة ، وآكامها الممتدة ، ولكنه لم يغفل لحظة واحدة عن خصومه ، بل هجم هجوم المستميت ، وركز نضاله فى جبهة واحدة فتفرق حماتها أباديد ، ووقع الرعب فى الجيش الوثنى ، فتبعه قتيبة مثخنا مجهزا ، وتحقق له ظفر مبدئى كان فألا طيبا للقائد العظيم .

أجل ، لم يكن النصر حاسما قاطعا برغم ما استولى عليه المسلمون من الغنائم والأسلاب ، وما جمعوه من الأوانى الذهبية والتحف النادرة ، بل ان فلول الجيش المنهزم قد استغاثت بأشياعها وأحلافها ، وتكدست الوثنية أمام قتيبة فأجمع ملوك الصغد والترك وأهل فرغانة وكش ونسف، على مقاتلة المسلمين ، فلم يكترث بهم قتيبة وتقدم الى فتح بخارى ملقيا بجنوده امام الطوفان الهائل من القطيع المتلاحم ، ودارت معركة رهيبة هزم فيها المسلمون بادىء ذى بدء ، وكان الوثنيون يتحصنون بنهر كبير، فحشد القائد العربى قوته وعبر النهر الى أعدائه من حيث يأمنون ، فساد الفزع والاضطراب ، وتلقفتهم أمواج النهر ورماح الغزاة وسقطت بخارى المنيعة بعد أن حصدت أمامها الرءوس ، وسالت بها جداول الدماء .

اشتدت شوكة الجيش الاسلامى بالنصر المؤزر ، وأحس قتيبة أن قوة من السماء تسانده وتعاضده ، فخطب فى جنوده وحثهم على مواصلة الجهاد ، وأكد لهم أن العدو المنهزم لا يلبث أن يتكتل مرة ثالثة ، وأن الجيش الاسلامى يقف وحده أمام ممالك كثيرة متكتلة ولن يفوز بغير الصبر والايمان ، وكان ما توقع القائد العربى أن يكون ، فقد كان الملك «نيزك» صاحب « باذ غيس » يضمر حقدا عنيفا للفاتحين ، فأظهر الخضوع والاستسلام خدعة ودهاء ، ووصل الى المعسكر الاسلامى ليستطلع أموره ، ويقف على دقائقه وخوافيه ثم ما لبث أن ارتد محنقا الى ملوك «بلخ» و «مرو» والطالقان والجوزجان ، فأشعل فى كل مملكة ثورة ، وأضرم فى كل صدر نارا ووجد قتيبة عدوه يتجمع ويحتشد ، فاستقدم جنودا اسلامية من «نيسابور» وغيرها ولم يدع الايام توسع لأعدائه سبيل الأهبة والاستعداد، فتوجه مسرعا الى «نيزك» صاحب الفتنة ، فوجده يعتصم بآكام ومضايق وعرة لا سبيل الى النفاذ اليها ، فلبث المسلمون أياما لا يهتدون الى ثغرة تلوح حتى سهل الله كل صعب ، فسلكوا طريقا واضحا الى معسكر العدو، ودار الموت الاحمر فى حومة القتال ، فسقطت نفوس كثيرة ، وتمكن قتيبة من النصر بعد معارك طاحنة يشيب لهولها الولدان .

تابع البطل الفاتح زحفه الى « شومان » و « الصفد » وسجستان ، وخوارزم ، فكان موفق الخطوات ، ميمون العاقبة ، ولكن الوثنية الحائرة تكتلت للمرة الرابعة أمامه ، وهبت تقاتل فى يأس مرير ، يتقدمها أبناء الملوك والمرازبة والأساورة ، ويقودها ابن خاقان ، فرأى قتيبة أن يتفرغ لرسم الخطة وادارة الموقعة وندب أخاه صالح بن مسلم لقيادة الحومة ، ومواجهة الصفوف ، ثم أمر لفوره أن تنصب المجانيق على أسوار سمرقند ، وما زال يضربها حتى تصدعت أركانها ، وتساقطت أحجارها ، واشتد الضيق بالوثنيين ، فطلبوا الصلح ، وانتصر الاسلام انتصارا حاسما ، ودخل قتيبة المدينة وبنى مسجدا وصلى به ، وانتخب لها واليا قويا من جنوده فاستضاءت بنور محمد • وترددت فى جوانبها أنغام الأذان •

كسب قتيبة هذا المجد الباهر فى ثمانية أعوام لم تمر بها ليلة واحدة فى راحة جسم أو هدوء بال ، بل كان الجيش الاسلامى يواجه أهوالا رائعة ، ويقع فى مآزق حرجة فتارة تنفد ذخائره ، وطورا يفقد زهرات من شبابه ، وقائده من وراء ذلك يبث فيه من روحه وينفخ من عزيمته ويضرب المثل بنفسه ، فيتقدم الكتيبة الحمراء ، ويفتح صدره للرماح المشتجرة ، وكان حافزه الملح الى الجهاد هيامه بانتشار الاسلام ، وذيوع تعاليمه ، فكلما نظر الى الوثنية تتغلغل فى بقاع لا تعرف الضياء عزم على استئصالها بكل ما أوتى من شجاعة وايمان ، وكان يثلج صدره أن يدخل المدينة الجديدة فيشرح للناس هداية الاسلام ، ويقرئهم آيات القرآن وأحاديث الرسول ، ويدع بها من العلماء من يدعون الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، لذلك بث المساجد وبناها فى كل مكان ، وجعل أئمة المسلمين وعلماءهم يسيرون مع الجيوش الباسلة ، فيأمرون بالعدل والاحسان ، وينهون عن الفحشاء والمنكر ، ويقيمون الدعائم الرفيعة للأخلاق الاسلامية، فيحيون المساواة العادلة فى أمم تنازعها الاقطاع ، وتعدد بها الطغاة وتأله فيها الحجر ، وعبد الصنم والكواكب والنار من دون الله ، وقد حارب قتيبة الخرافات الدينية بنفسه ، فأحرق أصناما مقدسة وأطفأ بيوتا للنيران كانت تتقد وتلتهب •

يقول ابن الأثير : « وأتى بالأصنام فكانت كالقصر العظيم » فأخذ ما عليها وأمر بها فأحرقت ، فقال «غوذك» ولعله أحد مؤيديه ان شكرك على واجب ، فلا تتعرض لهذه الاصنام فان بها أصناما من أحرقها هلك ، فقال قتيبة أنا أحرقها بيدى ، ودعا بالنار فكبر ثم أشعلها فاحترقت •

ونحن مع اعجابنا البالغ بقتيبة لا ننكر أثر الحجاج فى التوجيه

والمشورة ، فقد كانت عينه متيقظة لمطـــالب جنده النازح ، وكان البريد يصله بأخبار الفتوح ، وهو لا يفتأ يعد الذخائر ، ويبعث المؤن ، ويشير بالخطط ، واذا كانت الخطة غير التنفيذ ، فان مما يشرف قتيبة أن يصل الى النصر الحاسم فى طريقه المرسوم ظافرا مؤيدا ، وأن يخضع الجيش الاسلامى لرغباته دون أن يرتفع صوت واحد بمعارضته ، وأن يزن أعوانه وجنوده فيضع كلا فى موضعه اللائق دون اعتبار لغير الكفاية الشخصية والمقدرة الحربية حتى كلل جهاده بالتوفيق ، وقدرت له دمشق بطولته فبعث اليه الوليد بن عبد الملك بكتاب يفيض بالمدح والثناء ، وواضح أن الاسلام لم ينتشر فجأة فى بلاد ما وراء النهر بمجرد انتصار قتيبة فان دين كل انسان متغلغل فى الاعماق ولا يمكن انتزاعه بانتصار فى موقعه أو بناء مسجد فى مكان ، لذلك لاقى المسلمون بادىء الامر رهقا عسيرا فى التبشير بدينهم كما لقى الذين أسلموا من الوثنيين مقـاومة عنيفة من ذويهم حتى هدى الله النفوس للحق ، فاشرق عليها نور الاسلام طواعية واختيارا ، ورأى هؤلاء من سماحة المسلمين ما حببهم فى الاسلام ، وأدناهم منه ، ولم تمض سنون حتى أصبحوا من أنبغ أهله علما وعملا ، وذخرت المكتبة الاسلامية بمؤلفاتهم العلمية والدينية ، فأصبحت ترى فى أساتذة الاسلام وأئمتــه من سمى بالبخـــارى ، والســـمرقندى ، والبيهقى والنسفى ، والخوارزمى ، والترمذى ، والنيســـابورى والزمخشرى ، والبيضـــاوى ، والشيرازى الى آلاف من الأفذاذ يتحدث عنهم تاريخنا العلمى حديثا مضمخا بالثناء ٠

وقد مات الحجاج وهو الساعد الايمن لقتيبة وتوفى بعده الوليد بن عبد الملك وكان لا يقل عنه تعضيدا للبطل الفاتح ، فخسر بوفاتهما دعامته القوية التى كان يستند اليها فى قيادته وأصبح أمام سليمان بن عبد الملك وجها لوجه ٠

وأخذ الخليفــة الجديد يؤاخذ قتيبة وآخرين من أقطاب المجـاهدين والولاة على أنهم كانوا يتعصبون عليه لأخيه الوليد ، فكان فى نفسه شىء من الضغن عليهم ، وكان ينبغى له ، وقد ارتقى الى منصـــب الخلافة ، أن يتناسى ذلك لهؤلاء القادة البسلاء الذين رفعوا راية الاسلام وأعلوا مكانة الدولة الى السماء ، ولو أصاخ قليـلا الى منطق العقل النزيه لســـعى الى استرضائهم ، وجهد فى تقريبهم ، ليكونوا معه كما كانوا مع سابقه ٠

وقد ضاعف النكبة على قتيبة أنه كان قد تأهب لغزو الصين ودخل مدينة كشغر ، وأصبح قريبا من الحدود وأتت الرسل تسعى بالسفارة بينه وبين الدولة المهـددة بالغزو الاســـلامى ، أفيتراجع فجأة عن الغزو منتظرا ما يأتيه من دمشق ؟ أم يستمر فى مراسلة ملك الصين واستطلاع

داخله مع حرج مركزه ودقة موقفه المتأرجح ؟ مهما يكن من شيء فقد استمع قتيبة الى نداء البطولة وعصفت برأسه النخوة العربية حين جاءه رسوله « هبيرة الكلابى » يحمل تهديد الامبراطور الصينى فبعث يعلمـــه أنه لن ينصرف عن بلاد الصين حتى يطأ الارض ويختم الملوك ويعطى الجزية وكان لهذا الرد الحاسم زالزال عنيف فى صفوف الجيش الصينى فخارت قوى الامبراطور ، وبعث بالجزية صاغرا مع بعض أبنائه ، فكف عنه قتيبة ، ولولا دقة موقفه السياسى لاقتحم أرضه وضم الى الاسلام أصقاعا جديدة ، ولكن ماذا يصنع والريح عاصفة والجو ملبد بالغيوم مجلجل بالرعود ·

ولم يلبث سليمان أن أصدر قراره بعزل قتيبة كما أمر باحضاره الى بلاط الخلافة فى دمشق ولو استجاب البطل الفاتح لهذا العزل الظالم للقى مصرعه كما لقيه فاتح الهند الاعظم محمد بن قاسم الثقفى بعد جهاد مبين · لقد فضل « قتيبة » أن يموت فى حومة القتال دون أن يلقى منيتـــه فى غياهب السجن وثقيل الأغلال ، فأعلن مخالفتــه الصريحة ، وقاد كتائبــه الجريئة ليقف أمام جنود الخليفة ، ولكن سهما طائشا أودى بحياته ، فسقط شهيدا وطارت روحه الباسلة الى ربها راضية بمآثرها البيضاء وجهادها الخالد ، ومن المؤسف أن أكثر أعوانه من العرب تألبوا عليه فى محنته ، لا لشيء الا أنه وثق فى كفاية بعض الخراسانيين فقدمهم فى الالوية والقيادة مع نظرائهم من العرب ، مؤثرا المساواة العادلة التى شرعها الاســـلام وكأنه بذلك قد جانب حقا واضحا واعتصم بضلال أكيد ·

وكان لمصرع «قتيبة» دوى هائل فى العرب والفرس معا أما المخلصون من العرب فقد رثوه بقصائدهم النائحة ، وأقض مضاجعهم أن تكون نهاية البطل الفاتح قريبة عاجلة ، بعد أن عقدت عليه الآمال ، ومكن للاسلام فى بلاد يعوزها الاشراق والايمان ، وأما العقلاء من الفرس فقد صعدوا الزفرات الحارة حزنا على استشهاده الأليم ·

مر خراسانى على جثة قتيبة وهو مضرج بدمائه فبكى واستعبر وقال: يا معشر العرب قتلتم « قتيبة » وهو الفارس المغوار ، ولو كان منا معشر الفرس فمات لجعلناه فى تابوت ، فكنا نستفتح به كلما دقت طبول الجهاد · وقال آخر يا معشر العرب قتلتم « قتيبــة » ويزيد بن المهلب وهمــا سيدا العرب بخراسان فقال له بعض السامعين أيهما كان عندكم أعظم وأهيب ··؟ ،قال: لو كان قتيبة بالمغرب الاقصى مكبلا بالحديد ويزيد معنا فى بلادنا لكان قتيبة أهيب فى عيوننا وأعظم ، مات قتيبة رحمه الله ، وبقيت صـــحيفة أعماله خالدة ناصعة ،فرفعه التاريخ الى أفق زاهر يشرق بالبطولة والكرامة والشهادة ، وفى ذلك عزاء أى عزاء ·

وسلام على البطل العظيم



محمد بن القاسم الثقفي
فاتح الهند

محمد بن القاسم الثقفى ، فاتح الهند

تتلألأ البسمة الزاهرة على فمك اذ تطالع تاريخ البطل الشـــاب محمد بن القاسم ، فترى من خوارق البطولة ونوادر البسالة ما تتقاصر دونه الهمم البعيدة ، وينوء بثقله ذوو المطامح العالية من أولى النجدة والاقدام ، وقد تنقطع عن القراءة فترات مختلفة تجول بخيالك فى عالم هذا البطل العجيب ، فتتصور مدى ما أحرزه من نصر باهر !!

وتترك للاعجاب الزاخر فى نفسك متنفسا يجيش به عبــابه . وتتواكب طيوفه ، ولكن البسمة الزاهرة تنقلب الى دمعة ساخنة حين تفجؤك نهايته الاليمة ، فتظن مرارة الحزن تحيل ريقك الى صاب مرير ، وتتوهج فى قلبك جذوات الغضب على اناس تتأجج احقادهم الآثمة فلا يطفئها غير التنكيل بالأبرياء والتربص بالافذاذ العماليق ، ولو كان البطل الشهيد قد لاقىحمامه فى معترك السيوف ، وبين مشتجر الرماح لكان مصرعه مدعاة ارتياح لمن يقدرون فروض البطولة على اصحابها ، وديون القيادة على أربابها !! ولكنه والهفتاه يذهب ضحية للحقــد اللاعج . والحزازة المدمرة ! ثم تختلق الاكاذيب المفرضة لتلطخ بسوادها المنكر صحيفة بيضاء تتألق ساطعة بنور الفضيلة والكرامة والاباء .. ويمضى الشهيد الى ربه صابرا محتسبا لتكون شهادته وساما لامعا يزيد من أجره لدى الله ، ومن شكره عند الناس ، هاهى ذى قصة كفاحه !! تصيح بالعظة المؤثرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع !! .

لقد سيطر الحجاج بن يوسف الثقفى على الدولة العربية فى ظلال الحكم الاموى زمنا ليس بالقليل ، فكان مطمح الانظار وقبلة النفوس ، وكانت ثقيف تعتز به ، وتفخر برجولته ، ويترنم فتيانها بانتصـــاراته ومواقفه ، حتى صار كل ناشىء ثقفى يتخذ من الحجاج مثلا فى البطولة والكياسة ، وكان أشد من بهرهم مجد الحجاج غلام ناشىء من أبنـــاء عمومته هو محمد بن القاسم الثقفى ، فما كاد يشب عن الطوق حتى

اتجه الى الفروسية والبطولة فلقن فنون الحرب وحذق أساليب القتال، ورأى أستاذه الحجاج يضرب بسهم فى البلاغة الخطابية فعكف على شوارد اللغة وقلائد البيان يستظهر عيوبها ، ويجمع أوابدها حتى قال الشعر الرقيق وعبر عن أحاسيسه الطامحة بأزاهير ناضرة من القصيد ، واتجه بقلائده الى الحماسة والبطولة والبيان معا ، واسترعى اليه الحجاج على حداثة سنه ، فعهد اليه بمهام خطيرة لايتقلدها غير المحنكين من ذوى الدربة والمرانة ، وقد أظهر من الكفاية والمقدرة ما جعل ابن عمه يقذف به الى وادى السند على رأس جيش عربى ضخم !! وكذنت فراسة الحجاج صادقة فقد فتحت الهند على يد البطل الشاب ، ودخلت الثقافة الاسلامية الى بلاد عاشت فى الوثنية والضلال ، فبددت الغياهب واكتسحت الضباب ..

والحق أن غزو الهند كان أملا يراود ابطال العرب فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وبخاصة بعد أن تحطم سلطان الكسروية فى القادسية وتزلزل كيان القيصرية فى اليرموك ، غير أن الفاروق كان يحذر أن يزحف العرب فى آكام وهضاب لا عهد لهم بمنعرجاتها الوعرة ودروبها الملتوية فكتب الى عامله فى البحرين عثمان بن ابى العاص الثقفى يحذره من توغل جنده فى وادى السند ، ويقول له يا أخا ثقيف لقد حملت دودا على عود ، وانى أحلف بالله لو أصيب عدد من جندك لاخذت من قومك بمثلهم !! وبرغم ذلك التحذير فقد تتابعت الغارات الاسلامية بعد خلافة عمر على شواطىء الهند وجزائرها المختلفة ، وأخذت الفرق الاستطلاعية من كتائب العرب تكتشف هذا الوادى الفسيح ، وتستوطن أماكن متفرقة منه دون أن تلتقى بجنوده فى موقف حاسم ، أو تقع فى مأزق كريه ، وظل الحال على ذلك حتى كان عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، وقد فرغت الدولة من ثوراتها الداخلية فهدأت عاصفة ابن الزبير ، وقضى الحجاج على جبهة ابن الأشعث ، وتمكن السلطان الأموى بعد أن كادت تميل به الاعاصير ، واذ ذاك سارت الجيوش العربية لتستأنف الفتوح المعطلة ، ولتضيف الى رقعة الاسلام بلادا يسعدها أن تشرق عليها شمسه ، فسار قتيبة بن مسلم الباهلى الى ما وراء النهر وأوغل فى كرمينية ، وبخارى ، ومدن خوارزم وسمرقند ظافرا منصورا ، واتجه موسى بن نصير من مغرب افريقية الى بلاد الاندلس على نحو ما قدمنا ، فافتتح قرطبة واشبيلية وبرشلونة ، وبوأ للاسلام مكانا عاليا ورفع للعربية علما خافقا ، وقد رأى الحجاج أن تأخذ ثقيف نصيبها من الغزو والجهاد فعقد اللواء لابن عمه محمد بن القاسم ، وهو فى السابعة عشرة

من عمره فسار على رأس عشرين ألف مقاتل الى بلاد الهند فسطع نجمه وكسب مجدا خالدا يفوح على الزمن أريجه العاطر ، وتتناقله الاجيال وراء الاجيال . لم يكن محمد بن القاسم أول مبعوث للحجاج الى هذه البلاد ، فقد كان قبله من القادة سعيد بن أسلم الكلابى ، فمجاعة بن مسعر السعدى ، ثم محمد بن هارون النميزى ، وقد قام كل بطل من هؤلاء بنصيبه الموفور فى الجهاد على تؤدة وتحفظ دون ان يجازف بحملة خطيرة قد تسوء مغبتها فى أصقاع نائية وأودية سحيقة ، وكان الحجاج يحبذ هذه الحيطة الرشيدة حتى اهدى ملك سيلان ــ وكانت تسمى حينئذ جزيرة الياقوت ــ الى الحجاج سفينة تحمل نساء عربيات مسلمات ممن توطن فى سيلان حيناما ..

واتجهت السفينة الى سواحل العرب . فخرج عليها قوم من قراصنة « الديبل » واستولوا على نسائها فصرخت أعرابية من بنى يربوع : واحجاج واحجاج ! وطار اليه الخبر باستغاثتها فنادى من وراء الجبال والبحار لبيك لبيك ! ! ثم كتب الى ملك الديبل بتخلية السفينة واطلاق النسوة فجاء الرد بغير ما يجب ، فثارت ثائرة الحجاج واختار عبد الله بن نهبان لقتال الحاكم ، فذهب رضى الله عنه شهيدا ثم استبدل به « بديل بن طهفة البجلى » ففاز بالشهادة دون أن يصل الى أمر حاسم ! واذ ذاك تحرج الموقف امام الحجاج وارق ليلة طويلة يفكر فى غزو الهند وعلى يد من تكون .

وذلك بعد أن راى قواده يتساقطون كأوراق الشجر شهيداً خلف شهيد .. ثم تأمل فى ابن عمه محمد بن القاسم فرأى فى حزمه وبسالته وفدائيته ما يرشحه لقيادة الجيش المحارب ، ولم يكن الموقف هينا حتى تختار له شخصية هزيلة ، فهناك قائدان صريعان ودونهما طاغية يستبيح المحارم ، ويغير على المسلمات الآمنات واذن فقد كان اختيار البطل الصغير وليد فراسة حاذقة ، ونتيجة دراسة واعية ، وقد أشرف الحجاج بنفسه على اعداد الجيش ، فاختار عشرين الف مقاتل من خيرة الأبطال ، وصفوة الجنود ، واعد أسطولا قويا يحمل المشاة والمؤن والعدد الثقيلة ، كما زود الكتائب الغازية بجميع ما تحتاج اليه من الأدوات حتى الابر والمسال ، وقد بلغ به الأمر ان وضع الخل فى القطن وجففه فى الظل لتبقى به المادة فيسهل استعمالها بعد الغمس فى الماء ثم اجتاز الجيش حدود ايران الى الهند ، فاستولى على بعض العواصم الهامة ، زاحفا الى « الديبل » فخندق الجيش بخيوله وأعلامه ، واستعد لمقاتلة « الراجة واجر » حاكم الاقليم فى حصنه المنيع ..

ترى ما يصنعه المغيرون البســلاء فى بلد منيع متحصن بالقلاع والأسوار ! لقد كان لديهم منجنيق ضخم يسمونه « العروس » تقذف منه الصــخور الى داخل الحصــون فيدكها دكا كأن لم تغن بالأمس. وهاهم أولاء يصــوبون صخورهم الى صــنم ضــخم يرتفع بالمدينــة وعلى رأسه راية تدور مع الريح فى كل اتجــاه ، وكانت له منــزلة عالية فى نفوس الوثنيين ، فهــم يعظمونه ويطوفون حوله ، ويظنون الدائرة تدور على من يمسه بسوء ، فلما سقطت رايته وتهشم راسه ثارت ثائرتهم فهبوا لملاقاة الغزاة الفاتحين ، ودارت معركة حمراء نكصت بالوثنيين على أعقابهم فتسلل العرب خلفهم وتسلقوا الأسوار العالية ، وفتحوا المدينة عنوة وتمت كلمة الله ، فكانت العاقبة للمتقين ، وأصبح محمد رئيسا لجيش منتصر ظافر يسير به فى طريق الفوز والفلاح ، ولكن لم تأخذه نشوة النصر فتغير من تواضعه الرفيع ، أو تجنــح به الى الزهو والمباهاة ، بل استمر يعامل جنوده وأعوانه وفيهم من يكبر أباه سنا وقدرا ، معاملة عادلة رحيمة ، فما يقطع بأمر دون مشورة ومناقشة بل انَ الذين انضمــوا الى جيشــه من «الزط» كانوا أكثر من أربعة آلاف مقــاتل وجدوا من مروءته وأريحتــه ما دفعهــم الى الاســتبسال والحماسة وقد قارنوا بين شمائل البطل العربى الصغير وما يعرفونه من غطرسة الملوك وشراسة القواد فراوا البون شاسعا وظهر لهم الفاتح العربى فى صورة انسانية رفيعة ، فاتحدت كلمة الجيش الغازى ،وسار وراء قائده المقدام ، فكان لا يمر بمدينة الا فتحها حتى عبر نهر(مهران) وأيقن (الراجه داهر) أن الزمام قد خرج من يده ، فرمى بآخر سهم فى جعبته وجمع فلول الوثنية من أشتات المقاطعات ، واستعد لمعركة فاصلة ، ودارت رحى الحرب رهيبة جثم خلفها الهول المستطير ، فقد ركب الوثنيون الفيلة ليرهبوا خيــول العرب فتتقهقر مقــدمتهم ولكن قذائف النفط الملتهب قد أفزعت الأفيال ، فشردت بأصحابها الى الوراء، ووقع الذعر فى نفوسهم فدهمهم المسلمون وأجهزوا عليهم بالسلاح حتى امتلأت الأرض بالأشــلاء وغرقت فى لجج الدماء ، وســقط (الراجة) قتيلا واستولى الفاتح العربى على مدينته وأســلابه ، ومضى يطهــر أرض السند من الوثنية المشركة حتى قطع نهر (بياس) الى (الملتان) فوجد قوة جبارة تذود عنها ، فاضطر الى محاصرتها مدة كبيرة حتى فقد الزاد وقل الصبر ، وبلغ الجهد مبلغه من النفوس ، ولكن الظلام قد انجلى عن صبح مسفر ، اذ اهتدى الغزاة الى مدخل الماء بالمدينة فقطعوه عنها ، وأرغم الوثنيون على التسليم ، ولا تسل عما غنمه المسلمون من

ذهب خالص بلغ مائة وعشرين مليون درهم ، وكانت (الملقان) .. أقصى ما وصل اليه محمد بن القاسم من ناحية الشمال فرفرف عليها علم الاسلام ، وخرجت من الظلمات الى النور ، ولئن كان البطل الفاتح قد ملك جنوده الكماة بأريحيته النادرة ، وبطولته العظيمة فقد سحر الهنود انفسهم بعدالته وسماحته ، ولم يكن همه السيطرة والاستيلاء ، بل كانت معه مبادىء دين جديد يحب أن تطبق وتنفذ ، لذلك بنى المساجد فى كل مكان يغزوه ، وعمل على نشر الثقافة الاسلامية مبسطة ميسرة، بل انه أسهم برايه فى أمور فقهية تدل على سلامة استنباطه ، وتنأى عن الحرفية الضيقة والجمود الآسن الكريه فقد كان لاهل (الزوار) « بد » تهدى اليه الاموال وتقدم له النذور وقد اشترطوا على ابن القاسم الا يقربه بسوء . فخضع لهذا الشرط ، وكان عند وعده اذ اعتبر (البد) مثل كنائس النصارى واليهود وبيوت النيران عند المجوس ، وكان يوزع على عماله كتبا تدعو الى العدالة والنصفة ، ويسهر على تنفيذ تعاليمهفى صبر بالغ تفذيه الفتوة ويمده الشباب ، وقد تعلق به الهنديون تعلقا شديدا ، ونسجوا الأساطير البديعة حول بطولته ، وحين جاء الأمر بعزله عن مسرح كفاحه ومرقى مجده جزعوا على فراقه جزعا شديدا ، وخرج النساء يصرخن وودعه الرجال والشباب متحسرين آسفين . وقد صوروه بالحصى على جدرانهم ليبقى شخصه ماثلا للعيون ، وان كان يحتل الأفئدة ويملأ الصدور ..

وحين تسأل عن أسباب عزله ورجوعه فخورا الى ظلمات التشريد والتنكيل تجد الاجابة مشعرة بالأسف واللوعةعلى أناس تلعب بهم الأهواء، ويقودهم الحمق الأرعن الى مهاوى الجحود والعقوق ، فلم يكن للبطل الباسل من ذنب لدى الخليفة سليمان بن عبد الملك الا أنه ابن عم غريمه الحجاج ، فلابد من الانتقام منه أبشع انتقام ، وليس العزل وحده عقوبة تشفى الغيظ وتبعد الحقد ،بل ان التعذيب المفضى الى القتل فالشهادةهو النهاية الأليمة لهذا البطل المغوار الذى نجا من حومة القتال ليسفك دمه فى مباءة الغدر والنذالة والانحطاط ، واذا كان الحجاج قد وتر سليمان ابن عبد الملك حين هم بخلعه عن الخلافة فما ذنب أقربائه وذوى رحمه .. وهل فى تعاليم الاسلام ما يبيح لملك طاغية أن يريق دماء الابطال فيبوء بأفدح وزر ويكسب عار الابد وفضيحة التاريخ ؟! تلك ماساة تفتت الاكباد وتحرق القلوب .. ماذا عسى أن يفعل أعداء البطل به والدنيا تشهد لمآثره ، وتترنم بفتوحه ، ولو هموا بقتله مباشرة لصرخت النوادب فى كل مأتم ، ونسجت المنائح فى كل ناد ، فلا بد منإختلاف اثم آفك يبرر

الفتك الشنيع . والغدر الرهيب ؛ لقد أجمعوا امرهم على اذاعة دعوى باطلة فاضحة عن علاقة آثمة كانت بينه وبين ابنة (داهر) ثم جاءوا بالاميرة الاسيرة لتختلق افكا صراحا عن قاتل أبيها وممزق مملكتها . ولم تكن الاسيرة فى حاجة الى من يحرضها على غريم عنيد يتنزى قلبهـا حقدا عليه . ويؤرق عينيها ما جلبته فتوحه الزاهرة على أهلها من شقاء دائم ، وعلى نفسها من حزن مقيم . فاندفعت الحاقدة الموغرة تذيع افكا من القول صيغ لها صياغة مفضوحة زائفة فلاكته على رءوس الاشهاد ، وخيل لاعوان الخليفة انهم أحكموا الخطة . ومهدوا الاسباب المبررة للاغتيال ، فاندفعوا وراء شهواتهم الآثمة يطفئون نورا يسطع كوكبه ويهدمون صرحا تتعالى قمته ، والعيون تنظر لتشهد أفجع مشهد لبرىء كوفىء على الكفاح بالاعدام فى زمن سادت فيه النزوات الجامحة .. وخنس العقل الحكيم ..

لقد كان فى طوق القائد الشهيد أن يقاوم العزل ويتحدى الخلافة بماله من كلمة مسموعة فى جنده ودولته ، ولكنه قابل المحنة صابرا راضيا ، واستسلم طائعا لما توقعه من النكال حتى لقى ربه شهيدا بريئا تتقدمه وقائعه الغر فى سبيل نصرة الاسلام واعلاء كلمة الدين ، وقد وجد فى كتاب التاريخ من سجلوا فتوحه وترنموا بملاحمه الفاصلة فأصبح عمره القصير مضرب المثل فى البطولة والبسالة ، ومقياسا فسيحا لما تتسع له جهود الشباب من أعمال روائع ، وقد عقد الاستاذ عبد الحميد العبادى موازنة طريفة بينه وبين الاسكندر المقدونى فى كتاب (صور من التاريخ العربى) فبين أن غزوته الى الهند شبيهة بغزوة الاسكندر .

من حيث أن كليهما قد نهج منهج الآخر فى نشر الثقافة بالسند ، ومن حيث أن كليهما كان يهدى الى أستاذه طرفا من طرف فتوحه، ويراسله مستطلعا رأيه ، فالفاتح المقدونى كان يهدى الى أرسطو ويراسله ، والفاتح العربى كان يهدى الى الحجاج ويراسله مستطلعا رأيه فى بعض المواقف اهـ.

أجل لقد استشهد البطل العربى محمد بن القاسم ولم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره بعد أن فتح الفتوح وقاد الجيوش وضم الباكستان العظيمة الى رقعة الاسلام ، فاستضاء بجهاده وبمن جاء بعده مائة مليون من خيرة المسلمين، ولقد استتم هذا المجد الشاهق لصاحبه الباسل فى سنوات قصار تكللت بالظفر والنجاح ثم طوى العقوق فارسها المحجل فى مهاوى الجحود ومطارح الكفران ..

« يا كوكبا ما كان أقصر عمره
وكذاك عمر كواكب الأسحار »



عبد الرحمن الغافقي

فارس بلاط الشهداء

عبد الرحمن الغافقى

كان عبد الرحمن الغافقى رحمه الله بطلا بعيد الهمة حازم الادارة ، وكان جديرا بتخليد اسمه ، وترداد ذكره لولا أن حافظة التاريخ لا تعى غير أسماء محظوظة كتب لأصحابها النصر فى النهاية ، ولقد أبدى هذا البطل العظيم من ضروب الفدائية وروائع التضحية ما يدهش ويعجب الا أنه كان فى المعركة الأخيرة مع بسالته الخارقة قائدا بغير جنود ٠

وقد نشأ نشأة مباركة ، فصحب كرام الصحابة ، وتلقى الفقه والحديث عن عبد الله بن عمر وغيره، وفاضت نفسه حماسة للاسلام وشغفا بانتصاره ، فنزح فيمن نزح الى الأندلس من البسلاء الكماة ، مجاهدا فى سبيل دينه ٠ ثم تألق نجمه فيما اشترك فيه من الغزوات والحروب ، فعرف بالشجاعة والمروءة ، واكتسب اجلال معارفه وأصحابه ، وتقدم الصفوف قائدا ممتازا يرسم الخطط ويدير المعارك ٠

وكانت الأندلس فى عهدها الأول مرتعا للفتن والثورات ، ومسرحا للخلاف القبلى والعنصرى ، وقد وليها بعد موسى بن نصير أناس لم يثبتوا للحوادث ، حتى رأسها « السمح بن مالك الخولانى » فأعاد اليها النظام والاستقرار ، وأبرز مهارته الادارية ، وكان بطلا مقداما ، فرأى أن يستأنف الغزو ، ويرفع راية الجهاد ، وتقدم بجيشه الباسل ، فلقى كثيرا من النجاح والتوفيق ، واستعاد « أربونة » و « قرقشونة » ومعظم قواعد « سبتمانيا » وحصونها ، وأقام بها حكومة اسلامية ثم اتجه الى «اكوتين» فوجد مقاومة عنيفة ، ولكنه اكتسح العدو اكتساحا رائعا ، وتقدم الى « نولوشة » فوقف أمام جيش كثيف يفوقه عددا وعددا فلم يعبأ به واخترق صفوفه وقذف بجنوده فى حومة حمراء بالدماء ، وشاء القدر أن يسقط شهيدا فى مأزقه الكريه ، فانسحب المسلمون ثانية بعد أن فقدوا قائدهم البطل ، وخسروا عددا كبيرا من الجنود ٠

وكان عبد الرحمن الغافقى أحد جنوده فى المعركة فأجمع الجيش

على اختياره للقيادة ، ورأى من الحنكة أن يرتد الى الجنوب ولكن حزنه الأليم على مصرع قائده ، واستشهاد زملائه جعله يفكر جديا فى الانتقام لمصارع الأبطال ، واستئناف الغزو والهجوم .

ولم يرض الوالى الافريقى عن اختيار الغافقى للقيادة ، وكانت الأندلس تابعة له فى تعيين الولاة ، فبعث بغيره مكانه الا أن القلق والاضطراب الذى دام خمسة أعوام متتابعة قد أجبره على تعيين عبد الرحمن مرة ثانية فعاد الأسد الى عرينه يتقدم الصفوف ويجهز الكتائب للنضال .

بدأ عبد الرحمن باصلاح داخلى يقوم على العدالة والمساواة ، فعدل نظام الضرائب ، وعزل من العمال من حامت حوله الريب والظنون ، وأظهر تسامح الاسلام فى معاملة النصارى واليهود ، فلهجت الألسنة بالثناء عليه ، وفرح الأندلسيون بولايته فرحا زائدا .. ولم يكن ليحابى أحدا فى سبيل الحق والعدالة ، بل ان أخلاق الاسلام التى سرت فى عروقه واختلطت بدمائه ألهمته سبيل الرشاد ، وجعلته يغزو غزوة عاجلة غنم فيها أسلابا وافرة ، وكان فيما أصابه عمود صغير من الذهب المرصع بالدر والياقوت ، فأمر به فكسر ، ثم أخرج منه الخمس كما أمر الله ، وقسم الباقى على من معه من الجنود ، فغضب والى افريقية غضبا شديدا ، اذ كان يود أن يتقدم به اليه مجاملة ، فكتب يتوعده فى لهجة قاسية ، فرد عبد الرحمن يقول : ان السموات والأرض لو كانتا رتقا لجعل الله للمتقين مخرجا منها !! وذلك يدل دلالة ساطعة على ايمان القائد وورعه وتخلقه بالخلال الاسلامية الواضحة الشفافة ، فهو لا يعبأ بكبير فى الحق، ولا يدخر لنفسه شيئا دون جنوده ، وبهذه الشمائل العالية نال ثواب الله ... واحتل شغاف القلوب .

وكان هذا البطل الباسل يعزم عزما أكيدا على تحقيق أمنية موسى ابن نصير فى الفتح الاسلامى ، فهو يريد أن يوغل فى أرض الافرنج حاملا مدنية الاسلام وحضارته الى شعوب غارقة فى الظلام والضلال ، ثم يعطف على الشرق فينفذ من القسطنطينية الى دمشق ، وبذلك يعم الاسلام القارة الأوربية ، وينقذ شعوبها من الظلمات ويخرجهم الى النور ، هذا الى أن مصرع « السمح بن مالك » ورفقائه كان يذكى فى صدره نار الحمية ، فهو يود ــ وقد شاهد المأساة ــ أن يؤدب هؤلاء الذين ظنوا الظنون الوخيمة بقوة الاسلام ، فأشاعوا الشائعات المسمومة حول شجاعة أبطاله ، ومقدرة قواده ، ومن ثم أخذ يدرب الجيوش ويحشد

الذخائر ، ويضع كل جندى فى موضعه اللائق بكفايته ، ولم تثنه أعباؤه الادارية عن اعداد الجيش ، واذكاء الحمية فى نفوس تتطلع الى النصر أو الاستشهاد ، كما انتخب فرقا مختلفة من البربر وعهد بقيادتها الى أبطال من العرب ، فأحسنوا تدريبها الحربى ، وأضافوا الى الجيش الاسلامى قوة عظيمة ، وقد خلع الغافقى بعمله هذا على البربر مكرمة خالدة ٠٠ فشعروا أنهم لا يقلون عن العرب كفاية وموهبة وان كانت روح الاسلام لم تهيمن على مشاعرهم هيمنة تامة عاجلة ، فقضوا ـ بعد ـ أمدا كبيرا فى التوجيه والاستعداد ٠

وقد رأى عبد الرحمن أن يطهر الجبهة الداخلية قبل أن يشتبك مع أعداء الاسلام فى موقف حاسم ، فبعث بكتيبة من جنوده الى عثمان ابن أبى نسعة ، وكان من قبل واليا بربريا على الأندلس ، فعزل عنها ، وعين حاكما لولايات البرينية فاضطرم حسدا وحقدا على الغافقى وتعاهد مع أعداء الاسلام على مقاتلته ، بل انه تزوج ابنة دوق (أوكتين) ليضمن مساعدته فى قتال عبد الرحمن ، وكان هذا الدوق بين نارين : فهو يخشى من الجنوب الجيوش الاسلامية التى أصبحت على مقربة منه تهدد مقاطعته ، وتدمر حصونه ، كما يخشى جيـــوش الافرنج من الشمال ، وقد بعث (شارل مارتل) بطلائعها الزاحفة لمناوشته واسقاط معاقله ، فاضطر اضطرارا مجازفا الى معاهدة ابن أبى نسعة ومصاهرته أيضا ، وطار الخبر الى عبد الرحمن ، فأرسل الى الوالى الخائن جيشا بقيادة أحد المهرة من جنوده ، فحاصره وقتله جزاء مروقه وخيانته ٠

عبأ الغافقى جنوده واستأنف الغزو طبقا لمشروعه الضخم الذى رصد حياته لتنفيذه ، فاكتسح المدن الواقعة على نهر الرون ثم هجم على ولاية (اكوتين) وحالفه النصر ، فمزق جيوشها وطارد فلولها ، وسقطت فى يده ، وتابع زحفه منتصرا فى جميع خطواته حتى افتتح نصف فرنسا الجنوبى من الشرق الى الغرب فى بضعة أشهر ، وأصبحت العاصـــمة الفرنسية مهددة بالسقوط ، وقد التهب جنوده حماسة وحمية ، وزادهم اقداما ما يتوجون به فى كل معركة من النصر الباهر ، والفتح العظيم ٠

انزعجت أوربا انزعاجا صارخا لتقدم الجيوش الاسلامية ، وفزع زعماء المسيحية ، فأرسلوا صيحاتهم الصليبية فى آفاق أوربا ، وبذلوا أقصى ما يقدرون عليه فى اشعال الكراهية للاسلام ، وتأريث العـداوة لرجاله ، وكان ملك الفرنجة ضعيفا عاجزا يتولى حاجب قصره (شارل مارتل) قيادة أموره ، فتجمع حوله الصليبيون وقدموه قائدا للكفاح

النصرانى ، وكان ذا أطماع واسعة يهدف اليها من وراء قيادته فحشد جيشا ضخما يؤلف العصابات الجرمانية والعشائر المتوحشة ويجمع طوفانا مرعبا من الآدميين المتوحشين ، وقد خرجوا حفاة عراة يتشحون بجلود الذئاب والنمور ويرسلون ضفائرهم الممتدة فوق ظهورهم ، فيرسمون للوحشية البدائية صورا مزعجة حمراء ، وضاقت بجموعهم الكثيفة سهول فرنسا فتدافعوا على ضفاف اللوار متراصين متزاحمين ٠

لم يعتمد «شارل مارتل» على القوة وحدها، بل أعمل الحيلة والمكيدة فانتظر بجنوده وقتا غير يسير ، وقد علم أن المسلمين مثقلون بالغنائم والأسلاب ، فلابد من انتظارهم وقتا ما ليشغلوا بنفائسها الثمينة عن القتال ، وليتجهوا الى الحرص عليها من جهة ، كما يتسع أمامه الوقت من جهة أخرى لتنظيم صفوفه ، ووضع الخطط الدقيقة ، وتقدير الاحتمالات المتوقعة فى الهجوم والدفاع ، ولم يكن المسلمون يقدرون فى نفوسهم أنهم سيقفون أمام هذا الطوفان الحاشد من الموج المتوحش الا أن وثوقهم من النصر خلع من قلوب القادة كل خوف ، فأخذ عبد الرحمن ــ وكان من فرسان المنابر والهيجاء معا ــ يخطب فى جنوده ، ويحثهم على الثبات والصبر ، وكان يتقد حماسة وحمية فأفرغ فى خطبه كثيرا مما تزخر به نفسه المتوثبة ثم تقدم بجنوده يحدوه الأمل المشرق ، ويدفعه اليقين الراسخ بمسالمة الأقدار ، مرتقبا ما تتمخض عنه الأحداث ٠

وفى رحاب شمبانيا الشاسعة الأطراف بين بوانيه وتور ــ التقى جيشان يختلفان عددا ولغة ودينا ، على مقربة من نهر اللوار هجمت فرسان المسلمين على صفوف الفرنجة وتكدست جثث القتلى من الجانبين طيلة النهار حتى فصل بينهما الظلام ٠

كان الجنود المسلمون ــ أسدا مغاوير ، فقد اخترقوا الصفوف وراء قائدهم الباسل ، ورأوا من جلاد الأعداء ونضالهم المستميت ما لم يعهدوه من قبل ، فكلما اخترقوا صفا تلاحقت أمامهم وحولهم الصفوف المدججة ذات الصياح المرعب المتوحش ، وقضوا نهارا عابسا كريها كثرت فيه ضحايا الفريقين ، واختال ملك الموت ليسقى الكماة الدارعين من معين ثجاج لا ينضب ، وما غربت الشمس حتى خارت القوى ، وتحطمت الأعصاب ووقف الليل الدامس حاجزا كثيفا يمنع تشاجر الرماح الى حين٠

وقد برقت فى حندس الليل لشارل مارتل فكرة داهية ، طار لها فرحا واستبشارا فالمسلمون مثقلون بغنائمهم الثمينة ، وأسلابهم الذهبية النادرة ، وكثير منهم من البرابرة الذين يحرصون على نفائسهم الغالية

أكثر من حرصهم على النصر ، فما عليه حين يتلاحم الجيشان الا أن يبعث بمن يصيح باكيا على الأسلاب المنهوبة ، والنفائس المباحة ليرتد المسلمون مدافعين عنها ، فيتمكن عدوهم من رقاب عزيزة ، وأنوف ذات شمم !! فكرة ماكرة قاصمة جالت بذهن القائد الفرنجي فبادر بتنفيذها حين التقى الجمعان ٠٠ وطار الصراخ فى كل مكان وارتفع البكاء على النفائس ، فصح ما توقعه شارل ، وترك الكثيرون ميدان القتال واندفعوا الى الخيام مذعورين ، وهال الموقف الرهيب عبد الرحمن وأفزعه فطفق يعدو بجواده ذات اليمين وذات الشمال ، داعيا الى الثبات والاقدام فى معشر زين لهم حب المال ، وجنوا هياما بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وحين خابت صرخاته اليائسة ترك الطامعين من المرتدين واندفع مع خيرة جنوده ليقف بهم أمام الطوفان المتوحش الرهيب ٠

واستبسلت كتيبة القائد استبسالا ينحنى له التاريخ اجلالا واكبارا فاطاحت بصفوف هائلة من الجحافل المتراصة المترامية ، ولكن الطوفان المجلب قد زحف بموجه المزبد على الفدائيين المناضلين فسقط البطل الغافقى صريعا شهيدا ، وساد الذعر جيوش الاسلام اذ وقع استشهاد عبد الرحمن موقعا أليما ، ودعا الى الحيرة والذهول والارتباك ، فى حين أمعن العدو فى المسلمين تقتيلا واهلاكا ، فطارت نفوس كثيرة ، وسقطت جثث لا تخضع لحصر ، وتمادى « شارل مارتل » مع جيشه حصدا واستئصالا ، فلم يعبأ بجريح يئن أو شهيد يحتضر حتى أتى الظلام الأسود فطوى الستار على يوم أشأم لم يسمع المسلمون بمثله فى الأندلس قبل ذلك ، وعرفت هذه المعركة الحمراء فى التاريخ الاسلامى بمعركة « بلاط الشهداء » نظرا لكثرة من سقط فى ميدانها الرهيب من شهداء الجهاد الاسلامى ٠

وقد اجتمعت تحت ستار الليل فلول الجيش المنهزم ، وقرروا الانسحاب النهائى متسربلين بالظلام ، بعد أن عمت النكبة ، وتفاقم الخطب ، وتقهقر الجيش سريعا فى هدوء صامت ، تاركا وراءه غنائمه وذخائره ، وعددا من الجرحى لا سبيل الى انقاذه فى ساعات معدودات ، وحين أشرقت الشمس نظر « شارل مارتل » فلم يجد اللواء الاسلامى يتقدم ٠٠ فظنها مكيدة بيتت بليل ، وتلبث قليلا لا يدرى ما يصنع ، ثم طال به الوقت فاندفع مع جيشه بحذر الى المعسكر الاسلامى ، فلم يجد غير الجرحى المحتضرين وذخيرة ضخمة من الأسلاب التى سببت وقوع الكارثة ٠٠ فأجهز على البقية الباقية من الأرماق المتخاذلة ونهب ما وقعت

عليه يده من عتاد ، ومال ، وما زالت شكيمة الجيش الاسلامى – برغم انكساره الحزين – ترهبه وتخيفه ، فخاف أن يتعقب الفلول المتقهقرة ، ورجع الى قواعده مكتفيا بما أحرزه فى هذه المعركة من نصر ساحق .. وجعل يدق الطبول فى كل مكان مرددا أهازيج النصر وأناشيد النجاح .

أجل لقد فرحت النصرانية بهذه النتيجة فرحا عصف بالحلوم ، وما زال أكثر كتاب الغرب الى اليوم يتكلمون عن « معركة بلاط الشهداء » مزغردين مستبشرين ، وقد ضفروا أكاليل الثناء ، ونظموا قصائد المديح لشارل مارتل ، وعدوه بطل النصرانية الذى وقف امتداد الاسلام ، وثبت أركان المسيحية بعد أن زعزعتها العواصف ، وتعرضت لأحلك الأزمات ، وبالغ أكثر مؤرخيهم فى وصف هزيمة العرب ، فذكروا رقما خياليا لضحايا الاسلام لا يستند الى برهان ، بل جعلوا معركة البلاط معركة استئصال وفناء ، وهذا وهم « كاذب » وتضليل بعيد ، فلو لم تكن للمسلمين قوة مرهوبة بعد الهزيمة لتتبع شارل مارتل فلولهم المرتدة بجيشه المنتصر ذى الروح العالية والزهو العريض ، ولكنه جبن عن ذلك مقدرا ما يعترضه من الصعاب ، وما كان للقائد الطموح أن يحجم عن كسب جديد يزيد به مجده التاريخى وصيته البعيد ، ويكفى دليلا على تماسك العرب بعد الهزيمة أنهم وقفوا فى وجه القائد المنتصر حينما حاصر « أربونة » فامتنعت عليه امتناعا أيأسه وحطم خططه ، بعد أن كان يحلم بابادة المسلمين واستئصالهم من الأندلس جميعها ، ومن ثم فر راجعا الى قواعده ، مكتفيا بسابق انتصاره وأحاديث الفوز والغلبة تفعمه بأريج عاطر ، وترسل فى سمعه أعذب النغمات .

لقد استشهد عبد الرحمن الغافقى بعد أن أبلى أحسن البلاء ، وبذل أقصى ما يبذله قائد باسل فى الذود عن حياضه ولكن مأساة « أحــد » تكررت فى سهول فرنسا مرة ثانية ، اذ تكالب المسلمون على الغنائم وتركوا الجهاد فآسفوا البطل الغافقى فى الغرب كما سبق أن آسفوا الرسول الهاشمى يوم أحد فى الشرق وكأن التاريخ يعيد نفسه من جديد ليبرز للمسلمين شتى العبر وأبلغ العظات ، ولكن أين من يعقل ويتدبر ؟!

على أن هذا التاريخ نفسه لم يطفىء بريقا من مجد البطل الشهيد ، فقد أجمع المؤرخون على تقديره واكباره ، وسجلوا فدائيته العجيبة بسطور من ضياء .. فقد قاتل قتال المستميت ، وتقدم الى الموت وهو لا يشك لحظة فى استشهاده .

وماذا يصنع بجند سحرهم بريق المال فدارت عليهم وعليه الدائرة دون أن تجديه تضحية واستبسال .

قد يقال : ان البطل الشهيد لم يملك السيطرة على جنده حين تحرج به الموقف ، وهرع الطامعون الى الأسلاب ، ولكن هذه انتفاضة فجائية تقع أمثالها بغتة دون أن تدخل فى حساب القادة ، ولايمكن أن تكون محلا للمؤاخذة اذ أغفلها زعيم تعود النصر ، وقائد ألف الطاعة والامتثال ، على أن الغافقى بالذات قد فطن الى خطر الأسلاب وحذر منها دون أن يشدد فى أمرها رغبة فى اجتماع الكلمة واتحاد الأهواء ، كما ذكر ذلك الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » وهناك نقد آخر لا يخرج عما ذكره الأستاذ محمد لبيب البتانونى فى كتابه « رحلة الى الأندلس » حيث قال ص ٦٠ :

« كان يجب على الغافقى بعد دخوله بلاد فرنسا أن يجعل حدا لسيل هجومه قبل أن يقف الضعف الطبيعى لهذا السيل عند الحد الذى انقلب به الفتح خذلانا والنصر هزيمة » .

وهذا نقد يخطه الكاتب غافلا عن الحمية الدينية التى كانت تهيمن على مشاعر العرب ، وتجعل انتشار الاسلام فريضة تستحب فيها الشهادة ان لم تجب ، وقد ألهبت الانتصارات المتوالية نفوس الغزاة فوثقوا من النصر وثوقا طرد من أذهانهم كل شبح للهزيمة ، على أنهم لم يؤتوا من ناحية القوة فيكون الضعف الطبيعى سببا للنكبة كما ذكر الأستاذ ، بل ان كارثة الغنائم وحدها هى التى أبعدت النصر القريب ، وأخلفت ظنون القائد فى شجاعة جنوده ، وقد دعا الى التخلى عنها دعوات صارخة حين وجد التناحر عليها يفتح باب الكارثة ، واذ ضاق به الأمر جاد بنفسه رخيصة هينة فى جنب الله فارتفع الى مقام البررة من الشهداء ..

وقد كان فوت الموت سهلا فرده
اليه الحفاظ المر والخلق الوعر



الإفشين
بطل باسل مضطهد

الافشين بطل باسل مضطهد

فى التاريخ الاسلامى مئات من الأبرياء الأفذاذ قاموا بمجهود ضخم فى مجتمعهم المعاصر ، ثم عصفت بهم الفتن فقوبلوا بغير ما يستحقون ، وسجل المؤرخون وقائعهم كما شاعت على ألسنة خصومهم ، ولو أنهم تأملوا الحوادث كما يمليها المنطق العادل لأنصفوا البرىء وأعرضوا عن الأراجيف !!

ولكن الحظ يلعب دوره فى كتابة التاريخ ، فترى لهذا القائد ماليس لسواه من التحليل والتعليل ، وقد يكونان فى كفة واحدة .

غير أن القدر شاء لهذا القائد ما لم يشأه لذاك !!

ومن هؤلاء القواد البسلاء « حيدر بن كاوس » الملقب بالافشين » فقد ضمه المعتصم الى جنده حين شاهد بطولته القاهرة ، وصحبه فى حروبه المتلاحقة ، فأبدى تضحية خارقة ، وبسالة عجيبة ، وكانت مصر العزيزة أول مضمار حربى تلألأ فيه صيته البعيد ، فقد أرسله المعتصم اليها غب فتن دامية ونزاع طائل بين عرب القيسية واليمانية ، فاظهر مقدرة وكفاية ، اذ أطفأ الثورة وأعاد الأمن والهدوء ، وكر راجعا الى المعتصم يحمل اليه أنباء الطمأنينة والاستقرار .

عظم الافشين فى عين خليفته ، فأخذ يرمى به الى المهالك فى حروب طاحنة ، وفتن مشتعلة ، وقد أسدى الى الاسلام يدا خالدة حين قضى على الحزبية قضاء مبيدا ، وانتصر فى معركة تتصارع فيها العقائد والشهوات، ويتجاذب فى ميدانها العقل والهوى تجاذبا كان له أبعد الأثر فى حياة الانسانية وأنضر الذكريات فى صفحات الاسلام . لقد ظهر فى عهد المأمون طائفة من المجوس يدينون بالتناسخ ويستبيحون المحرمات فيتزوجون ذوات المحارم ، ويندفعون فى ميدان اللذة اندفاعا يحطم العمران ، ويقومون باستمالة الغرائز بحيث لا يمنع أحد مما يشتهى بحال ! ..

وقد ادعى زعيمهم « بابك الخرمى » أنه اله يملك الأمر والنهى ، فآمن به القوم ووعدهم بملك الأرض ، وقتال الجبابرة ، وما لبث أن تجمع حوله الأوشاب من كل مذهب فاستشرى أمره وعظم وصار ذا خطر عظيم وبأس شديد .. وقد انزعج المأمون لثورة بابك أكبر انزعاج ووجه الحملات الضخمة لابادته فما رجعت بطائل ، وتساقط قواده العظام فى الميدان قائدا بعد قائد ، فحزن الخليفة حزنا شديدا ، ووافته منيته وهو يفكر فى أمر هؤلاء الفوضويين ، فاستدعى ولى عهده المعتصم وكتب له يقول فى وصيته « وعليك بالخرمية فاغزهم ذا بأس وصرامة ، وأكنفه بالأموال والسلاح والجنود والفرسان ، فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل لذلك عملا خالصا راجيا ثواب الله عليه ..

وحين ذاع نعى المأمون فرح الخرمية فرحا شديدا واستفحل أمرهم استفحالا يؤذن بالشر ، فدخل بينهم طوفان من أذربيجان وهمذان وأصبهان وغيرها ، وبدأ « بابك » يفرض ألوهيته على الأرض ويبذر تعاليمه المبيدة فى الناس ، والأفواج خلف الأفواج ، تترامى على قدميه ، فاهتم لأمره المعتصم واستعرض أبطاله ورجاله فاحصا باحثا حتى استقر رأيه على الافشين ، فهو فتى الهيجاء ، وبطل الكفاح فسيره على رأس جيش ضخم مزود بالعتاد والرجال ، وانطلق القائد يضع الخطط ويرسم المواقع والحصون ، ويبث العيون والأرصاد ، ويخترق الصفوف فى الميدان ويدير المعارك الرهيبة فى ظلال السيوف المتشاجرة ، والرماح المتعانقة حتى تم له النصر فى موقعة « أرشق » وفر الاله المزعوم هاربا مدحورا ، وتبعته جيوش الخلافة حتى نزل متنكرا بأرمينية ، فعرفه أحد البطارقة وكاتب الافشين بشأنه فحاصره حصارا عاتيا وهزم فلوله المتناثرة هزيمة ساحقة ، وقاده مخفورا الى المعتصم ، فاكتسب بذلك فخر الأبد . وتبوأ سنام البطولة الفذة اذ وقى الاسلام من وحوش الغرائز ، وذئاب الاباحية ، وأعاد اليه حصونه المنيعة فى بلاد ما وراء النهر بعد أن داهمتها الأعاصير ، وقد استقبلت بغداد وسامراء .. قائد الخلافة استقبالا حافلا خرج فيه الخليفة فى رهط من وزراء الدولة وأعيانها وأمرائها ، وأكب الشعراء على القائد المغوار يصوغون له القلائد النفيسة ، وعلا الهتاف فى كل مكان بحياة حيدر ، واستطار المعتصم به اعجابا ، فأخذ يبعث اليه فى صبيحة كل يوم حلة شرف غالية تصحبها التحف الغاليات الرائعات !!

واقرأ شعر أبى تمام فى الافشين فستجد الصدى العميق للفرحة

الهائلة التى غمرت الاسلام بالقضاء على الخرمية ، وستعلم أية منزلة عالية تسنمها القائد الباسل فأصبح سند الخلافة وركنها الحصين ٠

على أنه لم يخلد الى الدعة قليلا بعد كفاحه المرير ، فقد سار لمصاولة الروم والانتقام لغدرهم الشائن بالخلافة والاسلام ، وذلك أن بابك الخرمى كان قد كتب الى قيصر الروم ، فى أثناء حروبه مع الافشين ، يحرضه على الوقيعة بالثغور الاسلامية فى وقت توجه فيه الخلافة قوتها اليه ٠ ولا تستطيع أن تقف فى وجه الروم ، وكأن بابك قد أراد أن يفرق الكتائب الاسلامية فى جبهتين قويتين فلا تستطيع أن تكسب النصر الحاسم فى رأيه ، وكان ما أراده الثائر الخطير فقد اهتبل القيصر الفرصة السانحة وانقض على (زبطرة) الاسلامية بجيش يزيد عن مائة ألف مقاتل ، فقتل مئات النفوس ، ثم تقدم الى « تلطنة » وسواها من الثغور الاسلامية فأمعن فى العرب قتلا وتنكيلا ولم يبق بد من الانتقام !! ٠

فتحركت جيوش الخلافة الى القيصر الغادر ! ، وتقدم القادة العظام على رءوس الكتائب الزاحفة من كل مكان ، وكان الافشين أول من أوقع بالروم فهزم جيش القيصر ، وتابع الزحف مستعينا بالفرق الأخرى من الجيش حتى أسقط « عمورية » وهى يومئذ أمنع بلاد الروم ، وأقوى حصونهم بأسا ومنعة ، وانطلق الهتاف يدوى بحياة « حيدر » وقد ضم الى مجده التالد مجدا طريفا ، وسارت ببطولته الركبان ، وتغنى الشعر بفتوته الخالدة ، فنظم الحسين بن الضحاك الباهلى رقائقه الفاتنة فى مدح الافشين ، وكسب اكبار العامة والخاصة والبطولة فى كل زمان مهوى الأفئدة وأمنية النفوس الكبيرة !

أجل لقد رجع « حيدر » من غزاة الروم مظفرا منصورا ، فالتهبت قلوب الرؤساء فى الدولة حقدا وحسدا ، وتجمعت عقارب المكيدة من كل صوب ، فها هو ذا القائد ينعم بالاعجاب والمجد ، ويقول عنه الناس انه سيف الدولة وبطل الخلافة ٠

ولئن دام أمره لسطعت شمسه وهاجة وضيئة تستر ما حولها من بدور ونجوم !! لا بد من عمل حاسم تكسف به هذه الشمس الساطعة دون انتظار فتبرد أكباد يئز بها الحقد ، وتصح قلوب يسقمها الغل ، وأنى لذلك ، والعامة فى كل مكان ينسجون عن البطل الكمى أساطير البطولة ، وينشرون حديثه فى الآفاق فرحين مهللين ؟ ٠

فمن أية ناحية يقتحمون على النسر أوجه الشاهق ، وقد حلق

بالفضاء وأطلق جناحيه فى الرياح !! ، لن يسقطه من عليائه غير الاتهام الجرىء بالكفر الصريح وفساد العقيدة وسوء الطوية ، فذلك كله كفيل بتحطيمه ، وما زال الاتهام الدينى فى كل زمان متنفسا لما يغلى فى النفوس من الأحقاد ، وقد بذلت الجهود المضنية فى نسج التهمة الفاجرة، وأضيفت اليها حوادث شخصية لفقها الكيد وصاغها البهتان ، ثم ألفت لجنة المحاكمة من أناس يضطغنون على الافشين أسود الاضطغان ، وفى مقدمتهم محمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن أبى دؤاد ، واسحق ابن ابراهيم ، ووقف الافشين يدافع عن نفسه فى قضية خاسرة أعد حكمها قبل حضوره ، وهيىء شهودها الفجرة ، فساقوا عدة اتهامات زائفة ، وانطلق ابن عبد الملك يسأل وحيدر يجيب ٠٠ لقد اتهم الافشين أولا بأنه حرض « مازيار بن قارن » على قتال آل طاهر ، والخروج على المعتصم وجاء « مازيار » فاعترف بذلك ، ولكن الافشين أنكر التهمة وطلب الكتب التى حرضه بها ان صح زعمه ، فلم يقدم « مازيار » شيئا ، وتلجلج فى موقفه ٠٠ وطبيعى أن يكون للتحريض اذا وجد رسائل ومكاتبات ، فما تقدم من الناس شاهد واحد أو عثر على رسالة مريبة !! وبرغم هذا الافك السافر فقد ألصقت التهمة بالمذنب البرىء !!

واتهم الافشين ثانيا بأنه ضرب امام مسجد ومؤذنه بالسوط لأنهما بنيا مسجد « بأشروسنه » وقال المتهم ان بينه وبين ملوك الصـــفد عهدا على أن يترك كل قوم على دينهم ، فوثب هذان الرجلان على بيت للأصنام واتخذاه مسجدا بدون أمره فضربا بالسوط حسما للنزاع ووفاء بالعهد ، وهذا تأديب له تبريره المعقول ، ولكن القضاة قد استنتجوا منه الكفر الصريح ! ٠

واتهم الرجل ثالثا بأنه يأكل لحم المخنوقة ويحل أكلها ويشـــهد بذلك مجوسى أجير ٠٠ فينفى المتهم ذلك عن نفسه ويسأل : كيف رآه الشاهد وليس بجاره ولم يؤاكله ٠٠ ولكنه مصدق لدى القضاة برغم ذلك ، فيسأل الافشين: هل هذا المجوسى ثقه فى دينه لديكم !؟ فيكون الجواب بالنفى ! ومع الاعتراف بعدم الثقة فشـــهادته مقبولة ولا ترد بحال ٠

واتهم الافشين رابعا بأن أهل بلاده يخاطبونه خطاب الآلهة فقال مدافعا عن نفسه : لقد كانت هذه عادة القوم معه ومع آبائه وأجداده ـ وكانوا من الملوك ـ قبل أن يدخل فى الاسلام فلم يرد أن يضع نفسه عن قدرها الأول فتفسد طاعته لدى أتباعه ، وواضح أن حيدر كان يصلى

ويصوم وينطق بالشهادتين فشبهة تافهة كتلك لا توجب تكفيرا يقابل بالصلب والتحريق ! .

واتهم خامسا بانه يحتفظ بكتاب فارسى زين بالذهب والجوهر والديباج وبه بعض الكفر الصريح ، فأجاب بانه ورثه عن آبائه ، وكان يقرأ ما به من الأدب دون غيره ومثله مثل كليلة ودمنة سواء بسواء ولن يكون الاحتفاظ به خروجا عن الاسلام فى شئ ، مهما يكن من أمر فقد عجز القضاة أن يدينوا صاحبهم بجريرة صادقة ، وبالغوا فى التحامل والافتيات حين يسأله ابن أبى دؤاد عن الختان ؟ وهل أجرى له بعد اسلامه .. ؟ وكأنه بذلك اكتشف ثغرة هائلة ينفذ منها الى الادانة الصريحة ؟ وليس الختان بواجب عين فيكون مجالا للتشهير الا أن يكون الحكم المغرض متحيزا أوضح تحيز !!

لقد كان العدل الصريح يفرض على المعتصم أن يصم آذانه عما تدبره حاشية السوء من خاتمة رهيبة لبطل فذ ناضل عن الخلافة فى أوقاتها العصيبة ، ولكنه وهو الخليفة الأمى قد خاف على مملكته الواسعة لوشاية كاذبة نهض بها حقود أثيم ، فأغلق أذنيه عن هواجس ضميره ، متأثرا بما سمع ، وكانت الخسارة فادحة فقد دارت الدائرة على البطل الشهيد ..

ان من بدائه الأمور ألا يكون الخصم حكما فاذا أرجف المرجفون بانسان ما وألزمت الحيطة ذويها أن يقوموا بمناقشة ما يذاع فى محاكمة علنية واضحة كان من الأكيد الألزم أن يختار رئيس المحكمة من المحايدين العقلاء الذين لا يضمرون للمتهم حفيظة تأكل الأكباد ، وتحرق الضلوع، وحينئذ يستقيم ميزان العدالة فى يد أمينة ذات حيدة وانصاف ، وقد كان أعداء الافشين فى طليعة محاكميه فاتبعوا الهوى الطائش فيما أصدروه وقدموا للأجيال عبرة أليمة يجب أن يتعظ بها الناس !

ومن العجيب أن حوادث التاريخ تكر ، وعظات الدهر تتكاثر ، دون أن تترك صداها البالغ فى النفوس ، فكم من مفاجع دونتها الأيام وتلاها الناس فما منعت شرا يتجدد ، أو أطفأت حريقا يلتهب مما يحتم أن تنهض التربية الاسلامية على أسس عميقة من الايمان بالمثل والهيام بالمبادىء ، فالتاريخ وحده لا يقدم لقرائه العظة البالغة الا اذا كان لديهم ضوابط رشيدة من الخلق القوى والدين القويم ، وبذلك تتكاتف جميع العناصر على استئصال الشرور ، واستثمار الفضائل أخصب استثمار .

ولقد تبين للافشين ما يتربصه من أهوال ، فأرسل للخليفة كتابا تنزف سطوره دما وتتأجج الزفرات فى حروفه وفواصله ، فهو يقول بعد كلام طويل « انما مثلى ومثلك يا أمير المؤمنين كرجل ربى عجلا حتى أسمنه وكبر ، وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلوا لحمه فعرضوا بذبحه فلم يجبهم ، فاتفقوا جميعا على أن يقولوا له : لم تربى هذا الأسد فانه اذا كبر رجع الى جنسه ؟ فقال لهم : انما هو عجل ، فقالوا هذا أسد ، فسل من شئت ؟ وتقدموا الى جميع من يعرفون وقالوا لهم اذا سألكم عن العجل فقولوا! انه أسد ، فكلما سأل انسانا قال هو سبع ... فأمر بالعجل فذبح ، وأنا ذلك العجل يا أمير المؤمنين فكيف أقدر أن أكون أسدا ؟ فالله الله فى دمى » .

ولعمرى لقد صور البطل البليغ موقف الخليفة منه أدق تصوير فقد امتنع المعتصم أولا عن ايذائه ، فاختلق جلساؤه التهم القاسية فرفضها رفضا أكيدا ، فألحوا عليه حتى تشكك ، وبدأ يسأل ويبحث ، على حين يجيب السائلون بما يتلقون من افك صريح حتى تأكد الزعم وأصبح العجل أسدا فسيق الى سجنه الرهيب ، وقتل صبرا ثم صلب بمرأى من العيون .. وانطلق المرجفون يعلنون كفره بمروقه فى كل مجتمع حتى أفلحوا فى خداع العامة ، وانبرى أبو تمام مادحه ومهنئه قبل ذلك يهجوه ويثلبه ويصمه بالكفر الصريح ، ولا أدرى كيف انساق الشاعر مع دهماء العامة ؟ فيغير رأيه فجاة تصديقا لدسيسة كاذبة أو أنه عرف الحقيقة الأليمة واندفع فى موكب النفاق يتملق الحاقدين ! انها لمحنة قاسية تسجل بالألم واللوعة لشهيد مظلوم ظلت تتبعه الأراجيف متناقلة فى صحف التاريخ ، وتجد من حملة الأقلام من تسطرها كقضية لا يأتيها الباطل ، وها نحن أولاء نوجه الأنظار الى دحضها بعد زمن بعيد !! وكم فى التاريخ من حقائق تعتمد على الأساطير ..



محمود الغزنوى

الفاتح الإسلامى الأكبر

محمود الغزنوى الفاتح الاسلامى الأكبر

كلمـــا قرأت تاريخ البطل الفذ محمود الغزنوى عجبت : كيف لا يجرى اسمه على كل لسان يدين بالاسلام ، وكيف لا تفرد الكتب الخاصة بتحليل خوارقه وتفسير نوادره ، بل كيف تمضى كتب المطالعة المتنوعة فى المدارس والمعاهد دون أن يفرد له باب فى كل كتاب فيعلم الناشئة فى شتى بلاد الحنيفة من هو ذلك البطل المعجز الذى أهـــدى الى الاسلام مائة مليون نسمة لا يزال أحفادهم اليوم يملئون الباكستان وكشمير وبعض المدن فى الهندستان .. ان ملكا عظيما كهرون الرشيد يجرى ذكره على كل لسان لا يمكن أن يوازى شيئا اذا قيس بمحمود .. صحيح ان الرشيد خليفة ، وان محمودا سلطان يستمد شرعيته من القادر بالله أحد الحفدة من نسل هرون .. ولكن خلفاء بنى العباس جميعا من لدن السفاح الى المســـتعصم لا يضمون فى سلسلتهم الممتدة بطلا من طراز محمود ، أما آن لنا بعد فى تآليفنا الحاشدة أن نوجه اهتمامنا الى القمم الرواسخ دون أن نعمد الى الترديد والتكرار ! ، أم أننا نلتمس أيسر السبل فى التأليف ؟

لقـــد كان الزمن الذى تألق فى ســمائه كوكب محمود الغزنوى لا يسمح بظهور مثله بحال ، فليست هناك خلافة راشدة تفسح ميدان البطولة المخلصة لأمثال خالد ، وسعد ، وعمرو ، وأبى عبيدة ، والمثنى ، وليس هناك خليفة أموى راسخ السلطان ، مرهوب الكلمة ، واسع الملك تحتشد حوله الكفايات الممتازة من أمثال قتيبة بن مســــــلم ، ومحمد ابن القاسم ، وموسى بن نصير ! .

أما الدولة العباسية لعهد محمود فقد تساقطت جنباتها ، وتداعت أسسها ففى كل مملكة أمير يحكم ، أو خليفة ينـــاوىء أو وال يدل ويتيه حتى بغداد نفســـها تقع فريســـة لكل طامع من الوزراء الأباعد يهيىء أتباعه ، ويحشد جنوده ، ثم يصل الى مقر الخـــلافة ليكون أمير المؤمنين لعبة فى يده ، اذ يصدر عن أمره ، ويسير فى تياره ، فاذا تمكن

خصومه من طرده ، وتملكوا الأمر من بعـــده ، كان أمير المؤمنين رهن مشيئتهم كما يبتغون ! ، هذه الحال المؤسفة من تفكك الخلافة الاسلامية ، وقيام الدويلات المستقلة فى العواصم المختلفة ، وتشاحن المغرضين على الرياسة والسلطان ـ أقول هذه الحال المؤسفة لم تحل دون ظهـــور رجل فذ كمحمود الغزنوى يجمع الكلمة ، ويحشـــد الجند ثم يغزو بأتبـــاعه وقيادته بلاد الوثنية ليعلو الآذان الاسلامى فى ربوع متنـــائية تقدس الأصنام ، وتعبد التماثيل من دون الله !! والغريب أن هذا البطل الفذ كان بغيضا الى بعض شعراء عصره فارسيين وعربا ،فلم يرزق شاعرا ملهما يسجل بطولاته فى ملاحم رائعة كما رزق سيف الدولة أبا الطيب مثلا ، على بعد ما بين البطلين من فروق ، بل لقد صدم بشاعرين كبيرين أخذا ينتقصانه ويلتمسان العناكب الواهية للتجنى عليه ، وهما أبو العـــلاء المعرى العربى ، وأبو القاسم الفردوسى الفارسى !! ، وأبو العلاء يسير مع طبعه الناقم الساخط حين يهاجم بطلا تتساقط تحت ضربات سيفه أشلاء الضحايا من المتصارعين فى كل مكان ، اذ أن الشاعر الذى يرحم الحيوان الضعيف اذ يستفظع ذبحه واراقة دمه ، لا بد أنه يرتاع لما يسمع عن معارك دامية تفور بالدم وتطفح بالجماجم والرقاب ! هـــذا الى أنه ملك ، وللملوك فى منطق أبى العلاء غطرسة واستعلاء لا يرضيان احساسه المرهف ، وهم فى أكثر أحوالهم ظلمـــة جائرون ، فلابد أن يهاجمهم الشاعر الفيلسوف ، ولا بد أن ينال شيئا من هجومه أعظم ملك رن اسمه فى عصره رنين الرعد فى الأفق ، مهما كان بطلا فذا ذا مثـــل وأهداف ، والا فهل كان يستحق محمود الغزنوى أن يقول فيه الحكيم الفيلسوف :

أسر ان كنت محمودا على خلـــق ... ولا أسر بأنى الملك محمـــــود
ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدهـــا ... وانما هـــو بعـــد الموت جلمود

أو يقول ...

محمودنا الله والمسعود خائفـــة ... فعد عن ذكر محمـــود ومسعود
ملكان لو أننى خيرت ملكهمـــا ... وعود صلب أشار العقل بالعود

وأبو العلاء وان كان يفضل عود الحديد على ملك محمود الغزنوى فانه لم يفحش فى حديثه عنه ، ولن يستطيع ، أما الذى أفحش وبالغ فى الافحاش حقا فهو أبو القاسم الفردوسى ، الذى قضى أكثر حيـــاته ينظم تاريخ الفرس فى الشاهنامة،ويعلل نفسه بأن الملك الغزنوى سيغرقه بالذهب طوفانا يرجع اليه ما فقد من ثروته الموروثة وضياعه البائدة ، ولكن منحة

محمود لم تقنع شاعر الفرس المعتز ففر من بلاطه مرسلا قوارعه اللاذعة فى هجاء البطل الكبير ‥ ونحن حين نحقق أمر الفردوسى فى أفق أوسع من رغباته الشخصية نرى أن محمودا مصيب فيما فعل ، لأن الفردوسى قد استجاب الى نصرة الأمير نوح بن منصور الساماني حين اندفع يبحث عن أساطير فارس المجوسية ليجعل منها تاريخـــا يلتهم تاريخ العرب والمسلمين ، وأخذ يبحث فى خزائن الموابذة والدهاقين من الصحف القديمة لتغدو آية فخار تنبيء عن المجد الغارب ، وحين تم ذلك جعل منه الفردوسى مادة حديثه فقضى ثلاثا وعشرين سنة ينظم الأساطير والخوارق ، ولكن الدولة السامانية كانت قد لفظت أنفاسها فى هـــذا المدى المتطاول ، وجاءت الدولة الغزنوية وملكها محمود لا يشجع هذه النعرات العصبية ، بل يرى فى صنيع الفردوسى هراء لا يرضى منزعه الدينى ، وبخاصة اذا كان الملك سنيا شديد الغيرة على مقدسات أهل السنة ، وقد شن حروبا طاحنة على القرامطة والملاحدة وعقد الأواصر المخلصة بالخلافة العباسية حتى منحه القادر بالله لقب يمين الدولة ، وزاد الملك فى وجهته فاضطهد المعتزلة والرافضة ! فاذا جاء اليه شاعر شعوبى يتحدث عن رســتم ، وسهراب ، والضحاك ، وذى القرنين وأساطير الجبـــال البحـار ، فلن يجد منه انشراحا لما فعل !! ، على أنه بذل المعقول من المال كيلا يضيع جهده هباء ، والفردوسى لا يقنع بما دون الاغراق والامتلاء ، فانصرف عنه هاجيا مثالبا ، والمسألة مسألة مبدأ قبل أن تكون مظنة بخل وامساك ‥

أذكر أن ايران احتفلت منــذ أعــوام بمرور ألف عام على وفاة الفردوسى ، وبعثت الممالك المختلفة من يمثلها فى مهرجان الشاعر الكبير بطهران !! وقد تورط بعض الخطباء فى نقد السلطان محمود الغزنوى ، إذ منع الشاعر ما يظنه بعض حقه حتى جاء دور الشاعر اللبنانى الأستاذ بشارة الخورى فهجا الغزنوى هجاء مقذعا حين قال :

يا للعقـــوق أيبنى مجــد أمته ويجعل الدهــر مولى من مواليها
أئن وفت أمــة يومــا لشاعرها رماه سافلها عن قوس واشيهــا

والأستاذ بشارة يجهل محمود الغزنوى دون نزاع ! ، فليس الملك من السفالة فى قليل أو كثير كما أنه يجهل ملابسات الشاهنامة وتقلبات الزمن بمبدئها ومنتهاها ، ولو علم ما تجنى هكذا فأقذع ‥ وبعد ! ، فكيف سطر هذا الملك العظيم تاريخ بطولته الحفيل ، ؟ لقــد تفتحت عينه فى الوجود فرأى أباه الأمير سبكتكين ذا قدر وبطش ، فهو قائد فارسى محنك واتته الظروف فحكم « غزنة » من قبل الســامانيين حكما قويا عادلا ، ثم

طمحت به همته الى الهند فغزا شمالها الغربى مرتين متواليتين ! ، وانتصر انتصارا مؤزرا شهده ابنه محمود ، اذ كان يصحب أباه فى غزواته دون أن يتعدى الرابعة عشرة من السـنوات ، والمدهش الرائع أنه فى عمره الباكر قد أظهر فروسية وحكمة ، بل وقف من والده موقف المعارض فى أمر هام ! فقد عرض الأمير « جيبال » راجالاهور جزية كبيرة ليفوز بصلح يحقن الدماء ومال الأب الى القبول مكتفيا بما أحرز من نجاح ، ولكن محمودا الصغير يقف فى وجهه رافضا أن تكون الجزية غاية القتال ، وقال لوالده فى اصرار : اننا نبحث عن مثوبة الجهاد فى سـبيل الله لا عن الفضـة والنضار !! فنزل أبوه على رأيه ٠٠ واستأنف القتال ، ونحن نسجل هذه الحادثة السريعة لنرد بها على من تابعوا ابن الأثير حين ذكر أن السلطان محمود قد ولى وجهه شطر الهند ليكفر عن حربه للمسلمين ٠٠ اذ أن فتح الهند كان فى دمه منذ طفولته وقبل أن تنشب الحرب بينه وبين أمراء الدول الصغيرة لعهده !! ، وقد كانت هذه الحرب حتما مقدورا لا محيد عنه ، لأن محمودا نظر لأول عهده بالسـلطان فرأى الصـغار من الأمراء يتصارعون فى غير طائل ، وقد تحرش به الأمير السامانى فى خراسان وهم بتشتيته ، فكان لا بد من نزاله ليأمن جانبه القريب ! كما أن آل بويه بالرى ومن على شاكلتهم من السلاجقة لا يرحبون بقيام ملك اسلامى كبير ، وسيكونون بتآمرهم المتواصل سدا فى طريقه ، فرأى لبعد نظره أن يضم ممالكهم الى سلطانه ليجد من الوحدة الشاملة ما يساعد على تحقيق مشروعه الخطير فى نشر الاسلام ، ولو لم يأمن جانب جيرانه من المتربصين بعد أن قضى عليهم بعزيمته الواثبة ما استطاع أن يترك بلاده الى أماكن نازحة تدعوه الى أن يغمر ظلامهـا الحالك بنور الهـداية والاسلام ! ٠ على أن شعوره الدينى هو الذى دفعه الى مهاداة الخليفة العبـاسى وحوز قبوله واعجابه ، فكان ذلك مدعاة اطمئنان نفسى كبير أمده برصيد ضخم من الثبات !! ، ومع ما عرف عن والده سبكتكين من الاعجاب بمحمود والمباهاة ببطولته فقد شاء أن يجعل الأمر من بعده لولده الصغير اسماعيل ، وهو انسان ضعيف متردد لا تصل به همته الى شىء من آمال أخيه الأكبر ، ولم أر فيما قرأت تعليلا لذلك ، ولكنى أعتقد أن الأب رأى طموح محمود واتساع آماله فخاف أن يقذف بجيشه الى الهند فى حماسة واتقاد دون أن يسلك مسلك الحيطة فى الصبر والاتئاد! وآثر أن يرجع بالملك لاسماعيل ليأمن بهدوئه عثار التوثب والانطلاق، ولم يكن محمود بالشاب القانع المستكين ، فسرعان ما انتزع الملك من أخيه !! وبدأ فوحد المملكة الاسلامية فى فارس ليقفز بعدها الى الهند فى عزيمة واصرار ٠٠

كانت الهند ترزح تحت حكم الاقطاع ·· فكل مدينة تخضع لراجا متأله ، يشبع رغبته الخاصة بطغيانه ، فاذا أنس من نفســـه بعض القوة اتجه الى من يجاوره فسطا عليه وضم امارته الى امارته ، ثم لا يلبث أن يجد أميرا أقوى منه يستعد لنزاله ، فتدور الحرب بين الطامعين وطحينها العامة من الرازحين المسيرين ممن يضطرون الى الولاء خيفة من الارهـــاب الأحمر ، والطغيان المتجبر ، فحين صمم محمود على محاربة هؤلاء لم يجد فى عددهم الهائل قوة متساندة تقف أمامه موقف المدافع الصبور ! فقد اصطدم فى غزوته الأولى (بجيبال) صاحب لاهور عدو أبيه وكان يغط فى نومه ظانا أن وفاة سبكتكين ستمنع تدفق المسلمين من جديد ، فأيقظه محمود على رأس عشرة آلاف مقاتل ، فأسرع بحشـــد جنوده واســـتعان بمجاوريه حتى اكتمل له اثنان وأربعون ألفا من المحاربين ، ودارت المعركة رهيبة حامية فأبادت الهنادكة ابادة مخزية ، ولم يقو الأمير الهندوكى على احتمال الكارثة فعرض نفسه على النار تكفيرا عن خذلانه كما تقضى بذلك تقاليد الهنود ·

واصل القائد البطل زحفه فاحدث الرعب المزلزل فى كيان الراجاوات من الحاكمين ، وتجمع أمراء أوجين وكواليار ، وكلنجر ، وقنوج ، ودهلى ، وأجمير ليقفوا بخيولهم وأفيالهم وجنودهم حشدا كثيفا أمام الغازى القاهر ، وزحفت الجيوش الهندية مجتمعة لتلقى المســـلمين فى اقليم البنجاب ! · وكان القتال هائلا مخيفا ففقد المسلمون من أبطالهم عددا كبيرا يبكى عليه، لأن جيش محمود لم يتجاوز ستة آلاف مقاتل ، ولكنه بمحض ايمانه وقوة عزيمته ثبت بالبقية من رجاله أمام جيوش لم يســـتطع التاريخ عدها على الوجه الدقيق الى الآن حتى أحرز الانتصار الساحق ، ووجد فى معابد الهنادكة من الغنائم الذهبية ما أربى عن الوصف الى حد أن جنوده تركوا صحاف الفضة اكتفاء بما عثروا عليه من الذهب ، فليس لديهم من الدواب ما يكفى لحمل هذه الكنوز ، وكان النصر فى معركة البنجاب ســـلاحا ذا حدين ، اذ أثار النشوة فى بلاد الاسلام فأقبل المتطوعون ينسلون من كل حدب الى جيوش محمود على حين أحدث الهلع والرعب فى أفراد الشعب الهندوكى وقادته فباتوا يتربصون يومهم القريب ·

وكانت الســـنوات تمر دون أن يخلو عام واحد من موقعة هائلة لمحمود الغزنوى يدمر بها أعداءه المحتشدين ، ففتح « الملتان » و « كواكير » وما زال يتنقل على شـــاطىء (هند مند) حتى استولى على بهيم نفر ، ونادرين · وبلغ كشمير فغنم بها خمسة أصنام من الذهب الخالص مرصعة

بأغلى الجواهر ، وحمل من السبى والسلاح ما أمد كفاحه بقوة جديدة واصل بها النجاح ٠

قال الاستاذ عبد الحميد العبادى فى كتابه (صورة وبحوث من التاريخ الاسلامى ص ٨٠) وقد غزا السلطان مالا يقل عن سبع عشرة غزوة . فكان ينصب من جبال افغانستان على سهل الهندستان فى جنوده الأتراك الأشداء بخيولهم الفارهة ، وأسلحتهم الموفورة ، ونظامهم الحربى البديع انصباب السيل الدافع فيعبر الأنهار الصعاب ، ويكسر الأصنام الهندية لا يبالى تعبا ولا نصبا ، ثم يكر راجعا الى خزنته ممتلىء اليدين من السبى الرائع ، والغنائم الهائلة ، مما حوته معابد الهند من كنوز الذهب والفضة ونفائس الأعلاق ، وقد انجلى هذا الغزو المتتابع عن امتلاك السلطان محمود اقليمى البنجاب وكشمير ، وسيطرته على مملكة « كجرات » الواقعة على المحيط الهندى ، فدخل الهنود فى دين الله أفواجا ، وترك لهم السلطان الفاتح من يعلمهم أصول الدين الاسلامى ويلقنهم مبادئه ، فرسخ الاسلام من ذلك الوقت فى بلاد الهند ، وأصبح ديانة قومية ثابتة الدعائم ، قوية الأساس ٠ كانت همة البطل أبعد من أن تحد ، فلم يكن يجلس ما بينه وبين نفسه يفكر فى العواقب ، ويفترض الأوهام ، ولكنه كان اذا هم ألقى بين عينيه عزمه ، واذا كنا ندهش لعزيمة خالد بن الوليد حين اخترق الصحراء يوم اليرموك بجنوده ليبلغ أعداءه من حيث لا يتوقعون ، فقد قام السلطان محمود بمثل ما قام به سلفه الخالد حين اخترق صحراء (الثار) وهى مفازة جرداء تعد أكبر صحراوات الهند ، وكان الوثنيون يظنونها حصنا طبيعيا لا يستسلم لعدو فاتح ! فهم يعتصمون بها آمنين ٠٠ ولكن العزيمة تدفع محمودا الى قيادة جنده ضاربا المثل بنفسه ، حين يتقدم الكتائب الغازية فى فلاة مترامية يشتعل بها القيظ ، وتتفجر مراميها الفاحلة عن مهالك ذات أهوال ، فلا ماء يروى ولا شجر يظل ولا ثمر يشبع !! ولكن الأمل فى نصرة الاسلام هو الذى أمده بالماء والثمر والشجر ، فهانت لديه الصعاب واستعذب بالآلام حتى بلغ مبتغاه ففاجأ الأعداء ٠

وقد كان معبد الهنادكة فى سومنات معقد ايمانهم ، وقبلة أنظارهم فهم يلتمسون من صنمه الناهض فى عيونهم مثقلا بأوقار الذهب واللؤلؤ والماس مقدرة على الجهاد ، ومعونة على الزاحفين ، وقد أذاعوا فيما بينهم أن غضب الههم الأصم فى معبد سومنات على اتباعه العصاة هو الذى أمد السلطان الغزنوى بالنصر انتقاما لحقه ، وثأرا من مروق أتباعه ، وما ظنك بمعبد مقدس ينهض على ست وخمسين سارية ترصع بصفائح الذهب ،

وقلائد الجوهر ، وتمتلىء ساحاته وأركانه بمئات من التماثيل المصنوعة من الفضة الخالصة والذهب الحر ٠٠ أما الصنم الأقدس فقد امتلأ جوفه بثروة ضخمة لا تدخل فى حساب عاد أو تبلغ ظن متوهم مما قذفته مئات السنين فى جوفه من النذور والقرابين ، وكان الهنادكة يعتقدون أن تناسخ الأرواح فى الأبدان يتم حول الصنم فى معبده ، وأن هدير البحر المنبسط من حوله صلاة يقوم بها الماء عبادة وطاعة ، أما الخدم من السدنة فيتجاوزون الألفين من البراهمة ، ومعهم خمسمائة من الراقصات المنشدات يرتلن حوله التسابيح ٠٠ وقد اجتمع جميع الأمراء الراجيوتين بكل ما يملكون من عتاد ورجال وخيول وأفيال ذيادا عن الهيكل العظيم ورأوا فى الاستشهاد بساحته منتهى الأمل فى الحياة ، فدارت معركة رهيبة بين جيوش الاسلام وجحافل الوثنية ثبتت فيها القلة الزاحفة ثباتا عد من الخوارق ، اذ كان محمود يقسم رجاله فرقا فرقا ويجعلهم يتناوبون الاماكن المختلفة كل يوم ، فأوقع فى نفوس أعدائه أنه مصطحب معه عددا أكثر من عددهم المترامى ، اذ يرون كل يوم من المسلمين جديدا لم يقعوا عليه من قبل ، وكانت مذبحة خطيرة سقط بها خمسون ألفا من الهنادكة ، وعبر المسلمون على أشلائهم المتزاحمة طريقهم الى الصنم بالمعبد ، وتوجه السلطان اليه بنفسه فتهالك عليه بالحديد حتى انفجر جوفه عن ثروات كانت تسيل فى كل اتجاه سيل الماء ثم حمله الملك الظافر ليضعه بين أحجار عتبات مسجده الفخم بغزنة ، فكان كل مصل يطؤه بقدمه خمس مرات !! ولعل الذين يتهمون السلطان بحب المال يعرفون أن الهنادكة قد عرضوا عليه قبل معركة سومنات أن يفتدوا الصنم بما يريد من مال مهما جل ، ولكنه صمم على الحرب ، لأن الهدف من الفتح الظافر هو تحطيم الصنم لا جمع الأموال، وقد صدقت فراسة محمود ، اذ أن الهنادكة المخدوعين فى الهيكل الذهبى قد خامرهم الشك فى ألوهيته حين رأوه يتساقط منفجرا ثم يجر على الارض فى امتهان ، فرابهم معتقدهم الواهم ، وأقبلوا على الاسلام يدرسون مبادئه حتى اعتنقوه عن بصر ويقين !! ٠

لقد انتهت غزوات البطل محمود بالنصر ، واذا كان قد رزق الحظوة السعيدة فى جهاده المؤمن فقد كانت أعماله الحربية لا تقف حائلا دون اصلاحاته الداخلية ، اذ أن بلاده تمتعت بكثير من مناحى التعمير والازدهار والرخاء ٠٠ وأصبح بلاطه مقصد العلماء والأدباء والشعراء ، وقد أسس فى غزنة جامعة كبيرة حشد لها الأساتذة المختارين من شتى البقاع ، وأجرى على طلابها الرواتب والجرايات ، وزينها بخزانة ثمينة تجمع أنفس

الكتب ، وأغزر المؤلفات ، وهو بذلك قد سبق نظام الملك السلجوقى فى انشاء المدارس ، لكى يبطل دعوى ريادته الأولى فى هذا المضمار .

وقد كان من بين من يمموا ساحاته من أبطال الفكر البيرونى العالم المشـهور ، والهمذانى ، والعتبى ، والبسـتى ، والثعالبى من أدباء اللغة العربية ، والعنصرى والعسجدى والأسدى من أدباء اللسان الفارسى ! وقد استدعى ابن سينا على شوق فلم يجب دعوته لصلات قديمة كانت بينه وبين السامانيين، رأى أن يفى لها فلا يتصل بمن قوض سلطانهم فى الحياة !! .

وكان عدله المنصف بين رعيته سببا وطيدا فى تعلق المسلمين به ، ومن خوارقه النادرة فى احقاق الحق أن بعض الناس شكا اليه ابن أخيه ، اذ ارتكب جريمة قتل ظالم مدلا بمكانته من عمه، فحقق محمود الأمر بنفسه واستمع الى الشهود فى غيظ وغضب ، فلما تيقن الامر دعا ابن أخيه وقاده الى أحد غرف القصر ثم أطفأ المصباح وذبحه ، وطلب جرعة ماء . ويقول الباحثون فى تعليل ذلك انه كان يحب ابن أخيه حبا جما وقد أطفأ المصباح حتى لا يرى وجهه فتأخذه به شفقة تشل يده عند القصـاص .. وهذه الحادثة وحدها تجسد لك جمال العدل فى أصدق معانيه .. وتغنى وحدها عن مئات الصفحات تدون شمائل هذا المتحرز المؤمن الحريص !!.

لقد هجم بعض الكاتبين من الهنادكة على السلطان فى تاريخ غزواته، وذلك طبيعى لدى من يتعصبون للقومية ، ولكن العادلين من هؤلاء أنصفوا البطل ، فذكروا ماله وما عليه ، ومن بينهم المؤرخ الهندى «براسـاد» اذ يقـول نقلا عن ترجمة الدكتور أحمد الساداتى بكتاب تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية صفحة ٩٧ .

« ان محمودا ليعد فى نظر المسلمين غازيا ومجاهدا كبيرا ، أخذ على نفسـه القضـاء على الشرك فى مهاد الوثنية ، وهو فى الوقت نفسه عند الهنادكة طاغية مخرب ، حطم مقدسـاتهم ودمر معابدهم ، وآذى شعورهم الدينى فى كثير ، ولكن المؤرخ المنصف حين لا يسقط من حسابه تقاليد العصر الذى كان يعيش فيه واعتباراته لا يسعه الا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزا من خيرة القادة والزعماء ، وحاكما حازما ، وجنديا عبقريا من الطراز الاول اتصف بالعدالة ورعاية الفنون والعلوم ، فهو جدير أن يعد من بين أعاظم الملوك طرا » .

كما نقل الدكتور أحمد محمود الساداتى فى حاشيته ص ٩٨ رأى المؤرخ الاول «لين بول» فى محمود ، اذ يقول : ان ذلك السلطان الذى أقام

تلك المنشآت الفخمة بغزنة وأقام دور العلم ، ودعا العلماء حتى كان يجود عليهم بما لا يقل عما يعادل مائتى ألف من الجنيهات كل عام ، فضلا عما كان يجرى على طلبة العلم من الأرزاق لا يمكن أن يسلك فى زمرة البرابرة الطغاة ..

هذا هو محمـــود الغزنوى ، وهذه بعض أياديه على الدين والادب والعلم أفلا يصح بعد ذلك أن تفرد له عشرات الكتب ، وأن نمنحه بعض ما نمنح نابليون والاسكندر وهانيبال ؟!



عماد الدين زنكي

فارس الحروب الصليبية

عماد الدين زنكى ، فارس الحروب الصليبية

فى اليوم السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ٤٨٨ هـ (٢٨ من نوفمبر سنة ١٠٩٥م) وقف رجل مديد القامة أجش الصوت تتدلى لحيته على صدره وجمع القساوسة والأمراء والفرسان ليخطبهم خطبة طويلة يتحدث فيهـــا عن الكفرة المسلمين وما فعلوا بقبر المسيح من اهانة وازدراء فى زعمه ، وانطلق يستجيش الهمم ، وبستنهض العزائم ، ويبسط للأمراء أملا باسما فى السيطرة والمجد ، ويلوح بالرحمة والغفران للجيوش الزاحفة من جموع الفرنجة ، ويظهر أسفه البالغ على الكرامة الذبيحة ، والدين الجريح ، ذلكم هو البابا «أوربان الثانى» الذى اندفع يقول ..

ويجب عليكم أن تتعذبوا كثيرا لأجل المسيح ، وأن تتحملوا المشقة والفقر ، وتكابدوا الذل والاضطهاد ، وتقاسوا المرض والجـوع والظمأ ، وجميع الشرور فى الدينا كما قال السيد المسيح لتلاميذه « سأريكم كيف ينبغى أن تتألموا من أجل اسمى ، فانكم ستأخذون ميراثا عظيما ثم اتجه البابا الى الحاضرين وصرخ فيهم قائلا ..

عبدوا طريق الرب ، واجعلوا سبله مستقيمة ..

وهنا دوى هتاف صـــارخ زلزل الأرجاء .. هكذا أراد الله هكذا أراد الله ..

وقد انتشر القساوسة فى كل مكان يرددون دعـــوة البابا الكبير فيثيرون الحنق والسخط على المسلمين ..

ويدفعون الكتائب الزاحفـــة كالموج الى الشرق العربى رغبـــة فى استئصال عقيدته ، وابادة دينه وأخذوا يخاطبون الناس بما يزين لهم الاندفاع والوثوب ، فهم يطمعون الأمراء فى السيطرة الواسعة ، والفتح الخالد ، والملك العظيم ، كما يلوحون بالغفران والرحمة لهذا الطوفان المائج من الفرنجة الاوروبيين ، ويقدمون الجنة ضمانا أكيدا لمن يغبر قدمه فى

تراب الشرق ذائدا عن قبر المسيح ، ومدافعا عن النصرانية فى بلاد يجلجل فيها الأذن ، وتخرس النواقيس ... وقد بذل بطرس الناسك جهدا جبارا فى الاستثارة والاستفزاز، فكان يذرع البلاد عرضا وطولا ويلج الى القصور الشامخة ليقنع الامراء والفرسان ، كما يدرج الى الاكواخ الصغيرة ليلهب حمية الكهل الراقد ، والصبى الغافل ، والأم الجاهلة ، ويتقدم الشباب الى الخلاء الواسع مبشرا بالجنة ورضوان المسيح ان قدر لهؤلاء أن يستأصلوا شأفه الاسلام وقد أفلح فى فيادة جيش جبار بعث به الى الشرق ليكون طليعة الطوفان المزبد الذى سيجتاح بيت المقدس فى وقت قريب ..

لقد كانت الحروب الصليبية تتخذ من العاطفة الدينية مثارا للتحرش والاستفزاز ، وقد عمد دعاتها الى التأثير الوجدانى دون ان يدعوا نطاقا للتعقل والتفكير ، فهم تارة يرسمون صورة لقبر المسيح، وعليه فارس مسلم يدوس القبر بجواده ، ويسمح لهذا الجواد بأن يبول عليه ، وتارة أخرى يصورون المسيح ـ عليه السلام ـ وأمامه عربى يضربه بالسوط ، وقد سالت دماؤه الغزيرة من جرح دافق ، كما اتخذوا من الأحلام مجالا واسعا للدعاية والتأييد ، فهذا ناسك يرى المسيح يبشره بالنصر فى منامه . وذاك آخر يتسلم سيفا من أحد الحواريين ليمحق به الاعداء ، ثم هذه هالات قدسية من النور تتساقط من السماء فى حومة القتال ، وتتقدم الصفوف الى الاعداء فيفر الاتراك المسلمون مذعورين ، وينتصر الصليبيون بتأييد السماء ..

لقد زحف الجيش الزاخر الى الشرق فى وقت حرج كريه فامارات الشام تخضع للنظام الاقطاعى الذى ينفرد فيه كل حاكم بولاية صغيرة ، لا تملك جيشا أو تدخر قوة ، وأمراء الدول الصغيرة فى تنابذ يحول دون التفاهم والاتحاد ، والخلافة العباسية ببغداد ضعيفة لا تدفع عن نفسها الشر ، وقد استصرخت ولاذ بها اللائذون فقطعوا شعورهم وبكوا دون طائل ، والدولة الفاطمية بمصر لائذة بالصمت ، لم تجهز كتائبها للدفاع برغم ما تملك من جنود وسلاح !!.

موقف ضائق كريه مهد للصليبيين طريق النصر ، فسقطت فى أيديهم مدينة « الرها » (١) وأسسوا بها أول امارة لاتينية ثم زحف الفرنج الى « انطاكية » وحاصروها تسعة أشهر كاملة فسقطت بعد قتال مرير ، ذهب فيه من المسلمين عشرة آلاف أو يزيدون ، ثم اتجه الصليبيون الى بيت المقدس وشنوا على أهله غارة شعواء ، وكان ماكان

(١) تسمى الآن « أورفه » فى جنوب الأناضول وشمال حلب .

من الفظائع والاهوال حتى جرت الخيول الى صدورها فى الدماء ، كما اعترف بذلك مؤرخو الفرب فى غبطة ومباهاة ، وقد قدر عدد الشهداء بما يزيد عن سبعين الف رجل من المسلمين ، منهم جماعات فاضلة من أئمة العلماء ، وحسبك بهذا خسارة فادحة ومحنة تتفطر لها الاكباد ، ثم اتجه الصليبيون الى طرابلس الشام فأسسوا بها امارة لاتينية رابعة ، وفرضوا الضرائب القاسية ، وبلغوا فوق ما يبتغون من المجد والانتصار .

وكان الموقف يتطلب قائدا باسلا يصمد للحوادث بسيفه ورأيه ، وقد هيأت الاقدار « عماد الدين زنكى » أمير الموصل للنهوض بهذا العبء الجسيم ، وكان وافر الكياسة دقيق الادارة ، واسع الحيلة ، فصمم على توحيد الامارات العربية تحت قيادته ، فضم الى الموصل معظم بلاد الجزيرة ، ثم عبر الفرات ، واستولى على حلب ، وكثير من بلاد الشام ، وتألق نجمه فى سماء السياسة الاسلامية فأوجس الفرنجة خيفة من بأسه وتحينوا الفرص لمنازلته ووقف الفريقان يتربصان !! .

وكان عماد الدين حاذقا مفكرا يقدر لرجله موضعها قبل الخطو ، فراى أن يطمئن الى الناحية الداخلية فى بلاده قبل أن يقف وجها لوجه أمام عدوه ، فقام بنهضة عمرانية شاملة أحيا بها الزراعة ، وشق الترع واستثمر المال وأمن الطريق والبلاد ، فرجع التجار الى متاجرهم والفلاحون الى مزارعهم وأخذ العمران يورق ويثمر ، كما بث المرشدين الفقهاء ليطمئنوا الشعب على قضية الجهاد ، فلا تطير البلاد شعاعا من الخوف والرهبة ، وجند الشباب الباسل بعد ان افرغ فيه الحمية والاباء واستصرخه لنجدة دينه ووطنه ، وكان لهذه الاعمال الحاسمة أثر ملموس فى ارتفاع الروح المعنوية والتهاب العزائم الماضية فتدفقت حماسة الجيوش الاسلامية والتهب الفرنج حنقا على القائد الجرىء ولاحت نذر الحرب لدى الجيشين فوقف الجميع على قدم وساق ، ولكن من الذى يبدأ بالقتال .. ؟

أما الفرنجة فقد جمعوا الكتائب ، ووقفوا عند حصن « الأثارب » يرسلون الطلائع الفاتكة للقتل والنهب والتدمير ، فى فترات متقاربة ، وبدأت جيوشهم تتدافع وتتزاحم حتى ملأت الفضاء ..

واما العماد فقد استشار قومه فيما يصنع ، فاشاروا بالتريث والانتظار ، ولكنه صمم على النزال ، واندفع فى طليعة الصف الاول غازيا مستبسلا وجنوده من ورائه يعتصمون بقيادته وادارته ، وصدم

الصليبيون بكفاح لم يألفوه ، فقد ثقل عليهم القائد بخيله ورجله وتتبعهم فى الدروب والأزقة ، وسقطت جثثهم طريحة تحت أسلات سيوفه ، وايقنوا أن الحظ بدأ يتخلى عنهم ، ولم تعد عناية السماء تحوطهم فى كل مكان ، كما توهموا ذلك منذ تركوا بلادهم فاتحين ، على حين ارتفعت حماسة المسلمين ووجدوا فى الاتحاد والتماسك ظفرا سريعا ، فساروا تحت قيادة العماد الى قلعة حارم (١) واستعدوا للمعركة الثانية فى نشوة وابتهاج ولكن الفرنجة ألحو فى قبول هدنة مسالمة فوقعها عماد الدين مرفوع الرأس ، ووقعها الصليبيون مدحورين وهم يحسبون للفذ القاتم الف حساب على يد القائد العظيم ..

تجمع أمراء الدول اللاتينية فيما بينهم ، وتشاوروا فيما يصنعون ببطل فارس نجم فجاة أمامهم كأسد هصور يدوى غابه بالصياح والزئير ، ورأوا أن الهزيمة السالفة لابد ان يمحى عارها قبل أن يدب الخور فى النفوس ، فخفوا الى « حلب » بغتة حيث انتظرتهم الهزيمة الثانية حاملة ما تحمله الهزائم من الرعب والدهشة والالتياث ، وقد اهتبل العماد حيرتهم اليائسة فانقض بجنوده على « اللاذقية » (٢) ولقى الفرنجة منه شرا مستطيرا ، فتناثرت أشلاؤهم فوق السهول والتلال ، ووقع فى الأسر أكثر من سبعة آلاف ، وفر الهاربون من المعمعة تاركين المدد الكثير من الذخائر والغنائم والأسلاب فأضيفت الى الجيش الاسلامى وازداد بها العماد قوة وعتادا ، فمضى يحطم القلاع ويدك الحصون ، ووقع اسمه موقعا مرعبا من اعدائه فأقلق المضاجع وأطار النوم من الجفون ..

لم يجد الفرنجة بدا من الاستنجاد بملك القسطنطينية فقد علموا بمطامعه الواسعة ، وثأره القديم ، ورأوا أن وقوع الدول اللاتينية تحت يده قد يتيح لهم فرصة التنازل عنها دون جهد كبير ، وجاء الملك سريعا وعسكر أمام « حلب » فامتنعت عليه ، ولم يجد منفذا يوصله الى النصر فتوجه الى « شيزار » (٣) ونصب المجانيق ، وشهر الأسنة والرماح ، وأراد أن يكسب نصرا عاجلا يحقق ظن الفرنجة فى بأسه ، ولكن عماد الدين يدلف اليه سريعا ويعرض جنوده وأسلحته بحيث يراه ، ثم يبعث اليه يستعجل اللقاء فى الصحراء لتدور الدائرة على من تدور عليه ،

---

(١) من أعمال حلب تجاه انطاكية ، رد الله غربتها .

(٢) ثغر سورية الذى تتنفس منه الآن نسيم البحر الأبيض المتوسط .

(٣) قرب « المعرة » التى منها حكيم شعراء العربى أبو العلاء التنوخى .

فيستريح الجيش وينفض القتال ، وقد ضـــاق ملك الروم ذرعا بهـــذا الاستعجال الجريء ، وظن فى خصمه من القوة والشـــكيمة ما يرهب ويزلزل ، فتباطأ وتثاقل ، ومضى وقت أعمــل فيه العمــاد حيلته الحصيفة ، فأرسل الى ملك الروم من خوفه من الفرنجة ، وذكر له أنهم سيتركونه وحيدا اذا ادلهم الخطب ، كما ارسل الى الفرنجة من ندد بملك الروم ، ونعى عليه تثاقله وانتظاره ، فوقع الشقاق بين الحليفين ، وفر ملك الروم الى موطنه ، تاركا وراءه آلاف الذخائر والاسلاب فتبعه عماد الدين ، واستولى على الغنيمة الرائعة ، وأثخن فيمن أدركه ، ورجع منصورا تتقبله التحيات العاطرة ، وتنهال عليه التهنئات ، ويفد اليه الادباء والخطباء فيسجلون اعجاب المسلمين بقائدهم الباسل ..

وقد حظى عصر العماد بطائفة من نوابغ الشعراء كابن القيسرانى وابن المنير ، وأبى المجـد الحمـوى ، فتغنوا بمآثره ، وخلدوا فتوحه وأمجاده ، ومازال السيف فى حاجة ماسة الى القلم يلهب العواطف ، ويهيج المشاعر حتى اذا ازفت الساعة وتلاحمت الصفوف ، دفع بالنفوس الظامئة الى التضحية والاستشهاد ، وقد كان الشعراء قبل العماد يتلمسون البطل المنقذ ليضفروا له أكاليل الثناء ! فلا عجب اذا ارسلوا قصائدهم الشادية وقد تحقق الأمل وزأر الليث فى العرين .

لقد أعمل القائد حيلته الرشيدة فظفر بما لا تتيحه السيوف دون مشقة هائلة ، وكفاح مرير ، وهاهو ذا يعمل حيلته الثانية ليضم الى امجاده الخالدة مجدا جديدا ، فقد صمم على ان ينقذ (الرها) من أعدائها المغيرين ، فهل يوجه اليها قوته وقد أحاط بها الفرنجة من كل مكان ؟ هذا مالا يشير به الفكر السديد ٠ فالاولى به أن يتغاضى عنهـــا ظاهرا ويوجه حشوده الى مدن اخرى كآمد (١) وحمص ، وديار بكر ، ليطمئن الاعداء الى تحول الخطر الى منطقة نائية ، وهذا ما كان ، فقد نزح صاحب الرها عن ولايته ، مطمئنا لحاميته وانشـــغال عماد الدين بفتوحه ، ولكن البطل الاسلامى يسرع اليه فيخلف ظنه ، ويفتح مدينته ، فتسقط فى يده ، وترجع اليها عروبتها الاصيلة ، ويرتفع له صيت مجلجل وتتحدث عنه الركبان ..

لقد سـقطت الرها كسيرة ذليلة ، وقد توقع المقيمون بهـا من الصليبيين شرورا كثيرة من العماد ، ولكن سماحة الاسلام تتغلغل فى أعماقه فلا يقتل أحدا غير المحاربين ، ولا يأسر امرأة أو طفلا أو شيخا ،

---

(١) كانت عاصمة ديار بكر ابن وائل ، وهى الآن ترطن التركية فى الاناضول ٠

بل نشر الوية الأمان على المدينة ، وقد حبب اليه كثير من انصاره أن ينتقم لموقعة بيت المقدس ، التى سالت بها دماء المسلمين وذبح الأطفال والنساء والشيوخ كالأنعام ، وتناثرت الأشلاء فوق الرمال ٠٠ ؟ ولكن البطل المسلم يظهر أريحية الاسلام وعدالته فيعتصم بالمروءة ويضرب المثــل الصالح للخلق الكريم ، ويرسم الطريقة المثلى ليحتــذيها من بعده ولده نور الدين (١) ثم تبلغ ــ بعد ــ أوجها الرفيع فى سيرة صلاح الدين، فأين الذين يرمون الاسلام بالتعصب ويتهمون أبطاله بالعدوان ، ليتابعوا الحروب الصليبية فى حلقاتها المتلاحقة ، ثم ليقولوا كلمتهم ونقول !! ، على أن هذا البطل المتســـــامح لم يجد لدى أعدائه من يقدر مروءته ورجولته ، فتآمرت عليه العصابة الباغية ، وخبــأت له نذلا من الأنذال يغتاله فى هجوعه الهادىء بعد أن عجزت عن لقائه فى حومة الـــكفاح ، وهكذا طارت روح الشهيد الى بارئها العظيم هنيئة بالفردوس ، ناعمة بالخلود ، وقد خلف وراءه نجله الباسل نور الدين ليستأنف النصر عظيما عن عظيم ٠

وقــد يلاحظ من يقرأ تاريــخ الحروب الصليبية أن انتصـــــارات العماد لا تجد من المؤرخين نصيبا كبيرا من الدراســـــة والتحليل اذا قرنت بما كتب عن نور الدين ،وصلاح الدين ، وذلك لأن بعض الكاتبين ينظرون الى النتائج دون المقدمات ، فهم يسجلون المواقف الحاسمة دون أن يمهدوا لأسبابها ، ويرجعوا الى عناصرها ومقوماتها ، وقد بزغ عماد الدين فى وقت تفرقت فيه الوحدة الاسلامية ، وحالت الأهواء الذاتية دون التماسك والاتحاد ، فبذل جهدا جبارا فى اقامة دولة متماسكة تكافح العدو الهاجم ، وتحارب الاقطاع محاربة حاسمة ، وقد استغرق ذلك من نشاطه وكفاحه جهدا ليس باليســـير ، وحين اطمأن الى قوته بدأ فتوحه ومواقفه فدافع وهاجم وانتصر ، ثم جاء ولده نور الدين فوجد دولة منتصرة متماسكة فاستأنف السير ، وواصــل الكفاح ، وســـار فى الطريق المعبد أشواطا رائعة بارعة حتى اخذ مكانه صلاح الدين فتم على يديه النصر ورجحت الكفة العربية بتأييد الله . ومثل عماد الدين مع البطلين الكبيرين كمثل أسرة ارادت أن تنشىء حديقة فيحاء فى ارض ذات صخور وأشواك وآكام ، فقام عميدها الكبير بازاحة الأشواك وتسوية الطريق وشق الجدول وتهيئة البذور ثم وافاه أجله فاســـتأنف قومه الغرس والبذر ، وتعهـــدوا الزرع بالرى والتســـميد حتى ترعرعت

---

(١) أستاذ صلاح الدين فى الحرب والسياسة والعدل الاسلامى الرحيم ٠

الأفنان ، وامتد الظل ، وتهدلت الثمار ، ولولا مابذله العميد من جهاد عنيف فى طريق شاق ما أينع الثمر ، ولا امتدت الظلال !! .

ونحن حين نذكر العماد انما نأخذ من تاريخه عبرة بالفة لحاضرنا الأليم ، فقد احتلت الصهيونية الغادرة « فلسطين » وظن الغرب بالاسلام والعرب أسوأ الظنون .

ولولا الصليبية المتأصلة فى الغرب ما قام لليهود دولة فى بلاد الاسلام ، فمسيحيو أوربا وامريكا هم الذين أوجدوا اسرائيل من العدم ، وكافحوا فى تحقيق حلمهم الصليبى بتمزيق الاسلام ، وتدمير مدنه وأبطاله متسترين وراء اليهود تارة . ومجاهرين بالضغينة السافرة تارة أخرى ، بل ان الدعاية المفرضة تنتشر فى أمريكا اليوم عن الاسلام والمسلمين لتعيد لنا بطرس الناسك فى مفترياته وتباكيه ، فهم اليوم يرسمون الصليب ومن فوقه حذاء عربى مسلم ليستصرخوا الأوربيين على الاسلام فى كل مكان !!

والأمم العربية الآن فى جامعتها المتماسكة ، وايمانها القوى خير مما كانت عليه أثناء الفزو الصليبى منذ بضعة قرون ، ولئن رزقت بطلا باسلا كعماد الدين فسوف تسجل انتصارها الباهر ، وكفاحها المجيد فى جبين التاريخ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم .



نور الدين محمود
البطل المثالى

حين أردت أن أكتب عن « نور الدين » وجدت القلم يغرد بين أناملى تغريدا لا ينقطع ، فقد هزتنى أخلاقه العـــالية هزا أثار العاطفة ورنح الوجدان ، ولن يعيب المؤرخ أن يتأثر بعاطفة صادقة تهيم بالمثل الرفيعة وتهتز لأفذاذ أماثل رفعوا لواء الانسانية الصادقة ، وجمعوا حوله ما يمت اليه من عناصر الصدق والتضحية ، والتسامح والوفاء ، انما يعيب المؤرخ أن يتأثر بعاطفة شخصية مغرضـــة لا تلتفت الى مبـــدأ عـــادل أو تهيم بمثل كريم أو تطمح الى مستوى رائع ، ونور الدين ــ وان جهله الكثيرون ــ قمـــة باذخة ترتفع للعيان شماء عالية ، ولها فى مكانها الســـامق عـــزة قعساء ، ومجد رفيع ٠

ان نور الدين يلتقى مع على بن أبى طالب فى أبرز صفاته وأخلص معادنه ، فاذا كان تقديس الحق وحده دون نظر الى مغنم سياسى ، أو ظفر حربى هو مبدأ أمير المؤمنين الورع الزاهد ، فان هذا التقديس العظيم للحق وحده دون اعتبار لسواه كان مبدأ نور الدين !! ، فطالما اصطدم الرجلان بأهواء المغرضين ، ونزوات الوصوليين ، وكان فى بعض التهاون على حساب الحق ــ ما يجمع المتفرق ، ويلم الشعث ، ويطفىء الثورات !! ولكن المثل الأعلى يصيح فى أذنى البطلين الكريمين ٠٠ أن قدسا الحق وحده ، ولا تحفلا بغنيمة تعقب وخز الضمير وتعب البال !! ٠ ويا له من نداء مؤمن صادق يرتفع عن الرغبات والأهواء !! وان عاد على ســـامعه بكثير من العنت والارهاق !!

سار الامام فى طريق المثل الأعلى ، وسار نور الدين خلفه على نفس طريقه ! وهو سبيل واضح ينيره القرآن بتعاليمه ، ويزينه الاســـلام بمبادئه ٠٠ ولكننا نجد من يلومون الرجلين الكبيرين ، فيقولون عن على أنه رجل لم يخلق للسياسة والمرانة !! ٠ ويقولون عن نـــور الدين انه صادق ومخلص ٠٠ ولكنه غير سياسى ماهر ٠٠ وكان المفروض فى صاحب

المثل الأعلى أن يداهن ويراوغ ويكايد .. وتلك قضية تحتاج الى دحض وتفنيد .

ان تقديس مبادىء الاسلام سياسة رفيعة عالية !! يصعب على كثير من الناس أن يتمسكوا بها فيما يأخذون ويدعون من الأمور !! ويعز عليهم فى الوقت نفسه أن يعترفوا بتقصير تتأكد ملامته ويتحقق عيبه فيحاولوا أن يجعلوا من تهاونهم الناقص كياسة حاذقة توجبها الظروف وتفرضها الملابسات ، ثم يتجهوا بأبصارهم الى أناس لا يعرفون التهاون فى الحق !! فيروا بعد ما بين الفريقين من خلاف فى الهـــدف والغاية ، والطريقة ، واذ ذاك ينحون باللائمة على من يستمعون القول فيتبعـون أحسنه ، ولو رجعوا الى ضمائرهم فى لحظة مؤمنة بصيرة لانكشف الغطاء عن خداعهم الزائف ، وعرفوا حق المعرفة أن أصحاب المثل الرفيع أناس لا تنقصهم السياسة والكياسة والمران ، ولكنها سياسة القرآن يؤكدها الايمان القوى ، ويدعمها اليقين المكين .

أفكان على فى تربيته وحصافته وفقهه وبصيرته غير سـياسى ؟! وهل كان نور الدين فى تسامحه ووفائه بعهده وصدق وعده غير سياسى ؟ لا يا هؤلاء انهما سياسيان عظيمان .. لهما مبادىء خالدة لا تتطرق اليها رغبة جامحة ، ولا تشين نقاءها نزوة هوجاء ... هما سياسيان محنكان يلتزمان سياسة القرآن وكياسة الاسلام ، فلا يعرفان غدرا بعهد ، أو طعنا من الخلف أو تحرشا بغير خصم أو أنانية مغرضة ، فليكونا مثلا عاليا للناس ، ونحن باسطون هنا سيرة نور الدين لتكون تطبيقا للقاعدة الاسلامية أو نموذجا رفيعا لانسان مؤمن تشرب روح القرآن !!

لم يكد عماد الدين زنكى يقطف الثمرة الأولى من جهاده فتسقط فى يده الرها ، احدى مدن الصليبيين حتى لحق بربه ضحية لاغتيال أثيم .. وقام بالأمر من بعده ولده نور الدين كما أسلفنا من قبل .. فماذا وجد ؟ .. وجد جنود الافرنج يغمرون بلاد المسلمين ، وقد تكاثروا على الناس بجيوشهم الزاحفة وذخائرهم القاصفة ، وتجمعهم المتماسك ولا يكاد يمر يوم دون أن يسقطوا مدينة أو يهزموا كتيبة أو يضرموا سعيرا يلتهم المنازل ويمحق الأرواح .. ويزعزع الايمان ... والمسلمون عن ايمانهم وشمائلهم شراذم متنابذة مستذلة يمزقها الاقطاع ، ويبيدها داء الأمم من تحاسد وتضاغن .. ففى كل مدينة صغيرة حاكم مستقل يجمع حوله عشرات الجنود ، ومن دونه منافسون من بنى جنسه ودينه يتطلعون الى اغتصاب مدينته .. واعتصار ما بقى لديه من قوته ، وهو مضــطر الى

محالفة أعداء الاسلام من الصليبيين ليكونوا معه فى مأزقه البهيم ٠٠ لقاء جزية ثقيلة مفروضة ، وأرض مستقطعة مسلوبة !! والعدو الحاقد مهتبل للفرصة ، مشمر للوقيعة ، فهو يؤيد هذا آونة ويغدر به آونة ، ويسر فى خاطره ابتهاجا للشمل المبدد ، والعداء المستمر ، فقد وقع بأس المسلمين بينهم ، وصاروا كالنار يأكل بعضها بعضا دون أن تمتد منها شرارة محرقة لمحتل غاصب يشحذ أنيابه ويعمل مخالبه قتلا وتمزيقا فى جسد واهن طريح مزقته الأحقاد وعصفت به النزوات !! ٠

لقد ظن الكثيرون أن ساعة الاسلام دانية ، وعلل «ريجنالد» صاحب الكرك نفسه بأمانى معسولة تتراقص لعينه ، فهو يحلم بفتح مكة وانتهاك حرمة المدينة !! ويجعل من حلمه أنشودة يترنم بها جنوده فى المغدى والرواح ، ويرى الصليبيون أن الغاية قريبة والمركب ذلول !! فيتعسفون ويجدون ، وعين الله من ورائهم ترعى القطيع الشارد في غيه وتنابذه ، فتهيىء له بطلا يجمع شتاته ، وراعيا يحسن توجيهه وارشاده ذلكم هو البطل المتسامح نور الدين !!

لقد رسم نور الدين لنفسه سياسة لا يحيد عنها فى حياته قيد شعرة ، فقد وضع نصب عينيه محاربة الصليبيين دائما ، ومسالمة المسلمين أبدا ، فلم يفكر طيلة عمره فى مهاجمة أمير مسلم ، بل علم أن النفوس قد يتطرق اليها بعض الريب فاجتهد اجتهادا تاما فى مسالمة بنى دينه ، فاذا لمس نفورا أو تقية بدأ بالهدايا والتحية ، وأظهر من دلائل الود واشارات المعونة ما ينحسم به الشك ٠٠ ويقطع دونه الارتياب ، بل لقد وصل فى الطريق الى أقصاه ، فصاهر من تأصل لديه الشك ليجعل من الصلة الجديدة رحما توجب الصداقة ، ووشيجة تفرض المحبة والمعونة ، وبرغم ما بذل الرجل من جهود يشفعها بالتضحية وتعقبها المكاره ، فقد وجد ــ فى بنى الاسلام من يناوئونه رغبة فى الكيد وارتماء فى أحضان الفرنجة ، والرجل صابر محتسب يطوى الضلوع على اشفاق آسف مرير دون أن يسمح لنفسه بمهاجمة أحمق ينطق بالعربية ، ويدين بالاسلام فيتيح بذلك فرصة يغتنمها أعداء الاسلام فيحالفون غريمه المسلم ، ويضطر نور الدين الى منازلة الفريقين وهو بحاجة الى تعبئة الجهود المتفرقة للقاء فريق واحد يحتل البلاد وينتقل من فتك الى تدمير فى أرض نظللها العروبة ويحميها الاسلام ٠٠ تلك هى سياسة نور الدين التى وجدت بعض المعارضين من الانتهازيين والغافلين من المؤرخين !! فراحوا يزعمون بها نقصا فى المهارة ، وتهاونا فى الحنكة والمرانة !! ٠٠ وهى بعد سياسة الاسلام العادل ومنطق الدين الصريح !! ٠

وقد كان سقوط « الرها » على يد والده عماد الدين ضربة قاضية على الفرنجة ·· فما سمعوا بنعى العماد حتى جمعوا جموعهم وأعادوها الى الصليبيين من جديد ·· وقد ظنوا فى نور الدين عجزا عن المقاومة ، ولم يعلموا أنه شبل باسل لأسد كاسر ·· فطار اليهم محتشدا متهيئا وألقى عليهم درسا قاسيا شرد من نفوسهم الأمن والاطمئنان ، وأعاد المدينة ثانية الى الاسلام ، وانطلق الفرنجة يصرخون ويستغيثون فجاءتهم الحملة الثانية من الغرب وبها كتائب من فرنسا وألمانيا وانجلترا وايطاليا ·· ويباركها القديس « برناردوس » بما ينفخ فى الصدور من حمية ، ويدخر لهم عند المسيح من مثوبة ، وقد ذكر المؤرخون أن عدد هذا الجيش العرمرم يبلغ ألف ألف عناز من الرجالة والفرسان ·· وهو عدد ان احتمل المبالغة فى التصديق فلن يخطىء الحقيقة فى كثرته الغالبة وموجه الزاحف المغير !! وقد قصد المغيرون ـ بعد مآزق حربية فى الطريق دارت عليهم أسوأ مدار ـ الى بيت المقدس فصلوا صلاة الموت ، ثم قصدوا الى دمشق فى سواد منتشر كثيف ·· وضرب ملك الألمان خيمته على الأبواب !! ، وكان الجيش الصليبى فى حملته الثانية أكثر نظاما وأقوى شكيمة وأوفر انسجاما ، فليس فيه قطيع من الأشقياء والمشردين ، ولكنه يرتكز على الفرسان والبارونات وأرباب الدربة والحربية المنظمة والحنكة العسكرية الفائقة ، فكان الموقف خطيرا يتطلب الاتحاد المؤمن والعزم الصارم فاجتمع نور الدين صاحب حلب، مع شقيقه سيف الدين صاحب الموصل فى جيش لجب جرار يشدان أزر مجير الدين صاحب دمشق ! ، وهرع الشباب والفتيان الى الأسوار يبذلون أرواحهم مع المجاهدين من الجنود ودار الموت الأحمر فى حومة حلك فيها وجه النهار ، وتطايرت بها الأشلاء مخضبة بالدماء ، ولمعت الأسنة لمعانا مرعدا ، وبلغت القلوب الحناجر اشفاقا وهلعا ، ودلف الشيوخ والنساء والأطفال الى المسجد الأموى فى دمشق فأخرجوا مصحف عثمان من مكانه المطهر ووضعوه متوسطا المسجد ثم احتشدوا يبتهلون الى الله بالدعاء ··· ويجأرون الى السماء بالاستغاثة والعون !! ، وقد صدق الله وعده ، فاندحر الصليبيون اندحارا أليما ، ونهضت الجيوش الاسلامية المنتصرة الظافرة تتعقب الفلول الصليبية المنهزمة قتلا وأسرا وتشريدا ، ولم يشأ نور الدين أن يناقش صاحب دمشق على ما أسلفه اليه من التنابذ والعداء ، بل أطفأ الأحقاد الثائرة ببسمة راضية ، وتسامح كريم ··

وكان أجناد الحملة الثانية من الصليبيين يقدرون فى أوهامهم المديدة لجهودهم نصرا مكتسحا ، وفوزا ظافرا فى مدى قصير متقارب !! وقد

أفزعهم أن تتفرق جموعهم فى أول موقعة تدور ! فأين ما تراقص فى عيونهم من أحلام ؟ وأين ما شيعوا به من دعوات القديسين ؟ ٠٠ وابتهالات الأحبار والرهبان ؟ لقد فكروا طويلا !! ثم صمموا على مواصلة القتال وتعبئة القوى المتفرقة ، وانطلقوا يهـــاجمون صــور ، وعكا والثغور ، ويفحشون فى التخريب ، ويمعنون فى الغارة الجاهلة ، وانبسطت أمامهم الآمال الخادعة ثانية وتوجهوا الى حلب مقر نور الدين وهم يحسبون فى القضاء عليه بها قضاء على أكبر خصم يقف كالشجى فى حلوقهم فيهدم على رءوسهم ما يشيدون ، ولم يجزع نور الدين لما دهمه من الكارثة الأليمة ، بل جمع أجناده وذخائره وأخذ للموقف عدته وعتاده ، واستنجد بمعسكر أخيه سيف الدين وغيره ٠٠ وحشد الكتائب مستبسلا مغامرا ٠٠ ودارت حرب رهيبة فاجعة قتل فيها ألف وخمسمائة صليبى ٠٠ وفر المهاجمون عن حلب وفى نفوسهم ألم ممض وبأس دفين ٠٠

ليت نــور الدين يتفرغ لقتال الصليبيين دون غيرهم ٠٠ فيكتل جهوده فى جبهة واحدة ٠٠ ولكن والهفتاه لقد قام من بنى الاسلام من يطعنونه من الخلف ، فيحالفون الفرنجة ، ويعتزون بعدو يحاول أن يزهق أنفاسهم ويستأصل شأفتهم ٠٠ وقد حز فى نفس البطل الصابر أن يكتب الى مجير الدين صاحب دمشق ملاينا ومراجعا فيأتيه الرد القذر من خائن جارم : « ليس بيننا وبينك الا السيف وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك ٠٠ ان قصدت الينا ونزلت عندنا » ما هذا الذى كان من أمير مسلم يعتصم بعدو صليبى ليقف معه فى وجه نور الدين ٠٠ وماذا فعل نور الدين ٠٠ ؟ هل حاول الاعتداء على مدينته ٠٠ ؟ هل شاء انتقاصا من أمر صاحبه ٠٠ كل ذلك لم يكن ٠٠ وانما هو الحقد الدفين يلقى ضبابه على العيون فتخبط فى عماية حالكة لا يضيئها شعاع من ايمان ٠٠ لقد ظاهر مجير الدين أعداء الاسلام فى تدل ساقط مشين ٠

وتوقف نور الدين عن مهاجمته كيلا يشمت به الفرنجة فى وقت عصيب ٠٠ وقد استمع البطل الى رجاله مستشيرا فأصروا على مهـاجمة الخائن فسألهم نور الدين : وما ذنب الرجال والنساء والأطفال والشيوخ فى دمشق حين تمطرها سهامنا المردية وتحوطها سيوف الفرنجة تنفيذا لعهد خائن أثيم ٠٠ فتدور الدائرة على قوم عزل محصورين تنكب حاكمهم طريق الصواب فحاق بغير جارمه العقاب ٠

هنا تظهر الروح الاسلامية الحريصة على الرخاء والمحبة والوفاء ٠٠ وهنا تظهر السياسة المثالية التى تقمع الرغبات الثائرة والنزوات المغرضة

لترتقى الى أوج طاهر ممتاز ٠٠ هنا يصيح نور الدين : لن نأخذ الدمشقيين بخيانة « مجير الدين » ، ففيهم من يصلح لحماية الاسلام وصيانة تراثه الثمين ٠٠ وقد شاء القدر المسعف أن يأخذ بناصر نور الدين فتوافد الفرنجة على دمشق يطالبون من ظهيرهم الخائن عتادا وافرا ومالا جزيلا ، وأظهرت القلوب المتناكرة ما تضمر من غل قاتل ، وما تكن من حقد دفين، فافتضحت النيات الخاتلة فضيحة نكراء ، وقامت ثورة العلماء بدمشق على صاحبها الآثم فأصبح يتنفس فى جو آسن كريه ورأى مدينته تتزلزل تحت قدميه ، فقد أرمضها أن يكون حاكمها حليفا لعدو محتل جبار ، وفزعت الألسنة لاهجة ببطولة نور الدين ، وهاتفة باسمه ٠٠ وفى ذلة المستكين وصغار المذنب توجه مجير الدين الى سيده العظيم يسأله الصفح والمغفرة فيجد الاغضاء المتسامح والعفو الشامل من قلب رحيم كبير يتجمل بالمثالية الاسلامية فيصفح عند المقدرة ويعفو عن كثير ، ولو كان نور الدين سياسيا ذا مآرب شخصية فى اتساع بلاده وانماء سيطرته لاغتنم هذه البادرة السانحة وسارع الى دمشق بخيله ورجاله فأضافها الى حلب المؤيدة بسلطانه ولا ملامة عليه ، فصاحبها ثعلب ماكر يعتصم بأعداء الله ويناهض ذادة العرب وحماة الدين الحنيف ٠٠ والدمشقيون على بكرة أبيهم يرحبون بالبطل الباسل رئيسا تزدان بسيطرته المدن ، وتعتصم بقوته القلاع والحصون ٠٠ ولكن انضمام دمشق الى حوزته لا يحقق الآن شيئا من مطمحه فى القضاء على الصليبية الغادرة ، ومهما كان امتلاكها عاملا هاما فى استقرار سلطانه فلن يقيم له وزنا فى منطقه ، وعليه أن يدخر جهوده الجاهدة لمنازلة عدوه الحقيقى . واذ ذاك يستشعر برد الراحة وينعم بهدوء الضمير ٠

وسيرا على هذا المبدأ الرائع مبدأ المسالمة والتسامح مع أبناء الاسلام وقف البطل الخالد موقفه بعد وفاة شقيقه سيف الدين ، فقد ترك مملكته فى سنجار خالية ، وتطلع شعبها الى نور الدين ، اذ استفاضت فى الناس شهرته الفائقة ، وطبق الأرض جهاده الحافل !!

ويذهب البطل الكمى الى « سنجار » لا ليضمها الى حلب فهذا ما لا يقدم شيئا فى استئصال العدد الصليبى ، بل ليهبها الى أخيه الأصغر مكان أخيه الفقيد ، ثم يعلن فى الناس أن الحكم مشغلة متعبة فلا يستطيع أن يتفرغ لمسئوليته الكبيرة وأمامه العدو يتربص به الدوائر ، فلتكن سنجار لأخيه وليحكمها ممثلا سيرته فله به أسوة حسنة ! وليعجب الناس من أمير مسلم ينحرر من الأطماع المغرية ، وينظر الى الواقع نظرة مجردة

لا تحوطها البهارج والأوهام ٠٠ وسيرا على هذا المبدأ الرائع مبدأ المناوأة والعداء للفرنجة الصليبيين واصل الرجل استعداده للقتال ، وتهيأ بذخيرته القوية ، فغزا بلاد الشمال ، وأمعن فى العدو تنكيلا واستئصالا، فكلل جهاده بأسر القائد الصليبى « جوسلين » ، وكانت له شهرة مدوية فى الاقدام والبطولة ، فهو فارس الافرنج غير مدافع ، وقد أعيا الكماة الأشاوس بجهاده الباسل ، وجرأته الخارقة وليس من السهل القضاء عليه فى معركة حربية تشتجر بها الرماح وتلمع الأسنة « فجوسلين » فارس مغوار يقدر لرجله موضعها قبل الخطو ، وهو من قوته وحاشيته بمربأ مرتفع لا تصل اليه همة ، أو يرتقى نحوه مطمح فلم تبق غير اعمال الحيلة فى اقتناصه ٠

وكان من عادة البطل الصليبى أن يغامر بنفسه فى مطارح نائية للصيد ترضى مواهبه الفتية وتشبع رغبته الرياضية فوكل به نور الدين كتيبة باسلة أخذت عليه الطريق ، ووقع أسيرا تغل قيوده كفيه ، وذاع النبأ فى الفرنجة فوقع موقعا حز فى الصدور !! وفت فى الأكباد ، وتفرق الصليبيون أباديد يلتمسون قائدا يلتفون حوله فيفرغ عليهم من بسالته مايقوى العزيمة الخائرة ، ويشفى الجرح الفاغر ، وهيهات ! فقد أسر « جوسلين » ، ذلك الثعلب الذى عاهد نور الدين مرات عدة فغدر وفجر وأفحش ، ثم حانت كارثته الأليمة فاستطار أصحابه هلعا وارتجفت أعضاؤهم فرقا من هول ما ينظرون ، وتوالت الفتوح الظافرة على المسلمين فاستولى نور الدين على القلاع المستعصية ، ورفع رايته فوق الحصون المنيعة ! وسطعت بشائر النصر تؤذن بدوام الفوز واطراد النجاح ٠

لقد كان البطل المسلم سياسيا داهية حين نصب الكمين لغريمه فأتاه من حيث لا يحتسب ، وسياسته فى أسره لا تقل مهارة عن سياسته الماهرة مع « مليح بن ليون » ملك الأرمن ، فقد أخذ نور الدين يخادعه ويستميله حتى جعله فى خدمته حضرا وسفرا ، وكان يقاتل به الافرنج ويقول فى تبرير ذلك ٠٠ ان بلاده حصينة وعرة المسالك وقلاعه منيعة عالية الأسوار ، وهو يخرج منها اذا أراد فينال الاسلام ثم ينحجر بها فلا تقدر عليه ، فعلينا أن نراوغه ونداريه لنطفىء لهبا يكاد يشتعل فتتقاطر عليه صبابات من المجاملة والتودد ٠٠ فتحيل الجذوة المتوقدة رمادا تذروه الريح ، فليت الذين يشكون فى فراسة نور الدين وكياسته يتأملون هذا الموقف وأشباهه ليعرفوا كيف استطاع هذا القائد المحنك أن يجتث القلاقل المزعجة ببسمة خالبة وبشر عطوف ٠

ولم ينس نور الدين فى غمرة كفاحه الصليبى أن يقوم باصلاح داخلى شامل قوامه التعمير والتثمير والتشييد ، فلقد أنشأ المدارس والجوامع وشيد القناطر والجسور ودور المرضى وخانات المسافرين ، وأقام الأبراج على الطريق بين المسلمين والافرنج ، وفيها الطيور الهوادى ، وحمام الزاجل فاذا أحاط الخطر بقرية من قرى الاسلام طار الحمام فعلم الناس ما يترصدهم من الأهوال ٠٠ وقد أنشأ ملاجىء الأيتام واهتم بالزراعة والتجارة ٠٠ اهتماما غريبا عاد على البلاد بالخير والنماء ، وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به المساجد والبيمارستانات ، فاذا وصلت اليه هدية غالية من صديق محب ، أو عدو مخادع بعث بها الى القاضى لتنفق فى تعمير المساجد والمدارس وملاجىء الايتام ٠٠ وهذه هى السياسة العمرية التى تكفل الرعية بعنايتها البالغة كما تتجه الى السماء فتستلهمها الهدى والتوفيق اذا عضل مشكل أو أبهم طريق ٠٠ ونبها من التقوى الصادقة ومراقبة الله جنة سابغة ومجن حصين ، وقد ذكر ابن الأثير ٠٠ أن بعض أصحابه أخذوا عليه كثرة نفقاته على الفقهاء والفقراء والقراء ، فقال ، فى عزيمة المؤمن ويقين الخاشع ، والله انى لا أرجو النصر الا بأولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ! كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشى بسهام لا تخطىء وأصرفها الى من لا يقاتل الا اذا رآنى بسهام تخطىء وتصيب وهؤلاء لهم نصيب فى بيت المال فكيف أمنع عنهم خيرا فرضته السماء ٠٠ ؟

الله أكبر ٠٠ هذا هو الايمان القوى يغمر نفسا صادقة لا يزدهيها النصر ٠٠ أو يميل بها الزهو والخيلاء ٠٠ فارس باسل يبذل قوته فيسهر ليله ويعمل نهاره ويتقدم الصفوف الى الموت غير هياب ولا وجل ٠٠ حتى اذا رجحت كفته ، وذاق حلاوة فوزه تبرأ مما نسب اليه من نجاح ، وعزاه الى كهل يصلى أو امرأة تتضرع أو مريض يمن الله عليه بالشفاء فى مصحة، وكأنه بذلك يذكر قول رسول الله : مهلا عن الله مهلا ، فلولا شبان خشع وشيوخ ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا ٠٠ هذا مثل نشفعه بثان وثالث ، فقد وقف نور الدين بجيوشه أمام قلعة «تل حارم» المنيعة ! ، وكانت فى يد الفرنجة ، وقد ملئوها ذخيرة وجنودا وخيولا ، واندفعوا يهجمون على ما حولها من الاصقاع عابثين مفسدين ، فاذا أفعموا حقائبهم ومطاياهم بالأسلاب والغنائم كروا الى الحصن الأشم ، وقبل أن يلتقى الجمعان هاجت دوافع الايمان يحنن نزعا فى قلبه فغمره اشراق سماوى منير ، وتوجه الى الله بلسان يبتهل ، ورأس ساجد وطرف حسير ٠٠ وصاح على ملأ من أجناده ٠٠ رباه نسألك النصر وحدك لا شريك لك ،«فنور

الدين» الكلب (كذا) ضعيف ذليل لا يملك شيئا ! ، ثم رفع رأسه من السجود واندفع نحو الموت حريصا عليه !! فعاد بنصر من الله ، وثناء من الاجيال ٠٠

وقد أصيب عمه ذات موقعة بسهم صائب فقأ عينا له ، ووقف العم الملتاع ٠٠ يتأوه متألما لما حل بساحته من الفاجعة، ولكن نور الدين يقول له فى حنان الناصح ويقين المؤمن أى عماه « والله لو رأيت ما أعده الله لك فى الدار الآخرة من الأجر لأحببت أن تذهب عينك الاخرى » ٠ فليت شعرى أى ايمان يضىء قلب هذا المسلم المثالى ؟ ٠ انى لأحاول أن أهدىء حرارة اعجابى به فلا أستطيع ، ولولا تواتر غرائبه ، ووثوق مصادره ، وصدق شواهده لعددت ماكتب عنه أسطورة ترتفع عن الواقع !! ، وتنزع الى الخيال ٠٠ وحسبك أن يعترف به مؤرخو الغرب من الأوربيين ، والفضل ما شهدت به الاعداء ٠ ان الايمان سلاح لايفل ، وقد تدجج به نور الدين فاندفع يحصد أعداء دينه حصدا لا هوادة فيه ٠٠ وهاهو ذا يتجه الى حصن « انطرطوس » ليدير رحى الحرب طاحنة فتأتى على الفرنجة بالحصد والتدمير ، وعليه بالنصر والتأييد ، ثم لا يخلد الى الراحة بل تصل اليه الأنباء معلنة أن أهل « عسقلان » ينازلون أعداء البلاد مستظهرين بأسطول مصرى خف لنجدتهم ، فيرى البطل أن الاتحاد قوة ، ولابد من مهاجمة الفرنجة لتتفرق جهودهم فى حومتين حاميتين ، وكان ما أراد ، فملك حصن « أفليس » وقتل من احتله من الصليبيين ثم نهض الى غيره فغنم وظفر وتوج بنصر الله ! ٠٠ ورجفت الراجفة تحت أقدام الفرنجة اذ دهمتهم الأنباء باستيلاء نور الدين على دمشق ٠٠ لقد كان البطل الباسل يجتثهم اجتثاثا ويقتلعهم اقتلاعا ، ودمشق ليست فى حوزته ، فما عساه ان يبلغ من الشكيمة والبأس وقد أضاف قوة الى قوة وضم جندا الى جند ٠٠ ؟ ثم ان صاحب دمشق الخائن « مجير الدين » كان يمد لهم يد المعونة ، ويقطعهم العمائر والحصون ، ويرسل معهم الجنود والأرصاد ممن يتظاهرون بحب نور الدين وهم عين عليه ترجف به ، وتنشر الاشاعة الكاذبة وتنقل الخطة المبيتة !! ٠ واحسرتاه ، لقد كان من بنى الاسلام أناس ران على قلوبهم الزيغ ، وطمس عيونهم الباطل ، فهم فى ضلالهم يعمهون ! ٠٠ وقد حسبوا نور الدين يعمل لنفسه فهبوا يعملون ، لا لأنفسهم بل لأعدائهم وأعدائه ، وقد كان البطل النبيل يحاذر أن يمس دمشق وصاحبها بسوء، ولكن رائحة الخيانة كانت تزكم أنفه ، وزاده غيظا وحنقا أن الخائن خاس بعهده فلم يحفظ يده حينما عفا عنه ، وقد كان فى طوقه أن يقذف به الى مطرح شاسع يريح الاسلام من مخاتله المنكرة ذات الثبور والوبال ٠٠وقد

قامت الثورة فى دمشق مرة ثانية يتزعمها العلمـــاء والفقهـاء والأعيان مستغيثين بنور الدين ومن خلفهم النساء والأطفال والشباب ، وذلك ما يثبت أن الحاكم شيء والشعب شيء آخر ! فاذا أراد طاغية مافون أن يخون الاسلام فى موقف حاسم فليس فى ادارته الغاشمة ما يدل على أن قلوب الرعية تكن له بعض الولاء والتأييد ٠٠ اذ يقف بمفرده فى ناحية ، ويقف الشعب تجاهه فى ناحية مقابلة ، والصدور تغلى من الغيظ ، والأنوف تشتعل من الضجر والغمة ، وأهل الاسلام فى كل زمان ومكان لايزالون يحرصون على اعلاء كلمته ، ونشر رايته وان اعترض طريقهم معترض فمآله الى الخيبة والسقوط ، ولعذاب الآخرة أشد وأوجع ٠٠ وقد دخل نورالدين دمشق فأبطل المظالم والمغارم ، ورفع الحيف عن الضعاف ، وجمع القـوة المتساندة الى مقصد واحد لا تثنيها دسيســة كاذبة أو تخويف خداع ، وتنفست دمشــق الصـعداء ، اذ زال عنها كابوس مخيف ســفك الدماء وصادر الأموال وحالف الأعداء ونهب الدور ، وحاك الاثم المفتريات ٠٠ ومن العجيب أن نور الدين لم يبادر بقتله جزاء خيانته ، بل أدركته مثاليته الرحيمة وبذل له اقطاعا فى حمص يقول الأستاذ محمد كرد على فى الجزء الثانى من خطط الشام « وهــذا من غريب ما يحكى فى باب العدل فان الملوك قد جرت عادتهم فى تلك العصور اذا أخذوا ملكا أن يقتلوه ! فلم يفعل نور الدين ذلك تحرجا من اهراق الدماء الحرام ، واستحكام الطوائل والاحقاد فى أمة أشد ما تكون الى التضافر » ونحن نقول تعقيبا على ذلك ان دم مجير الدين ليس حراما كما ذكر الأستاذ محمد كرد على ، فهو خائن عاهد العدو وظاهره واقطعه وأهداه ، وشريعة الاسلام ترى القتل مشروعا لأمثاله ٠٠ فدمه ليس بحرام على الاطلاق ، ولكن نور الـدين يمعن فى التسامح ويميل الى الاغضـــاء ، وقد اســـتنجد الصليبيون باخوانهم الأروبيين فوفدت عليهم الأمدار تأهبا لنزال نور الدين بعـد أن تأثلت قوته واستغلظ عرشه ، ودارت بين الفريقين مواقع كثيرة فى حمص ، وحماة ، وايناس ، وصيدا والبقيعة ، فكان البطل ينتصر وينهزم ، وهو لا ييأس من روح الله فى انكسار ، ولا يستشعر الخيلاء فى انتصار ، وكان ايمانه العميق مددا سماويا يهبط على قلبه بالســكينة والايمان فيزيد من بأسه ، ويدعم من ثباته ، وقد أغناه هذا الايمان الوطيد عن جيش جرار فى حادثة مشهورة بلقاء ، فقد اندفع اليه الفرنجة ذات موقعة فى طوفان لجب دفاق فانهزم جيشه ، وفر متقهقرا عنه ، ولكنه آثر الموت على الحياة ووجد الصليبيون جيش نور الدين ينسحب ، ووقف القـائد فى رهط صغير ٠٠ فحسبوا أنها مكيدة مدبرة ، وأن الكتائب المنســحبة

ستطوقهم من الخلف ، ففزعوا لظن داهم لم يكن فى حسبان أحد ، وطاروا عن البطل مسرعين خائفين ، وكان موقفا عجيبا حرص فيه نور الدين على الموت فوهبت له الحياة ٠٠

هذا ولم تتجه نفس البطل الى مصر المسلمة الا حين أزعجه استنجاد وزرائها بالفرنجة من الصليبيين ثم وصول « امرى » صاحب بيت المقدس اليها ليعين فريقا على فريق ، وليبسط ظله على بلاد ترفرف عليها أعلام الاسلام ، واذ ذاك وجب اقتحام مصر المسلمة ، كما وجب من قبل ذلك اقتحام أختها دمشق ، فالمعركة لم تعد بين مسلم ومسلم ولكنها بين مسلم غيور باسل وطغام من الوزراء والقادة ينتسبون الى الدين الحنيف اسما ويتوجهون الى أعداء الله مجندين مأساة دامية كابد منها نور الدين غصصا اليمة ، وبات معها بحسرة لاذعة ، وهم وجيع ، وقد سارت كتائبه فى حملات ثلاث متعاقبة حتى رسخ قدمها وتقبلها المصريون بقبول حسن ، وأدت ما عقدت عليه العزم من مطاردة الصليبيين وتمزيق شملهم أباديد ٠

لقد حاصر الصليبيون دمياط فركب الهم نور الدين وشغله وأقلق باله وخاطره . ورجع الى المسجد يدعو الرحمن دعوات حارة ضارعة ثم اتجه الى الدرس الدينى يسمعه من عالم فقيه ، وكان فيما ذكره حديث عن تبسم المؤمن ، فاستعبر البطل النبيل وقال فى أسف لاذع «انى لأستحيى من الله أن يرانى مبتسما فى حين أن المسلمين يحاصرهم الفرنجة فى دمياط»

ياجلال المسئولية يحملها شهم باسل فتؤرق عينه ، وتقض مضاجعه ، ولا تزال تتجسم له مصبحا وممسيا ٠٠ حتى تتكشف الغماء بنصر الله وبتأييد المؤمنين ٠٠ وقد أمر نور الدين تلميذه الباسل صلاح الدين فنكل بالأعداء وأخذ يتهيأ لاستكمال الدور الذى مثله أستاذه العظيم ، وقد حدثت بين البطلين جفوة شديدة موحشة قطعها الموت بوفاة نور الدين قبل أن يضطر أحدهما الى قتال تتفرق به الجهود ، ويتضافر معه الأعداء ، وان أجل الله لا يؤخر اذا جاء ٠

مات نور الدين فروع الاسلام بفقده ، وخسرت المثالية الرفيعة رائدا يعتصم بها فى مأزقه ، وتفجرت العيون حزنا عليه وولها به وانا ننقل هنا بعض ما ذكره ابن الأثير عنه اذ يقول فى صدق وانصاف : « لقد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا فلم

أر بعد الخلفـــاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، فقد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، واحساس يوليه ، وانعام يسديه ..

لقد عاش نور الدين ـ مع ملكه وشهرته ـ متواضعا زاهدا ، ومات فما نسى التواضع تاريخه الحبيب ، اذ ظل ـ مع روعته المدهشة ـ فى مراجعه الوافرة ساكنا لا يحلله باحث ، أو يترنم به شاعر أو يصـوره قصاص أديب !! .



صلاح الدين الأيوبي
الفاتح العظيم

صلاح الدين الأيوبى الفاتح العظيم

يقع الكاتب فى حيرة بالغة حين يهم بتسجيل سيرة فياحة لعظيم من عظماء التاريخ ، اذ يجد أمامه مواقف رائعة تتطلب البسط والتحليل، وقضايا هامة توجب الشرح والتدليل ، والمقام بعد لا يتسع لغير النظرة العاجلة ، والتعليق الطائر ، فرجل « كصـــلاح الدين الأيوبى » يرهق مؤرخه ارهاقا عسيرا اذا تحدث بايجاز عن روائعه وخوارقه ، فيضطر اضطرارا الى رسم الخطوط البارزة تاركا وراءها من الدقائق ما لا يتسع المجـال لتوضيحه وتفصـيله ، وفى نفسه اعتراف صـارخ بالاقتضاب الجائر ، وحسبه أن يعلن ذلك لقارئه فيستريح ..

لقد تعددت مظاهر البطولة لدى « صـــلاح الدين » ، فهو شجاع باسل ، يقابل الموت بابتسامة مطمئنة فيصرعه مسلحا بكفايته وموهبته ، وهو سياسى ألمعى يستشف الحوادث فى حجبها المستترة قبل أن تسفر عن وجهها الصريح ، فيأخذ لكل أمر عـــدته ، ويعـد لكل موقف أهبته ويشرئب الى مثل عليا يتنزل بها القرآن الكريم ، ويباركها الهدى النبوى الشريف ، وهو بعد رجل قدر له أن يقود الاسلام فى حرب مقدسة يتكالب عليها الغرب بملوكه وبجيوشه ودوله وأسلحته ! ، وقد كابد صعابا هائلة زادته ايمانا بدينه ووطنه ، وأعطى أعداءه دروســـا بالغة جعلتهم يتحدثون عنه فيطيلون ، فصلاح الدين كان ولا يزال مادة خصبة لمؤرخى الغرب وأدبائه ، فهم يتتبعون مواقفه محللين ، ويلاحقون جهوده مفسرين منذ قدر له أن يقوم بدوره البطولى الى اليوم ، واترك قليلا كتاب التاريخ وعلماءه ممن يتمسكون بالوقائع ، ويستشهدون بالحوادث ثم انظر الى أصحاب الخيال من الشعراء والقصاص ، فقد اتخذوا من حياة البطل الاسلامى مادة دسمة تسعفهم بالمناظر المشوقة والمواقف المدهشة ، وقد صحب الانصاف كثيرا من أقلامهم ، فسجلوا مروءته وسماحته تسجيلا يتردد صداه فى صحائفهم المتتابعة ، أما بطولته الخارقة فلم يجرؤ أشد الأعداء ... اضطغانا على الاسلام أن يحوم حولها بشبهة موهومة ، أو

يغلفها بستار خادع ، فاندفع كتاب أوربا يسجلون للبطل نعمة الله عليه اذ وهبه الاقدام الجرىء والقيادة الرشيدة والبطولة الجبارة ، وأذكر أنى قرأت قصة « لبوكاشيو » فى كتابه (ديكامرون) فلم يكتف كاتبها باثبات سيطرة (صلاح الدين) على الانس وحدهم ، بل جعل الجن أيضا يتمثلون أمره ، ويخافون عقابه ، فهو سليمان آخر يأمر وينهى كما يشاء ، ولم ينس المؤلف أن يلم بأخلاق البطل المثالية ، فقد تحدث عنها حديث العدل والانصاف ، ومهما امتزج الحق بالأسطورة فى قصة (بوكاشيو) فانها تحمل بذور الواقع السافر ، وتومىء بعناصرها الحية الى الحق الصريح وحسبنا ذلك ٠

لقد تربى (صلاح الدين) فى كنف نور الدين ، فورث عنه كثيرا من خلاله الباهرة ، ومزاياه الحميدة ، ورث عنه التقشف الزاهد ، والبعد النازح عن الترف والملاذ ، والاقتصار فيما يأكل ويلبس على الضرورى اللازم مما يقيم الأود ، ويدفىء الجسم ، وقد وفد عليه بعض أعدائه فى سفارة سياسية فوجده فى خيمة صغيرة يجلس على بساط متواضع وبين يديه مصحف ، وعلى جانبه سيفه وقوسه . فقال السفير فى نفسه لاشك أن هذا الرجل موفق منصور فقد تركت خصومه على طنافس الحرير يشربون الخمور ويدقون الطبول وينتهكون المحرمات ولن يهزم عاص مطيعا ٠٠ ؟ وهذا ما كان فقد انتصر صلاح الدين على أعدائه بمراقبة ربه وامتثال أوامر دينه واجتناب ما هو محرم من الله فكان أسوة حسنة ومثلا يضرب للناس ٠

وانك لتدهش دهشة غريبة حين تجد كاتبا جامعيا مسلما يخالف ما توافق عليه المؤرخون فيقول عن صلاح الدين (١) لا يكاد يتشمم ريح خطر من ناحية الا تغيرت نفسه ، وغاضت فيها عيون الحلم والصبر ، وكانت مشروعاته ومطالبه متعددة لا تنتهى ، فكانت حاجته للمال لا تنتهى وكان عماله وجباته من أقسى خلق الله على الناس ما مر ببلدة تاجر الا قصم الجباة ظهره وما بدت على انسان علامة من علامات اليسار الا أنذر بعذاب من رجال السلطان ، وكان الفلاحون والضعفاء معه فى جهد ما أينعت فى حقولهم ثمرة الا تلقفها الجباة ، ولا بدت سنبلة قمح الا استقرت فى خزائن السلطان حتى أملق الناس فى أيامه وخلفهم على أبواب محن ومجاعات حصدت الناس حصدا ٠٠ يقول الدكتور الجامعى ذلك مع أن صلاحا قد أخذ من مال الفداء يوم المقدس مائتى ألف دينار وعشرين

---

(١) الدكتور حسين مؤنس . مجلة الثقافة العدد ٤٦٢ ٠

ألفا فوقها ففرقها على العلماء والأمراء والفقراء ، وأطلق كثيرا من الفقراء بدون فداء ، وأغضى عن جواهر الصليبيين وحليهم فلم يعرض لها بسوء مما لا يصدر عن أرقى رجل مهذب فى القرن العشرين ، وقد خرجت ابنة الملك « امرى » تحمل صلبانها المذهبة وحليها اللامعة المتوهجة وهم أصحابه بها فحال دون ما يبتغون ، بل ان بطريرك القدس جمع أموال البيع والكنائس فى صناديق مقفلة وأخبر بها صلاح الدين ، فقال: لايجوز أن نفجعه فى ثروته ، فليفعل بها مايشاء ؟ فليت شعرى ، أيكون السلطان بعد ذلك لا يترك انسانا من المسلمين تبدو عليه علامات اليسار الا أنذره بالوبال والعذاب ! لنتأمل ما سطره الدكتور المسلم ولنقرنه بما ذكره مسيحى أوربى هو صاحب كتاب « تاريخ المؤرخين » اذ يقول ما ترجمته « ولقد كان من شدة كرمه أن عماله كانوا ينكرون عليه المال حتى اذا جاءت ساعة الحاجة اليه أخرجوا له ما يريد ، وهذا من كثرة بذله وعطائه ، وكان من عادته أنه اذا استولى على مقاطعة من المقاطعات نشر أعلام كرمه وسخائه على أتباعه وسكان الجهة ، فملك بذلك رقابهم ، ولما استولوا على دمشق لم يأخذ لنفسه شيئا من خزائنها ، بل وزع كل ما وجد على الأهالى ـ يحترم كل من فى خدمته ، ويعاملهم معاملة لينة ، فاذا وقع من أحدهم ما يسيئه كتمه ولم يظهره ، أما مجلسه فكان طاهرا لا يجسر فرد على أن يقول سوءا فى جار له ، ولم ير يتيما الا تحركت فيه عاطفة الشفقة والحنان عليه ، وكان فوق هذا محبا لأولاده وأهله ، وكثيرا ما شارك أطفاله فى لعبهم ، وكان يحب العدل ويعاقب كل من خالف أحكامه ، فكان يجلس للمظالم بنفسه مرتين فى الأسبوع للغنى والفقير ، فى حله وترحاله ، وفى سفره ومقامه . »

ولو شئنا أن ننقل كثيرا من النصوص المسيحية لغير هذا الكاتب المنصف لضاق بنا القول ، دع ما تفيض به الروايات الاسلامية من باهر المزايا وروائع الخيال ، مما لا نجد معه عذرا لكاتب يتخيل واهما ثم يسطر تخيله الموهوم ليقول بعض الناس .. انه منصف معتدل لا متعصب ممالئ !! وهو فى الواقع يتعصب على قومه بما برىء منه أكثر الأجانب اعتصاما بالحيدة والعدالة ، وايثارا للحق النزيه .. وسنتابع صلاحا فى مسرح حياته لنشهد فى سرعة طائرة كيف مثل دوره الرائع ، فأصبح رجل الشرق ، وبطل المسلمين !

كان نجم الدين أيوب والد صلاح بطلا كريما ، نشأ نشأة عصامية ، فأبرز كفاية نادرة أفسحت له طريق الرياسة ، فصار محافظا لقلعة

تكريت فى عهد السلاجقة ، ثم تقلبت به الحال حتى اتصل بنور الدين ، ووجد فى غزواته وفتوحه ميدانا لبطولته ، فتألق نجمه فى سماء المجد ، وعرفته الحروب كميا باسلا يعتمد عليه حين يتأزم الموقف ، وينبهم المسلك، وقد نشأ فى كنفه ولده صلاح ، فشب على ما يشب عليه أبناء القادة من حب للكفاح ، وولوع بالنضال ، وقد رأى نور الدين مثلا حيا للبطولة الاسلامية فى هيامها بالعزة وترفعها عن السفاسف والأهواء ، فاشترك فى غزواته ، وتأمل عن كثب ما يصطرع فى الميدان العربى من قتال دام يتفهم بواعثه ، ويعرف دواعيه ، فتفتحت عينــــه البصيرة على كتــائب الفرنجــة تفد كالسيول الجــارفة من مواطنها النازحة لتدنس مواطىء العروبة والاسلام ، وتضع نير العبودية فوق الأعناق غير عابئة بكرامة الآدمى وحقوق الانسان ، هذه النشأة المبكرة فى حلبة الكفاح وحومة النضال قد وجهت النشء اللدن الى مبدأ مقدس يهيم بتحقيقه ويسعى لبلوغه ، فاندفع الى الحومة الحمراء مهاجما تارة ، ومدافعا تارة ، وسمع من والده ما أشعل فى صــــدره الحمية والفداء ، فاتجه معه الى ساحة نور الدين يصدران عن رأيه ، ويتمسكان بخطته ، حتى تكشفت الأيام عن بطولة جديدة تتفتح فى أكمام هذا الناشىء الطموح ، فطفق نور الدين يمد يده اليه ، ويدعوه الى مجلسه ، ويستشيره فى أمره ، ويزداد الفتى ثقة بنفسه ، فيشــــير بالخطة ، ويصحب أستاذه العظيم فى غــــدواته وروحاته ، وقد يشترك معه فى حديث علمى بمجلس حافل يحضره الأئمة من الفقهاء والعلماء ويتصـــــدره نور الدين مصغيا لما يروى ، ومناقشــا ما يقال ، وبذلك وقر حب العلم فى نفس الفتى الطماح ، فنهل من ينابيع الشريعة ، وعكف على دراسة سير القادة من صدور هذه الأمة وأمدته الأيام بنخبة من كرام الأساتذة فأصبح رجل علم وتفكير كما هو بطل رمح وحسام ..

هذه النشأة المباركة تجد من ينكرها من مغرضى المؤرخين فيزعمون أن سيرة صلاح الدين الأولى لا تعرف على وجه التحديد ، ويذهبون الى تضعيف الروايات المتواترة ، وتحقير الاسانيد المتتابعة ، فلنترك معهم الروايات والأسانيد جانبا ، ولنقل انه ابن بطل حربى وجليس أمير عظيم ، وربيب وطن محارب يزحمه الأعداء ويتربص به المتربصون أفلا تكون هذه البيئة وحدها كافية لانبعاث همته واتقاد طموحه ، فيكون فى نشأته الأولى ملتهب الغـــيرة ، متأجج الحماســـة ، وهل يعقل أن تكون خواتيمه الرائعة نتيجة بدون مقدمة ، وغاية بغير سبيل ، انك فى دنيا الادب للحكم على شاعر بالابداع لقصيدة فذة يقولها قوية رائعة فتتأكد

أنها وليدة ثقافة عريضة ، وعاطفة متأججة أفلا تحكم فى دنيا السياسة على بطل فذ قد تعددت غزواته وبهرت فتوحه بأنه لقن أعمال الحرب فى نشأته ، وشاب على ما شب عليه من هيام بالفتوح والانتصار ٠٠

لقد صمم أسد الدين على أن يصحبه معــــه فى غزواته الثلاث الى مصر ، ولو لم يقدر قائد الحملة فى صلاح الدين بطولته الرائعة ما صمم على اصطحابه ، وفى مصر العزيزة كان اول مجد يسجله صلاح الدين ويدونه التاريخ تدوينا لا تناله الأراجيف ، فقد استطاع فى الغزوة الأولى أن يبث روح الحمية فى بلبيس ، فيضمن النصر لجيش يحاربه العدو ويجانبه الصديق ، أما فى الحملة الثانية فقد صار قائدا معلما يسير على رأس كتيبة مرموقة ، وينفرد بالمحاصرة والهجوم ، وقد اعتمد عليه أسد الدين فى غزوة الاسكندرية فتقدم اليها ظافرا ، وأقام الحصون والقلاع ، وثبت بها فى رهبة الحصار ، وقلة الذخيرة ، ونفاد القوت حتى استطاع أن ينجو من مأزق يتعثر به المهرة من القواد ، فكسب قلوب أبناء الثغر ، وكانوا له فيما بعد جنة سابغة ، ودرعا واقية لا تقدها الرماح ! ٠

مضت الحملتان الأوليان وجاءت الحملة الثالثة ليستقر أصحابها نهائيا فى مصر ٠٠ ذلك ما عــــزم عليه نور الدين حــين رأى الفرنجة يحتلون ديار الاسلام فى وادى النيل ، ويجدون من خونة الوزراء من يفتح لهم الطريق ، ويمدهم بخيرات مصر وزروعها وتجارتها وذهبها ! وأى مطمع لملك الفرنجة أكثر من أن يجد مصر فى قبضة يده تمنحه الخصب والأمن فتطعمه من جوع ، وتدفئـــــه من برد ، وأية حسرة تعتصر قلب نور الدين حينما يجد أعداء الاسلام يحاربونه بأسلحة مصرية ، ويقومون على قتاله بخيرات تتســـاقط بها حقول النيل ! لابد من تملك مصر تملكا يعصمها من الصغار والهوان ، ومن لهـــا غير أســـــد الدين ونجم الدين وصلاح ٠٠ أولئك القادة الغر من بنى أيوب الذين أشربوا روح التضحية والفداء ، وهم بعد أولو خبرة بمصر ودراية تامة بمدنها وحصونها ، بل ان بينهم وبين المصريين من وشائج الحب والاخلاص مالا يقدر على فصمه خليفة وصولى أو وزير خائن !! ٠ ليذهب أســـــد الدين ثالثة الى مصر وليجعل صلاحا مستشاره الأول وليتقربا معا الى شــــعب مسلم أعزل يبادلهم عواطف الحب والاخلاص ، ولتندحر الجيوش الصليبية مقهورة ذليلة تاركة عملاءها من الخونة يعضون بنان الندم آسفين خاسئين ، لقد ملك أسد الدين الزمام ، ومال الى التسامح ، فعفا عما سلف من الغدر والعقوق ، ولكن « شاور » الخائن لا يهدأ له بال ، فهو يتآمر على جنود

الاسلام من جديد مكاتبا أتباعه من الفرنجة ، بل يذهب فى الخيانة الى أبعد مدى يتصوره انسان ، فيدبر مكيدة لاغتيال أسد الدين وابن أخيه ، والله أرأف بمصر والاسلام من أن يتحكم فيهـــا خائن أثيم ، فقد شاءت السماء أن تكشف المؤامرة الخاسئة ، وأن يأخذ صلاح الأهبة فيزحف على عدوه الآثم مكبلا يده ورجله ثم يسوقه الى الخليفة الفاطمى فيصدر أمره بقتله وترتاح الكنانة من أفعى خاتلة تنفث الســـموم القاتلة دون ضمير يؤنب ! لقد تمكن صلاح من خصمه الألد فانقشع ظلامه عن الوادى لتأتلق بعد شمس أسد الدين فى أفق الوزارة ، وليتسلم القوس باريها الحصيف ..

ثم ماذا ؟ لقد اتهم بعض المغرضين صلاحا اذ ائتمر بشاور ، وهم يعلمون أن من انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، ولكن الغرض يعمى صاحبه فيدافع عن مجرم آثم تنكر له ذووه ، وتبرأ منه نجله الكامل شجاع بن شاور فأعلن على الملأ خيانة أبيه ووشى الى صلاح بما يدبر من دسيسة واغتيال ، فكان النجل الطاهر مثال الانسانية الرفيعة فى أقدس معارجها الشماء ، وحمل له التاريخ نفحة عبقـــة تهب نسائمها معطرة بالرحمة والرضوان ، أولئك قوم كتب فى قلوبهم الايمان .. يالله .. كم فى صحائف التاريخ من غرائب خارقات ؟! .

صفا الجو فى مصر فأسد الدين وزيرها المغوار يقوم بأمر الاسلام فيها ، فيشفى صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم بما ضمد من جراح وآسى من كلوم ، حاسبا أن الدهر سيسعفه بأمد فسيح يمتد به حبل الحياة ، ولكن أجل الله اذا جاء لا يؤخر ، فقد انتقل الى جوار ربه بعد ثلاثة أشهر من وزارته ، وانفجرت بالدموع عيون ، وتأججت زفرات وأكباد ..

مضى أسد الدين وخلفه صلاح مضى أسد باسل ليحتل مكانه شبل جسور ، ان السماء هى التى ألهمت نور الدين الموافقة على هذا الاختيار ، فالوزير الجديد فى حلقته الثانية والعشرين من عمره السعيد ، وحواليه من القادة من يكبره سنا وتجربة وادراكا ، وقد يقول قائل ان العاضد الوصولى قد اختار الشاب الصغير كيلا يستطيع ادارة الأمر وحده ، فيلجأ اليه فى كل شأن عسير ، وسواء أكان ذلك أم سواه فقد أثبت الشاب الباسل كفاية نادرة وتمت نعمة الله عليه فى فضلها العميم ، ولن يفوتنا موقف دقيق يمر عليه المؤرخون مسرعين ، ونقف عنده قليلا نستوضح دلائله وطواياه ، فقد نظر صلاح الدين الى والده نجم الدين وقد أصبح

رئيسا عليه فتعاظمه أن يقعد فى مكان يستحقه أبوه فى تقديره ومرآه ، ماذا يصنع وعواطف الوفاء تخلع عليه حرجا يستشعره ، ويحـاول أن يفر منه فلا يقدر ، انه يتقدم الى أبيه فى خشوع واكبار فيصارحه بأنه يدل اليه الامر فعليه أن يصدر مايريد ، وعلى صلاح المبادرة بالتنفيذ ، ثم يزيد فيعلن أنه سيتلقى وحيـــه فلا يعجل باصدار أمر دونه ، مهما وضحت الجادة واستقام المذهب ، ويرى الوالد وفاء نجله ، فيسر فى نفسه فرحة قوية يحس لها كنشوة السلاف ، ثم يصيح من أعماقه كلا يابنى ! فوالله ما غربت عنى شمس سطعت أضواؤها عليك ، امض كما تشاء فى طريقك ولن أبخل عليك ، بدمى ورأيى مدى الحياة ٠٠ وسارت الايام وصلاح يفىء الى والده نجم الدين مستظلا بوارف رأيه ، والأب الحنون يبذل نصيحته وقوته فى صلاح الأمر ودوام السداد ، بل انه كان يعارض ابنه على مسمع ومرأى من الناس ، فلا يجد غير الاذعان المخلص ، والسمع المطيع ، وقد وثق كلا البطلين بسريرة صاحبه فأصبح خلاف الرأى مدعاة الثقة الكاملة والحب الأكيد ٠٠

لم يسر صلاح الدين لأول عهده بالوزارة فى طريق مفروشة بالورد والريحان ، فقد تكاثرت دونه عقبات تعترض راحته وتكدر صفاءه ، وقد بذل جهده الجـاهد فى تذليل الجامح ، وتسهيل الوعر ، ومصـــانعة العاصفة ، فلجأ الى الشعب المصرى يستميله بتخفيف الضرائب ، وانعاش الاسواق ، واعداد المؤن والأقوات ، وكان الفرنجـة قد فشلوا فى تقدير قوته ومكانته ، فشنوا على دميــاط هجوما صليبيا جديدا ، وتوافدت سفائنهم تحمل الذخيرة والعتاد ، ويقذف جنودها بالحمم على ديار الاسلام فى دمياط وما جاورها من الأصقاع ، فهرع صلاح بكتائبه الباسلة الى منازلة الأعداء ، ولم يأل البطل جهدا فى الدفاع والاستبسال ، فقد كان الفرنجة عظيمى الآمال فى النصر ، ويرون فى الاستماتة سبيلا الى زعزعة مكانة صلاح الدين ، وأنى ذلك ؟ فقد تغلب الجيش الاسلامى على عدوه المغير ، وعاد صلاح الى القاهرة وحوله جموع الشعب تهتف بحيـــاته ، وتعتز ببسالته مما أضفى عليه الثبات والاستقرار ، وجمع حوله الخول والأنصار ٠

ولكن الحق لا يعدم أعداءه ، فقد عز على مؤتمن الخلافة أن يصفو الأفق للوزير الايوبى ، ورأى فى انتصار دمياط دعامة قوية يقوم عليها صرحه المكين ، فلجأ الى الخيـــانة الدنسة مكاتبا ملوك الفرنجة ، وباذلا وعوده ومغرياته ليعـــود الصليبيون الى القـــاهرة من جديد ، وشاءت

المصادفات السعيدة أن تقع الرسالة المريبة فى يد جندى أيوبى غيور ، فتقدم بها الى صلاح الدين ، ونظر البطل فاذا أصدقاء الظاهر ألداء الباطن يدبرون المكايد ، وينصبون الفخاخ فحسم طريق الشر ، وقتل الخائن الآثم قتلة بلقاء أثارت دويا فى أتباعه من جنود السودان . فجاهروا بالعصيان ، وتنادوا بالثورة ، ولكن الشعب المؤمن من وراء بطله الباسل يعاضد قوته ، ويؤاز بطشه ، فلم تكد عاصفة الشر تثير الغبار قليلا فى وجه صلاح الدين حتى قابلها بعاصفة ملتهبة قوية فألقى على أعدائه أنجع درس وأقساه وتفرق العصاة أباديد يتلمسون سبيل النجاة ولا سبيل ٠

ثم انتقل القائد الباسل الى فلسطين فقاوم الفجرة من الفرنجة مقاومة رهيبة ، وأمن الطريق للحجاج من الشراذم العابثة ، ورجع الى القاهرة تسبقه أنباء بطولته ، وأخذ يتفرغ للاصلاح الداخلى بهمة دائبة ، وعزم نشيط ، فشيد دور العلم ، وعمر مساجد العبادة ، وأقام مدرستين لتدريس المذهب السنى ، ولم يكن ذا رغبه ملحة فى القضاء السريع على المذهب الشيعى ، مراعاة لبعض الظروف راستمالة لكثير من القلوب ، ولكن نور الدين وهو رئيسه الاول قد كتب اليه فى ذلك متعجلا ملحا ، فخاف أن يتباطأ تباطؤا تسوء عاقبته لدى نور الدين فدعا للخليفة العباسى على المنابر ، وطفق الدعاة ينشرون عقائد أهل السنة ٠٠ وقد شاء الموت أن يختار العاضد فى هذا الظرف المحرج ، فسقطت بموته الدولة الفاطمية دون أن يتعجلها صلاح الدين بضربة حاسمه ، وسارت الريح رخاء تبشر بالحظوة والاقبال ٠٠

أخذ الوزير فى اقامة الخطوط الدفاعية عن مصر ، وطفق يقارن العاصمة بحواضر الشام ، فلم يجد لها قلعة يعتصم بها الجيش فى ساعة الخطر ، بل كانت أبواب القاهرة مفتحة تدعو الغازى الى احتلالها دون عرقلة وتعويق ، فشيد القلعة الحصينة التى تشتهر باسمه الى الآن ، وأقام سورا كبيرا يشمل الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة المعزية ، وبذل فى ذلك جهدا يعتصر القوة ويشرد الراحة والاطمئنان ، وليته تفرغ لرسالته العمرانية دون ما ضجة وانزعاج ، فقد انتبه ذات يوم على مؤامرة سياسية للعصف بالدولة الأيوبية واسترجاع الدولة الفاطمية بمعاونة الخونة ومكاتبة الفرنجة ٠٠ فأراد أن يلقى درسا بليغا على العصاة من المؤتمرين ، فشنق رءوس المكيدة وأعوان الخيانة وضرب بذلك المثل الأليم لمن تحدثه نفسه بزلزلة مخيفة تعصف بالأمن الهادىء ، وتستعيد الشقاء البائد فى ركب الوصوليين ٠٠

وقد ألف الكتاب أن يتحدثوا عن موقف صلاح الدين من سيده نور الدين حديثا لا يخلو من مبالغة وتهويل ، ونحن لا نبرىء صلاحا من هيامه بمصر ، وعمله على الاستقلال بهــا ، فهو قائد طامح يحلم بالمجد والنفوذ ، ولكننا نؤكد أن البطل الأيوبى لم يستطع أن يجابه سيده نور الدين بكلمة مؤذية أو رد غير مهذب ، بل ظل يدين له بالخضوع والولاء ، وقد شاء الله أن ينقذ العالم الاسلامى من شقاق مدمر تنفجر قذائفه بين البطلين العظيمين ، فاختار لنور الدين جنته ورضوانه ، ووجد صلاح الدين الميدان خاليا بعد سيده العظيم ، فحمل رايته ، وسار فى سبيله الى أقصى الطريق • ونحن حين نقارن بين الرجلين العظيمين نعترف أن نور الدين كان قديسا مثاليا لا يتعلق بأضواء المجد ، وبوارق العظمة ، ولكن صلاحا كان بطلا واقعيــا له أحلامه وآماله ، ولديه هواتف حارة تجذبه نحو الأضواء والبوارق ، فاذا ارتقى نور الدين مستوى المثاليين فى أوج الملائكة فقد رفرف صلاح على هامات البشر دون أن يسف الى سفح منحدر ، أو يقع فى هاوية بهماء •

هذا الفارق بين الرجلين يفسر سياسة كليهما فى معاملة الأمراء والأتباع ، فنور الدين كان لا يحرص على ضم مدينة اسلامية الى مملكته ، واذا رأى من حاكم اسلامى مراوغة فى حق أو جنوحا الى باطل طوى الضلوع على حسرة كظيمة دون أن يجرد لذلك وحده سيفا باترا أو يسفك دما فائرا ، أما صلاح الدين فقد جعل من همه استئصال كل مراوغ ، ومصارعة كل محتال ، كما وحد جميع مدن الشام ومصر تحت قيادته ليقف المسلمون صفا واحدا من خلفه ، وقد عادت سياسته هذه بكثير من الفوز والنجاح ، ولو دقق الباحث فى فهم محاولاته السياسية فى الوحدة الاسلامية لرأى له عذرا يذكر فيحمد ، ومجهودا شاقا قام به فى تضحية واستبسال •

لقد انتفضت مدن الشام انتفاضة مرتجفة بعد موت نور الدين ، اذ ترك الراحل العزيز نجلا صغيرا لا يثبت للزعازع ، فطمع الطامعون فى ملكه ، واستقل كل حاكم ببلده ، وقامت فتن وثورات داخلية بين أمراء المسلمين كل يحاول أن يزيد فى رقعته ، ويفسح فى مملكته ، مصطنعا أحط أساليب الوقيعة والاستهتار ، والفرنجة من الصليبيين يصفقون للخلاف المشتجر ، والنزاع المشتبك ، ويرون فى ذلك حربا تدور على المسلمين ، فتعصف بريحهم وتمزق قوتهم ، دون أن يراق فيها دم صليبى ، بل ان بعض الخونة من الأمراء قد حالف الفرنجة واتخذ من صاحب بيت

المقدس ظهيرا يأوى اليه فى الشدة ، ويدفع الجزية الصاغرة كى يحمى عرشه بسيوف الأعداء ، واضطر آخرون من الخونة أن يحالفوا مليكا صليبيا آخر أفزع صلاح الدين وضايقه . فأخذ يراقب الحوادث فى ثورة لا تهدأ ووسواس لا ينقطع حتى اذا جاءه كتاب بعض الأمراء يستعين بحوله وقوته انتهز البادرة اللائحة وجمع قوته الموفورة وخف الى بلاد الشام يتدارك الفيضان المدمر ، فيقيم على سواحله الشواطىء المنيعة قبل أن يفيض أتيه المزبد فلا يدع من شىء الا أتى عليه ٠

سار صلاح الدين الى بلاد الشام مصمما أن يجعل من قطعها المتناثرة جيشا متماسكا يأوى اليه اذا حزب الأمر ، ولم تكن سبيله ميسرة ممهدة ، فقد تحالف الامراء على قتله وصادق العدو العدو ليقفا صفا واحدا أمام المهاجم المغير ، ودارت معارك وحروب شملت أمراء الموصل وحلب وسنجار ودمشق وحماه ، وغيرها ، وانتهت بانتصار صلاح الدين فأصبحت الشام ومصر كلتاهما فى قبضته ، وتوحدت الجبهة الاسلامية توحدا زادها قوة رهيبة ، ولم يأل الرجل فى التحبب الى رجال الشام ومصانعتهم ليزيل ما علق بنفوسهم من حروبه فأكثر من الهدايا والتحف ، وبادر بالاصلاح الداخلى السريع ، وأحس الغيورون على مستقبل الاسلام بارتياح منعش ، ولكن الذين فى قلوبهم مرض لم يقدروا الموقف تقدير المشفق الحريص ، ولم يستطيعوا مجابهة البطل سيفا لسيف ، فعمدوا الى التآمر مع الاسماعيلية على اغتياله والاسماعيليون حينئذ يعتصمون بالقلاع ويتدرعون بالدسيسة والشكيمة والاغتيال ، ورئيسهم « سنان » يتظاهر بالخشونة والتقشف ، ويطيل لحيته ويقف على قمة الجبل نهارا ليلقى مواعظه ، فاذا جنه الليل لجأ الى دسائسه الخاتلات ، وقد أصدر أمره باغتيال صلاح الدين ، فتوجه جند من شيعته الى خيمته حتى اذا أنسوا بعض الغفلة من حرسه انكفأ أشجعهم عليه بخنجره طعنا وتمزيقا ، والبطل يحتمى بدروعه تحت ثيابه وغطاء رأسه ، فلم تصادف الطعنات مقتلا منه غير دماء نزفت من خده ، ولكن حرسه الباسل قد ثار له فاندفع الى الخونة يسومهم القتل والاستئصال ، وعرف البطل أعداءه من المسلمين فأخذ لنفسه الحذر ، وأيقن أنه نجا من الموت المحقق ليتم رسالة الاسلام فى سحق الفرنجة من الصليبيين ولن يثنيه عن ذلك تربص واغتيال ، فقد توحدت الجبهة الاسلامية تحت لوائه ، وأصبح البطل المرموق والقائد المهيب ٠ لقد دق ناقوس الجهاد ، وعليه أن يبادر باستئصال هؤلاء العابثين ، وأنى له ذلك وبين الفريقين هدنة تمتد الى أربع سنوات ٠٠ وصلاح الدين وفى أمين لا يخيس بذمة ، ولا يغدر بعهد، ولكن أصحاب الخيانة يبدءون بالغدر،

فيقوم صاحب الكرك بقطع القوافل على الحجاج من المسلمين فيسبى النساء ويقتل الرجال ، وقد زاد فى وقاحته فأخذ يسب الدين الاسلامى ويشهر بالرسول العظيم ، ويتوعد بالاستيلاء على مكة والمدينة وابادة ماتضمان من مقدسات ٠٠ ويطير النبأ الى صلاح الدين فيحقق أمنيته العظيمة فى الكفاح، وينادى بالتعبئة الحربية فى مصر والشام ، فيتدفق ذوو العقيدة الى القتال مستبسلين ويرى الفرنجة فى الجيش المغير طوفانا مرعبـــا ينذر بالويل والثبور فتتجمع وتتكتـــل كتائبهم لتقف فى طريق الزاحف المغير ، وقد أعملوا الحيلة قبل الالتحام ، فعزموا على احتلال منابع الماء ليكون العطش سلاحا قاتلا يشهرونه على المسلمين ٠ ثم بدءوا بالهجوم غير عابئين ،ودارت معركة رهيبة بين قوى متعادلة متقاربة فتوجه الافرنج الى طبرية لينفذوا الحيلة المدبرة ، ولكن صلاحا يسرع الى احتلالها ويقوم باحراق مابها من المساكن ، ويحتل مياهها احتلالا لا يدع بها منفذا لطامع ! أى شىء هذا ٠٠؟ لقد صمم القوم على اهلاك المسلمين بالظمأ ، فأصـبحوا يتساقطون صرعى العطش المحرق ، وملك المســـلمون موارد الماء فعظمت حميتهم وارتفعت الروح المعنوية لديهم ارتفاعا عجل بالنصر السريع ، وها هم أولاء الفرنجة يتركون طبرية ويتسللون الى تلال حطين فيقيمون خيمة لملكهم الشريد ، ويتجمعون حوله مستميتين وجنود الاسلام تتعقبهم الى خطوطهم الجديدة فتدور رحى الحرب من جديد ماحقة ساحقة ، ويتســاقط صرعى الفرنجة هالكين ، وفى قلوبهم حسرات تفعل مالا تفعل السيوف والرماح ، وتحين السـاعة الفاصلة فيهـزم الجمع ويؤسر الملك « جفرى » وصاحب الكرك « ارناط » وأمراء القوم وعليتهم وتسقط الامارات اللاتينية متخاذلة مترنحة، ويجلس صلاح فى خيمته ليرى ملك الفرنجة أسيرا يلوحه الظمأ فيسقيه الماء المثلوج ويهم الملك جفرى بسقيا صاحب الكرك البرنس ارناط ، فيأبى صلاح الدين يذكر ما تهدد به ارناط المسلمين حين سب نبى الاسلام ، ووعد بالاستيلاء على الحرم الشريف ، وذبح الرجال واستحياء النساء غادرا بالعهد والمواثيق ، ثم يقوم الى سيفه فيحتز رقبته ويرتعد الملك وأمراؤه هلعا فيطمئنهم صلاح الدين على مصايرهم المتعلقة بمشيئته ، ويرســلهم الى دمشق فى اكرام واحتفاء بالغين ثم يقتل فريقا من الأسرى نكالا بما كانوا يصنعون ٠٠

أصبح صلاح الدين بعد موقعة حطين مبعث البهجة والفرحة فى قلوب المسلمين جميعا ، فانضم اليه من خامره بعض التردد فى الالتحاق بجيشه فى حين انذعر الأعداء ، واضطربت قلوبهم رعبا وهلعا فما يكاد يهم بمدينة من مدنهم الحصينة حتى يتفرق أهلها مذعورين هائمين ، وكان السلطان

يسبغ على أعدائه النافرين عطفا وتسامحا فلا يهم ببطش أو عدوان بغير موجبه الاكيد ، مما جعل الألسن البغيضة تتحول الى ثناء فواح على شهامته ومروءته ٠٠

وكانت عسقلان بحاميتها القوية وموقعها الحصين عقبة كأداء فى طريق بيت المقدس ، فحاصرها بعد فراغه من عكا مباشرة ، وترك مدينة صور دون حصار ، ولو وجه اليها همته الباسلة لسقطت فى يده ، ولكن عزوفه عنها جعلها شوكة دامية فى جنب الاسلام ، اذ تجمع حولها النافرون وأصبحت فيما بعد مهب خطر يتهدد المسلمين بين الحين والحين ٠٠ وذلك خطأ حربى يوجهه الكاتبون الى صلاح ! ٠ ونحن لا ندعى له العصمة فى شىء ، ولكنا نقول لعله أراد أن يتفرغ لها بعد بيت المقدس فتنهار قوتها المعنوية وتضطر الى التسليم دون جهد كبير ، وكثيرا ما يرسم القائد خطته الحصينة وتأتى الرياح بما لا تشتهى السفن برغم الحيطة والحذر ٠ لقد فرغ البطل من عسقلان وأسلمت اليه مقاليدها ففتحت الطريق الى بيت المقدس ، وهو يومئذ حرم حصين مقدس تفتديه المهج والأرواح ، وكان فى نية البطل أن يدخله دون حرب احتراما لقداسته ، على أن يترك ما فيه من الفرنجة يرتحلون عنه آمنين مطمئنين وأنى له ذلك ٠٠ ؟

والصليبيون يرون الدفاع عن طريق المغفرة والرضوان ، وما تركوا أوربا مغتربين ونزحوا الى آسيا مجاهدين الا هياما به وذودا عن حرمه الرفيع ، لقد خاب رجاء صلاح الدين فى المسالمة ، ودارت الحرب الطاحنة دون هوادة أو نكوص ، وتلمس البطل أسباب النصر وحيله فهاجم المدينة من مكان غير مرموق ، وتدفقت الجيوش الاسلامية الى المعقل الحصين ، فقامت الصلوات ودوى التكبير ، وتردد الآذان فى كل مكان ، وانتظر صلاح الدين فلم يدخل المدينة حتى خرج منها جميع الصليبيين ، وقد غمره شعور انسانى كريم ، فلم يقرر الجزية على غير رجال الجيش وأذن للأهالى المسيحيين بالاقامة فى أملاكه ، ومن أراد الرحيل فليحمل معه ما شاء من الذخائر والأموال دون اعتراض ٠٠ ! وذلك سلوك مهذب لم يكن ليصدر عن غير انسان رحيم ، بل انه رأى عددا من الفرنجة يحملون آباءهم الضعفاء على ظهورهم فدمعت عيناه وأثر فى نفسه هذا المنظر الحزين أشد التأثير فأمر لهم بالمال الجزيل ، ووزع عليهم الدواب لتنقلهم الى أماكنهم سالمين ، أما معاملته للنساء فقد كانت مضرب المثل فى الحنان ، ولا تزال الروايات الصليبية تزدحم بنوادر خارقة عن صلاح الدين ، وأذكر أنى قرأت قصة كبيرة لكاتب أوربى مسرحى تدور حول انسانية هذا الرجل العظيمة ، فقد ذهبت اليه بعض الصليبيات تطلب ولدا خطفه

بعض المسلمين فأمر بالبحث عنه وراقب الأمر بنفسه وأحضر لها الطعام والشراب حتى رجعت قريرة العين تصحب ولدها السليب ، وحينما رحلت الملكة « سيبيل » عن بيت المقدس ودعها فى محبة واجلال . وقد تبعها عدد كبير من الباكيات يحملن أطفالهن ويسألن عن أزواجهن ، فتأثر البطل تأثرا أليما وأمر باطلاق الأسرى دون فدية ، فالتأمت الجراح ونامت العيون ، فاذا قرنت هذه الصور الوضيئة بما ارتكبه الصليبيون حين فتحوا بيت المقدس ، فقد اندفعوا كالوحوش يذبحون النساء والأطفال والشيوخ حتى ألقى المسلمون بأنفسهم من فوق الأبراج منتحرين ، وتدفقت الدماء فى شوارع القدس حتى خاضت خيولهم منابعها مخضبة ملطخة تنادى عليهم بالفضيحة والشنار ، هذا ما يقوله مؤرخوهم من أمثال « ميشود » لا مانقوله نحن ، فأين الرحمة الانسانية من القسوة الوحشية الضارية ، بل أين أحقاد الصليبية الثائرة من تسامح الاسلام الرفيع ؟

سار صلاح بعد ذلك الى « كوكب » ثم الى « طرطوس » ثم الى اللاذقية ثم الى كاس ثم الى غراس ، وكان النصر يحالفه فى مسيره السريع، غير أن الحملة الصليبية الثالثة التى نفرت من أوربا بعد سقوط بيت المقدس جمعت حولها الفلول المنهزمة من الفرنجة ولفظت أوربا الى الشرق ما تضمه من ذخائر مبيدة وعدة قاصفة ، فاستعان بها القادمون والمنتظرون على مهاجمة بعض الحصون ، واستعادة ما تمكنوا منه من القلاع ، ولم يستطع صلاح الدين أن يجبر عسكره على النضال بعد صراع مديد أورثهم الملل والضيق ، فعقد صلحا مؤقتا وفى نفسه حسرة ممضة ، ثم فاجأته الحمى القاتلة فقضى نحبه بدمشق فأصاب المسلمين من الحزن والأسف والكمد ما يفرى الضلوع ويفجع النفوس .

مات صلاح الدين وخلدت الوقائع بطولته النادرة ، وسطرت الأيام خلاله الباهرة ناضرة تنفح بالأريحية والوفاء ، وضيئة تتألق بالبشر والسماح ندية تقطر بالرحمة والحنان ، كان مثال التواضع والاخلاص بنى له فى دمشق منزل فخم تحرسه الأبهة ويحوطه الجلال فنأى عنه بجانبه وقال : هذا منزل يشتاقه طالب الحياة ونحن طلاب شهادة فى سبيل الله ، وتوفى عن سبعة وأربعين درهما فى بيته يملكها أحقر صعلوك فى بلاد الاسلام ، وقد كان ذهب الغنائم يتدفق عن يمينه فلا يحفل ببريقه الخلاب ، فهو يهب الأقاليم بزروعها وخيراتها لمن يأنس فى ترضيه رأب الصدع وجبر الجروح ، ويجلس مجلس القضاء مرتين فى الاسبوع ، فيستمع الى الشيخ الكهل ، والأرملة المحزونة ، والصبى اليتيم ، ويسامر أقل جندى فى جيشه ، كما يسامر أميرا يستظل بالسيوف ويستعين

بالقوى والعتاد ، ويروى ابن خلكان أنه رتب أوقافا كبيرة جعلهـــا تحمل أسماء جنوده دون أن يقرن اسمه بأثر جليل أو مسجد حافل ، ولعمرى مامات من فعل كل ذلك ، بل اننا اليوم على تراخى الأمد ، وتناسل الحقب نعطر الصحف بحديثه ، ونحيا بذكره ، ونأمل أن ينهض فينا من ينتصف للشرق المظلوم من الغرب المفترى كما انتصف صلاح الدين من المسيحية المعادية للاسلام السمح الكريم ٠



الملك قطز

فارس معركة عين جالوت

نعتقد صادقين أن للاسلام الغلبة والبقاء مهما تألبت عليه قوى الشر وعناصر الفساد ، وتلك الحقيقة السافرة هى التى تضطرم لها أوربا غيظا وحنقا ، فقد جاهد دهاتها فى محاربة الاسلام جهادا لا هوادة فيه ، ولم يجدوا بعد الكفاح المرير والاعياء القاتل غير الهـزيمة والخـذلان . ولهذه الحقيقة السافرة شواهد من التـاريخ وبراهين من الواقع ، وحديثنا عن معركة « عين جالوت » وبطلها الملك المظفر قطز دليل مؤكد يبرز معـدن هذا الدين الحى ، دين العزة والرجولة والاستبسال !!

لقد تعرض الاسلام فى القرن السابع الهجرى لاعصار مدمر رهيب، فقد جهد الغزو التترى الماحق فى بلاد فارس مع العدوان الصليبى الآثم فى شواطىء النيل على استئصال شأفة الاسلام وتقويض معالمه ، وظن المرجفون أن ساعة الاسلام آتية ، ولكن مصر الاسلامية الظافرة تسجل فى صحائف التاريخ نصر الاسلام ونجاحه ، وتقف أمام الغزاة من الجانبين وقفات رهيبة قاسية ثم تنجلى المعركتان عن فوز ساحق يكلل جيش مصر ويضىء قسمات الاسلام ..

لقد تدفقت جيوش التتار من هضاب الصين ، فاكتسحت خراسان وهمدان وقزوين ، ثم اجتاحت مرد ، ونيسابور ، وهراة فقوضت عروشا وأبادت مدنا ، وشبت شبوب النار الجائحة لا تذر من شىء أتت عليه الا جعلته كالرميم ، وقد جـرفت فيما جرفت من العـروش سلطان ملوك خوارزم ، فتفرقوا ، وتمزقت أشـلاؤهم تحت سـنابك الخيل وشواجر الرماح ، وبيع من بقى من الأطفال والصبية بيع الرقيق !! وقد كان الملك المظفر « قطز » فى طفولته أحد هؤلاء الضحـايا الذين جىء بهم من بلاد الأكراد ليباع فى أسواق دمشق ، غير أنه كان يحمل فى نفسه همة عالية، وعزيمة ثابتة ، فنشأ مجاهدا مكافحا وحرص على الثقافة والفروسية معا ، وقد كان العز بن عبد السلام بدمشق ـ آنئذ ـ يشن الحملات القاسية فى

تعبئة الشعور العام ضد التتار ، ويدعو المسلمين الى مؤازرة جلال الدين — خال الملك المظفر — فى جلاده الرهيب مع الأعداء ، ويرى أن يتجمع المسلمون تحت راية واحدة ليتمكنوا من الوقوف صفا واحدا أمام الخطر المشترك ، وكلما جاءت الأنباء بانتصار جلال الدين طرب له العز واهتز ، ودعا فأخلص . فلما حانت خاتمته الاليمة بعد أن أغرق زوجته ونساءه فى نهر السند واضطر الى محاربة اخوانه فى العقيدة ممن نكلوا عن مؤازرته فى دفع الخطر المتوثب ، تحسر العز وأسف .. وسمع قطزا بما بكنه الشيخ الكبير لأسرته من حب واعظام ، فسعى الى مجلسه وتتلمذ عليه وعلى أقرانه من أئمة العلماء ، كما أتقن الصيال والوثوب فى ميادين الفروسية والبطولة ، وقد كان اقترابه من العز نفحة مباركة ميمونة ألهبت مشاعره الوجدانية نحو الاسلام ، وجعلته يعد نفسه بطلا من حماته ، فحذق أساليب القتال وضروب الشجاعة . وما زال يقيم الدليل بأفعاله المعجزة على جرأته الثابتة ، وحنكته الماهرة . وعواطفه نحو الاسلام تشب وتلتهب ، فلم يكن بين الجنود جنديا يأتمر بأمر قائده متى أمر وحيث أراد ، ولكنه — بتأثير العز بن عبد السلام — وضع الفكرة الاسلامية بين عينيه ، وسار على منارها أنى تألق وأضاء ، رآية ذلك أن الصالح اسماعيل صاحب دمشق قد هادن أعداء الاسلام من الصليبيين ، واستعان بهم فى حروبه الكافرة مع صاحب مصر الصالح أيوب .. ونظر المظفر فوجد أعداء الاسلام يقفون معه تحت لواء واحد أمام مصر التى ردت سهام الفرنجة الى نحورهم ، وقدمت أفلاذها العزيزة قربانا للعقيدة .. وذيادا عن العربية ، واذ ذاك يضطرم الغيظ فى صدر البطل الباسل فيصيح فى اخوانه صيحات مؤنبة منددة ، ويحمل الراية مع من معه فى دمشق لينضم الى جيوش النيل الباسلة تاركا ملكه الخائن يتفتت غيظا وكمدا حين يرى أعظم كتيبة فى جيشه تنخلع من ظلام الباطل الى ضياء الحق فيتم على يدها النصر الحاسم لمصر ، ويعرف الصالح أيوب صاحب مصر جهاد البطل الأبى فيضمه الى مماليكه ثم يجتبيه نائبه وظهيره عز الدين أيبك فيجعله من أخلص خلصائه وأصدق أعوانه ، وحين خرجت الجيوش المصرية الى مقاتلة الصليبيين فى أرباض دمياط كان « قطز » يقوم بجهده الموفق فيجمع الكتائب ، ويخترق الصعاب حتى اذا وجد الفرنجة يقتحمون السدة السلطانية بالمنصورة تدفق الدم الاسلامى الأبى فى عروقه وصرخت أمجاده العريقة ، واشتعلت النخوة الاسلامية فى رأسه ، واندفع الى السدة يضرب ذات اليمين وذات الشمال حتى درأ عنها الخطر الفاغر ، ثم تعقب الهاربين فى السواحل المترامية ، والمروج الفسيحة فقتل

ومزق الى أن انجلت المعركة بنصر الله فأسر لويس التاسع ، وتبدد جنده الفاشل ما بين قتيل وشريد ٠٠ فتمت بذلك الكلمة العليا للاسلام ٠

كان النصر الحاسم الذى بلغه الجيش المصرى فى نضاله الحميد مذكيا للهمم ، ومحييا ما اندثر من الآمال ، وقد ارتفع بالروح الوطنية الى أوج سامق ألاق ، فشعر المصريون بأنهم ذادة الاسلام وحماته ، ولمسوا مواضع القوة فى أرواحهم العالية ، ومعادنهم النفيسة ونظموا أهازيج البطولة يرددونها فى غدواتهم وروحاتهم فخورين متفائلين ، ولكن ما لبثت الأنباء تفد بعد قليل من بغداد أليمة قاسية ، فقد داهم هولاكو مدينة السلام بخيانة ابن العلقمى وأعوانه الظاهرين والمستترين ، واستأصل ما فيها من الذخائر والأعلاق وأجرى الدماء أنهارا مائجة ، وأسقط الخلافة سقوطا أليما ، وجلب الدمار والتخريب على قصبة الاسلام وحاضرة العربية ، ثم زحف بجنوده الى الغرب مدمرا حاصدا فعبر الفرات واستولى على بلاد الجزيرة وما وليها من ديار بكر وحران ونصيبين وارها ٠٠ ثم وصل الى حلب ، وقد اتخذ من الطغيان الآثم منطقا يبرر به وحشيته المتبربرة ، فهو يعمد الى التهديد والوعيد ثم يثنى بالتنفيذ الوحشى لا يرحم طفلا ولا كهلا ، بل كانت آهات الضحايا وزفرات الصرعى نغمات حلوة تصل الى أسماع جنوده فيترنحون ثملين ، وقد تجردوا من انسانيتهم الرحيمة واحساسهم الرقيق وصاروا يعتقدون أنهم زلزال الأرض لا يقف أمامهم جبل شامخ أو حصن منيع ٠٠ وقد اضطربت بلاد الشام اضطرابا عنيفا لهجوم الطاغية ، وتعرضت لبركان مدمر ، على حين انطلق الجواسيس ودعاة الهزيمة يبعثون الرعب فى النفوس ، ويصورون الغزاة المتوحشين فى أبشع صورهم الحمراء ، وقد ترامت الأنباء الفاجعة الى القاهرة فبات المصريون منها على شر مستطير ٠٠

كان الملك المظفر ـ حينئذ ـ نائبا للسلطنة المصرية ، حيث يجلس على العرش شاب خامل هو على بن عز الدين أيبك ، ولم تكن له دراية بغير اللهو والعبث ، فمثله لا يستطيع أن يواجه الموقف الرهيب فى أحلك ظلماته ، وأخطر مواقفه ، فاتجهت الأنظار الى قطز ، ذلك العملاق الجبار الذى يحمل فى أعماقه أحر الأحقاد على التتار ! هؤلاء الذين شردوا أهله ، وفرقوا سلطانهم فى خوارزم وتركوا البؤس يلعب فى بلاد التركستان وهضاب فارس ، فالتقت الحمية الأبية فى نفسه بالروح الاسلامية التى أجج نارها سلطان العلماء العز بن عبد السلام فى عروقه ، وخلق ذلك منه بطلا اسلاميا فدائيا لا يستنيم الى ضيم ولا يركن لخنوع ، فملك زمام الأمر وأصبح سلطان البلاد فى خطبها !! ٠

جمع الملك المظفر أعوانه وجنوده وأطلعهم على حقيقة الأمر فى بغداد ، وأعلمهم أن مصر مطمح الأنفس ، ومـراد العيـون ، ولا بد أن الوحش التترى سينقض عليها بجموعه ما بين ساعة وساعة ، وقد شاءت الاقدار أن تضع أمامهم وثيقة لا تقبل النقض ، اذ بعث الطاغية رسـله بانذار متعجرف أحمق يقول فيه ..

« من ملك الملوك شرقا وغربا ، القائد الأعظم ، باسمك اللهم باسط الارض ، ورافع السماء يعلم الملك قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا جند الله فى أرضـه خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد . وقتلنا معظم البلاد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب . فاى أرض تأويكم وأى طريق تحميكم ؟ وأى بلاد تنجيكم فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فانكم أكلتم الحرام ، وخنتم العهود والايمان ، وفشا بينكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهـون بما كنتم تسـتكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون . وليعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينـا لا يسمع ، فأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ولا كافيـا ولا حرزا ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، فقد أنصفناكم اذ أرسلناكم وما بقى لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى فأطاع الملك الاعلى » .

هذا منطق الطغـاة لا يتغير ولا يتبـدل فى كل زمان ومكان ، فهم المدافعون عن الحقوق دائما ، ومع أنهم وثنيـون يستشهدون بالقـرآن ويدعون أنهم جند الله فى أرضه يفتتحون البلاد ويطهرونها من الفسـاد ويعصفون بمن يأكل الحرام ويخون العهود وينقض الايمان ! أجل أجل هذه هى رسالة التتار الذين أفنوا فى بغداد مليونى نفس ، وأبادوا شتى الحضارات الزاهرة فى الشرق التليد ، ولولا موقف مصر الخالدة لعبروا الطريق الى الاندلس وأوربا يحملون الدمار والوبال ولن تجد فاسقا فى

الناس يعترف بفسقه وجوره ، بل يجد من الضرورة أن يتشح برداء مموه من الغيرة والحفاظ ، كما حاول التتار أن يظهروا مظهرا خادعا فى انذارهم العجيب ٠

جمع الملك المظفر جنوده ورجال مملكته ، وألهب فيهم جذوات الحمية والاباء ، وقد احتشد العلماء والأمراء وأعيان الدولة فى يوم مشهود حافل، ووقف العز بن عبد السلام رحمه الله يذكر فضائل الجهاد ، ويعد بمثوبة الله فى الآخرة وشرف الحياة فى الدنيا وكان الشباب المصرى الأبى من النجار والزراع والصناع يقدرون الموقف مع الجنود حق قدره ، ويقدمون أنفسهم كتائب غازية تؤازر الجيش الرسمى ، وتسانده ذودا عن الكرامة والوطنية والاسلام !!

وقد رأى بعض المماليك أن تفرض الضرائب ، وتجمع الأموال لتكون رصيدا مدخرا يرجع اليه المحاربون حين يعوزهم العتاد فى ساحة الجهاد ، ولكن سلطان العلماء رضى الله عنه يصيح صيحة تنخفض لها الرءوس وتنعقد الشفاه فيأمر جميع المماليك بأن ينزلوا أولا عما عندهم من النفائس والجواهر والحلى ٠٠ حتى اذا ما تم ذلك وبقيت للجيش حاجته للمال تبرع الشعب بما يملك عن رضا وسخاء ٠٠ وذلك موقف منصف عادل اذ أن الجواهر الثمينة التى تمور بها خزائن الأمراء والحلى الذهبية التى تكتنز لدى المماليك وقد أخذت حراما من الشعب واجب أن ترد اليه فى ساعة العسرة دون اعتراض ولا سيما قد قاسمهم الشعب جهادهم المرير فوقف معهم فى شواطىء دمياط وشعاب فارسكور برد الصليبيين ، وها هو ذا ينهض ثانية من خلفهم ليقاتل التتار فى أرباض الشام غير مدخر وسعا أو طاقة ، وكانت النتيجة مرضية ، فقد بذل الأمراء ماعندهم، وبذل الشعب ما عنده ، وتعاون الفريقان على النضال متربصين احدى الحسنيين ٠٠ النصر ٠٠ او الاستشهاد ٠

وسار الجيش الباسل ، وقائده قطز فى طليعته أسوة حسنة للمجاهد الغيور ، وقد لمس بعض التردد من الأمراء ، فصاح صيحة جهيرة « يا أمراء المسلمين تأكلون أموال بيت المال ، وانتم للغزاة كارهون ٠٠ من أراد الجهاد فليتبعنى ، ومن تأخر فان الله مطلع عليه !٠ وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين » ٠

وقد أخذ الرجل لجيشه كل حيطة وتدبير ، فافترض الفروض البعيدة ، ورأى من المحتمل أن يهتبل الصليبيون انشغاله بالتتار فيروعوا دمياط من جديد ٠٠ لذلك بادر بردم مصب النيل هناك كيلا تعبر منه السفن غازية كما سبق أن عبرت فى الحملة المنهزمة ، وأقام حامية قوية

من جيشه على الاسكندرية تحفظ الأمن ، وتدفع الغير ، ثم انتقل الى «عكا» وكانت بأيدى الصليبيين فأنذر أهلها وتهددهم بما لا طاقة لهم به كيلا يكونوا يدا مع التتار عليه فانكمشوا فى جحورهم ، وقدموا اليه الهدايا والتحف تزلفا ومحاباة ، مع أنهم عاهدوا التتار من قبل على التحرش بالجيش المصرى ومباغتته من الخلف ، ولكن تهديد البطل ووعيده قد أثار فى نفوسهم ريحا من الخور فشلت الأقدام عن الحركة ، وجمدت السيوف فى الأكف ، وباءوا بخذلان من الله كبير ٠

وفى رحاب الأردن بين التلال الناهضة والوديان الهابطة لدى عين تعرف بعين جالوت تقابل المسلمون والتتار فى أحرج موقف تعرض له الباغون منذ اندلعوا كاللهيب العاصف فى بلاد الشرق ، وقد رأوا أوسمة المماليك الذهبية ، وحللهم الغالية وخيولهم الصافنة ورماحهم المحلاة فحسبوا جميع ذلك لقمة سائغة وغنيمة باردة ، ونسجوا الأحلام الساحرة لأنفسهم اذ يمتلكون وادى النيل بجنانه الخضر ، وسهوله اليانعة ، ثم اندفع الفريقان كالأتى المزبد فى معركة دامية ، وحمل التتار على كتائب مصر حملات عاصفة فردوا الحرس السلطانى الى الوراء ، واختل توازن الجيش الاسلامى لحظات ، ولكن القائد المظفر قصد الى القلب بجميع قوته وقد حشد عزيمته العاتية وأطلق حنجرته العالية يصيح « وا اسلاماه وا اسلاماه » صيحات استجاشت همم المجاهدين البواسل فغمر تيارها الكهربى أرواحهم الظامئة للشهادة ، واندفعوا الى أعدائهم غير مبالين ، وتوالى الطعان والضراب فى زلزلة مرعبة راجفة !!٠ والتتار مذهولون لما يشاهدون ، فجنودهم يتساقطون ، وصوت القائد المظفر يدوى ـ وا اسلاماه ـ فتنخلع القلوب من الرعب ، ويمد جنوده بمدد سماوى متلاحق ، ثم تنجلى المعركة العنيفة وقد فضحت التتار فضيحة نكراء فهاموا على وجوههم مشردين فى الآفاق ، وذاقوا مرارة الهزيمة الماحقة لأول مرة فى تاريخهم الدموى الرهيب ، وقد سقط القائد العظيم ابان المعركة من فوق فرسه ولكن عناية السماء أدركته فوثب وثبة طائرة على فرس آخر تنحى عنه صاحبه فى لحظة بارقة وحمل الراية مستميتا مستبسلا ثم تتبع الفلول الهاربة بجنوده فأباد منها خلقا كثيرا وقتل القائد التترى « كتبغا » وبعث برأسه الى القاهرة فضج المصريون بالفرح والهتاف وأقيمت الرايات والأعلام ، وشعر كل مصرى يعيش على ضفاف النيل أنه صاحب هذا النصر العظيم ٠٠

أما بلاد الشام فقد احتفلت بالملك المظفر احتفالا بهيجا ودخل دمشق فى موكب هز به الاسلام أعطافه ، واختال فى جنبات السعد والاقبال ،

ولكنه لم يشمخ بما تم على يديه ، بل سجد شكرا لله وعفر وجهه فى التراب مرات ومرات !! • وكأنى به وقد شعر فى أعماقه بارتياح منعش حيث أقر عيون المسلمين بالنصر ، وانتقم لأسرته الشريدة فى خوارزم ، وخلد فى صفحات التاريخ ذكرا لا تمحوه الأيام !! •

وهنا تقف طويلا معى لتسمع خاتمة هذا البطل الفدائى العجيب بعد أن تم نصر الله على يديه ، وترى كيف تتجمع السحب القاتمة لتطمس نورا يشع وتمحو كوكبا يتألق •• لقد ذهب هذا الفدائى الباسل ضحية مؤامرة دنيئة ، فقد ائتمر عليه منافسه « الظاهر بيبرس » مع فريق من أعوانه المغرضين بعد أن وعدهم بالمناصب والأوسمة فانهالوا بحرابهم المسمومة عليه فى لحظات صفائه ، وخر مضرجا بدمائه ، وكأنه لم يكسب نصرا حمى به الاسلام من وحوش كواسر ذات مخالب وأنياب ••• وكان الأولى بالظاهر أن يذكر أن مليكه الشهيد قد أسلف اليه يدا خالدة اذ أنقذه من مخالب الموت حين خاف من الملك الناصر وكتب اليه يسأله الأمان، فقادته النخوة العالية وتقبل رسالته بقبول حسن ، ودعاه الى مصر ثم توجه الى لقائه وأنزله بدار الوزارة وجعله قائد جيشه ثم أقطعه (قليوب) ، وتلك المنن العجيبة فى تسلسلها الرائع لم تجد مكانها من قلب بيبرس •• مع أن الانسان عبد الاحسان •

لقد نسى الظاهر منة قطز عليه ! •• وكان فى مقدوره أن ينبذه نبذ النواة فيهيم على وجهه فى الفلوات ، وأعجب شىء أنه وجد من المؤرخين من يبرر غدره الشنيع فيقول : ان الملك المظفر قد وعده ولاية حلب فى أثناء المعركة ليشد أزره ثم أخلف وعده متشككا فى طويته !! • فلاقى جزاء خلفه ••• أفيكون ذلك تبريرا سائغا يجيز الغدر والاغتيال •• لقد أنعم السلطان عليه بعد المعركة ببعض الغنائم ليستل سخائمه فتظاهر برغبته اللئيمة فى تقبيل راحته ثم اندفع الى الرجل المسالم الأعزل بخنجره المسموم يمزق أديما حشوه هم وعزائم ، وأقبل أعوانه من خلفه يحطمون أشلاء تحمل أطيب العناصر ، وأكرم الخلال وهكذا يكون المصير •

لقد قضى السلطان المظفر أقل من عام فى حكمه ، ولكنه دخل التاريخ من أوسع أبوابه حين حمى الاسلام فى « عين جالوت » ، وكان موفقا كل التوفيق ، اذ كسب بصيحته الخالدة « وا اسلاماه » نصرا تعذر على الجبابرة والعتاة !! ولعمرى لولا الالهام الربانى يدوى صارخا فيهدى القوة الى الضعيف ، والشجاعة الى الجبان ، والاقدام الى المحجم ما كسب السلطان هذا النصر المؤزر فى حومة الجهاد ، فما أجدرنا أن نصيح فى أزمات الخطوب وحوالك النذر وا اسلاماه !!



الظاهر بيبرس

قاهر التتار والصليبيين

« الظاهر بيبرس »

يتمتع الظاهر بيبرس بشهرة شعبية مستفيضة ، فقد خلعت عليه أساطير البطولة حللا زاهية ، وتفنن الخياليون فى اسباغ العظمة والفتوة والاعجاز على شخصيته الجذابة ، فهو من هذه الناحية كالمهلهل ، وعنترة ، وسيف بن ذى يزن الذين كثرت أنباؤهم كثرة باعدت بينها وبين الواقع حتى لقد نسب الى أحدهم أنه حـــارب الجن واستأثر بممالك الارضين السبع ، ومهما يكن من شيوع هذه الأنباء وكثرتها فان دلالتها على البطولة تستمد عناصرها الأولى من كفاح مرير شاق قام به هؤلاء الأبطال فى دنيا الواقع ثم شاء الخيال أن يجسمه تجسيما يتكامل به اغراؤه الجذاب ٠

وعلى كثرة مايروى الخياليون عن بطولة الظاهر فان كتب التاريخ الواقعية تقصر تقصيرا ملموسا فى عرض هذا البطل وكان الأولى بجهوده أن يتضافر كثير من الكتاب على تحليلها وايضـاحها تمام الايضـــاح ، فالظاهر بمحاسنه ونقائصه شخصية عجيبة نادرة ، ومجال الحديث عن بطل مغامر ، جبار مثله لا يخلو من لذة وطرافة ، وسنحاول أن نلقى بعض الأضواء على أعماله الرائعة دون أن نقــابله بالتصنيق الحاد والهتاف الرنان ! ٠٠

لقد نزح الظاهر رفيقا مسلوبا من شواطىء بحر قزوين ، وبيع فى دمشق لبعض الامراء وليس له من وسامة الوجه ، وائتلاق الصفحة ما يشجع على امتلاكه ، فقد رفضه بعض السادة بعد اشترائه ! ، لكن الوسامة لم تكن فى يوم ما ميزانا صحيحا لتقدير الرجل ، واذا لم تبد المرآة قسامة جاذبة فقد جلت جبهة ضيغم رئبال ، وكان الظاهر فى جميع ماقام به رئبالا مخاطرا دوت بجهـوده المحافل ، وأسـلم الرعب نفـوسا جبارة قاهرة كانت لا تتوقع هزيمة مواتية أو تفكر فى فرار قاهر محتوم ٠٠

وقد بدأت مواهب البطل فى أدواره الاولى من حياته ونطقت ملامحه وأعماله بما يمتلك من جرأة واستبسال ، فاختاره الملك الصالح رئيسا

لاحدى فرق الحرس الخاص ، ثم طار فى المناصب طيرانا حتى أصبح بعد أمد قصير قائدا لفرقة المماليك البحرية ، وفى الناس من يتولون المناصب اللامعة فلا يزدادون بها مكانة ونفوذا ، ولكن فيهم من يخلق من منصبه ولو كان متواضعا مكانا مرموقا تتطلع اليه الابصار ٠

وقد كشف الظاهر فى قيادته عن عزيمة فدائية باسلة ، وتألق اسمه فى عدة مواقف فرضت شخصيته فرضا على النقوش ، وخلعت عليه المهابة والاكبار ٠

واذ تأملنا أعمال هذا البطل نجد أن المغامرة وحدها أساس ركين ترتكز عليه عظمته ٠٠ فقد وقر فى نفسه أن يستهين بالموت ، ويطرد عن خاطره كل خوف يصدر من ناحيته ، فهو لا يحرص فى أحرج مواقف البأس على حياته ، بل يتقدم الى الموت الاحمر غير مبال بما سيكون ٠٠ وقد ابتسم له الحظ كثيرا فكانت مغامراته المجنونة ترجع عليه بأحسن العواقب ، وهى بذلك تتأصل وتعمق ويزداد بها الرجل ايمانا واعتدادا ، وهى أيضا بما تضم من الدهشة والغرابة تبعث على الحب والتقدير والعجب ، وهكذا حرص البطل على الموت فوهبت له الحياة ٠٠

وأول ميدان نفذ فيه البطل خطته الجريئة كان بالمنصورة أمام الصليبيين الغزاة ، فقد احتل الفرنسيون دمياط وتقدموا الى القاهرة عن طريق البحر الصغير ، ووجدوا من الخونة من يمهد لهم الاسباب ، فيدلهم على المنافذ والمعابر لقاء عرض زائل تبدده الأيام ، وتمضى بلعنته الأجيال ، وقد ماجت القاهرة واضطربت لهذا الغزو المفاجىء ، وزحفت الجيوش الاسلامية الى المنصورة والملك مريض طريح ، والجنود فى حاجة الى القيادة والعتاد ، وكان لويس التاسع قد تقدم الغزاة ليضرب المثل بنفسه فى التضحية والاستبسال ، فوقف الماء حائلا طبيعيا بين الغازى المهاجم والشعب المدافع ، وفجأة وعلى غير انتظار أو توقع عبر الصليبيون النهر واندفع أشجع فرسانهم الكونت « دارتوا » شقيق الملك ووراءه كتيبة مستبسلة لتهب كالعاصفة تدميرا وقتلا واستئصالا ، ونظر المصريون فاذا العدو يعصف بمن يعترض طريقه ، واذا الجثث تترامى والرقاب تتطاير وتتساقط معفرة فى الرغام ، والذعر يدب فى الأجسام دبيب الكهربا ٠٠ فلا تستقر بموضع أو تجتمع على لقاء ٠٠

وفى الميدان الأول لبطولة الظاهر تدركه روح المغامرة وتعصف بصدره الحمية ، فلا يبالى بهذا المارد العملاق يحمل سيفه الموشى بالذهب،

وتتألق فى صدره الأوسمة البراقة ، ويباركه النصر فى صولته المفاجئة ، فيتهادى على الجواد الأشهب ذات اليمين وذات الشمال ، أجل هنا تثبت روح المغامرة فتدفع الظاهر الى امتشاق حسامه والاسراع على رأس فرقته الى مقاتلة الأسد المتحفز ذى الزئير الصاخب والأجم المنيع ، ونظر الكونت « دارتوا » فاذا اعصار يفاجىء اعصارا ، واذا الظاهر يغامر بحياته فيندفع الى الصفوف كالمجنــــون وقد تعلق بصره بالفارس المحجل فعلاه بسيفه وهوى على رقبته بضربة قاتلة ماحقة ٠٠ فاندحر الفرنسيون اذ أبصروا قائدهم البــاسل يرتمى على الارض ووراءه حاشــيته المستبسلة صريعة مجندلة فقد ركب المصريون أقفيتهم ووثبوا وراء بيبرس يقتلون ويصرعون ٠٠ وكانت مغامرة باسلة أذهلت لويس التاسع فوقف يذرف الدموع الحارة على شقيقه الصريع ٠٠ ويتسمع الأنباء عن بطل مصرى مغامر فاجأ الاعصار باعصار أعتى قوة وأعنف استئصالا ، وعرف الجميع مكان القائد الشاب فعلقته النفوس ونيطت به الآمال ٠٠

وقد انهزم الفرنسيون هزيمة منكرة ، وولوا على أعقابهم مدحورين وكان مظنونا أن يتبوأ بيبرس بمصر مكانا لامعا يتفق مع ما أسداه اليها من انتصار ، ولكن مطامعه الشخصية حالت دون ذلك ، فقد تآمر واغتال، ولم يشأ أن يرد البيوت من أبوابهـــــا ، وهــذه نقطة الضعف فى تاريخ الرجل ، لأن البطل الذى لا يتخذ من الخلق الرفيع دستورا يسير على نهجه لا يحتل المكان المرتقب فى باحة التاريخ الصحيح ٠ والمقياس الخلقى لأعمال الأبطال مقيــاس دقيق ينخفض به كثير من القيم الخادعة أو هو ــ بعد ــ المقياس العادل الذى نزن به من نكتب عنهم من الأفذاذ ، ولو أجمع المؤرخون على الاحتكام اليه والاعتصــــام به لهــوت أقدار عالية ، وانخفضت مكانات سامقة لأناس كسبوا المجد البراق عن طريق الوصولية البغيضة والميكافيلية المنكرة ٠٠

وقد ضاقت مصر بما رحبت على الظاهر ففر الى بلاد الشام وخدم ملوكا وأمراء كثيرين ، وقد زين الى صاحب الكرك أن يستولى على القاهرة ، ومازال به اغراء وتعليلا حتى أقنعه اقناعا تجاوز الاعتقاد الى العمل فبعث جيشا كبيرا فى طليعته بيبرس ودارت معركة حامية بين كتائب اسلامية تتصارع فى غير ميـدان ، وتسير الى غايتهـــا تحدوها المطامع المألوفة ، والأحقاد المتأججة ، وقد انجلت عن هزيمة للمغيرين ، وارتداد الجيش الغازى الى قواعده مثخنا بالجراح ٠

ولم تكن النتيجة اللازمة لارتداد الجيش المتهجم غير الندم والأسف

المرير ، فقد تجرع بيبرس كئوسا أليمة ، وضاقت به الشام كما ضاقت مصر به من قبل ، وقد أعمل فكره فرأى أن يكتب الى نائب السلطنة فى مصر يستأذنه فى القدوم اليها طائعا عاملا ، وكان جميلا من (قطز) أن يرحب به ، ويفتح صـــدر الكنانة لكمى باسل دافع عن حريمها المباح بالمنصورة ، ثم يقطعه القطائع ليستلين منه قناة شديدة لاتزال تيبس وتعسر متحجرة متصلبة ، وفرح بيبرس بعفو (قطز) عنه ، وخف الى مصر وفى نفسه مطامع تدب ، وفى صدره آمال تجيش .

وشاء القدر أن تصطدم مصر بصخرة عاتية تنهال على رأسها انهيالا مفزعا مروعا ، فقد زحفت جيوش التتار عاصفة ماحقة ، وانتشرت كالوباء المبيد تكتسح آلاف الأبرياء من ســـكان خوارزم وبخارى وســـمرقند ، وكرمان ، فاذا احتلت بلدة أو عاصمة فالذبح والسلب والاستئصال ، حتى كانت ميـــازيب الأسطح تسيل بدماء القتلى كمـــا تتدفق بغيوث السماء ...

وواصل الوباء الزاحف سيره الى بغداد فأسقط الخلافة العباسية ، وذبح آلاف المسلمين ورمى بالذخائر المقدسة الى قاع الفرات ، حتى قام من الكتب الملقاة جسر هـــائل يعبر عليه الناس ، وكانت مأساة كبرى لعاصمة الخلافة ، ومحنة قاسية للمسلمين المحزونين ، فانتشر الرعب والفزع فى جميع البقاع ، وتوجست ديار الشام من شر يوشك أن يقع ، وكانت الاشاعات المسمومة تنفث حمامها القاتل فى النفوس ، فرقصت حلب ودمشق وسائر المدن الاسلامية على بركان ثائر يقذف بالحمم ، ويرمى بالحتوف ، ولم تشأ الأهوال أن تتريث قليلا ، بل زحفت عاجلة الى بلاد الجزيرة فالموصل ، ثم الى حلب ودمشق وديار بكر وحمص .. وبات الخطر قاب قوسين أو أدنى من مصر ، وقد أخذت الأنباء الصاعقة تفت فى الأعضاد وتوهى العـــزائم لولا أن قيض الله لمصر ملكهـــا العظيم (قطز) فجمع الامراء وعبأ الجنـــود وتقدم الجيش الى لقاء التتار فى « عين جالوت » ولم يكن التتـــار يتوقعون كفاحـــا مريرا كما فاجأهم المصريون ، فقد ألفوا أن يستعينوا أولا بالاشاعات المغرضة ، والدعايات المسمومة فاذا اشتبك الفريقان تقدموا فى جنون حائر لينتزعوا القوة من خصومهم بما يظهرون من تهور واستئصال ، ولكن روح المغامرة تتجلى فى بطلين عظيمين ..

تتجلى فى « قطز » الذى يقف فى القلب ، وفى « بيبرس » الذى يقوم على الميسرة ، ودار الموت الأحمر فى ســـاعة حمى بها القيظ ولفح

الهجير ، أما التتار فقد عمدوا الى القلب ليستأصلوا الرأس المدبر ، وأما نصر الله فقد أيد أناسا صدقوا ما عاهدوا الله عليه فتراجع (قطز) قليلا ثم اندفع بجيشه كالمجنون وانقضت معه الميسرة بقيادة بيبرس ٠٠ وأظهر المغامران حمية مجنونة لا تعبأ بالحياة فتكسر التتار مندحرين لأول مرة ، ووقف قائدهم كتبغا ينظر مدهوشا مأخوذا ، فعـــاجله بيبرس بهجوم ماحق أطاح برقبته فهوت تبعث الخور والضعف واليأس !! ماذا حـدث يارباه ؟ ! لقد اندحرت الوحوش الكاسره على أعقابها وتعقبتها الكتائب المصرية ابادة وافناء !! ودوى فى العـالم لأول مرة صوت ينبىء بهزيمة التتار ٠٠ وجاء نصر الله والفتح المبين ٠

ولكن ماذا وراء كل هذه ؟ ٠٠ لقـــد عادت الانانية المريضة الى بيبرس ، فتآمر على (قطز) فى الطريق ، وصعدت روح الملك الشهيد الباسل الى ربها تشكو صارخة ما اقترفه مغامر لاجـــىء قدم الى مصر طريدا فأمنه (قطز) من خوف ، وأغناه من احتياج ، وقد قيل : ان الملك الشهيد ــ كما سبق أن ألمحنا الى ذلك ــ كان قد وعد الظاهر بامارة حلب ثم ضن بها عليه ، فكان نصيبه الاغتيال ، ومهما يذكر فى تبرير هذا المصرع الغادر فاننا نراه مسبة نكراء وجريمة شنعاء ، وقد كان له رنين حزين فى آفاق الأمة الاسلامية ، وكانت فاجعة الشعب المصرى أليمة حين خرج لاستقبال الجيش المنتصر طامعـــا أن يرى قائده الباسل (قطز) يتوجه بوجهه المتهلل وقامته الفارعة فاذا الخيانة تفوح ٠٠ منتنة خبيثة واذا النفوس تغص بوجدهـــا الدفين ، واذا الضـــلوع تتقـد بالحقد والكراهية ، واذا بيبرس يتقدم الجيش موزعا الأسلاب مخرسا الأفواه ، واذا النصر الباهر ينعكس فى أعماق القلوب جراحـــا فاغرة ونارا ذات احراق ٠٠

لقد قلت فى مقدمة هذا البحث اننا لن نقـــابل أعمـــال بيبرس بالهتاف الحاد والتصفيق الشديد ، لأننا نتذكر فى كل سطر من السطور جريمته الشنعاء مع قطز فننقبض عنه انقباضا موحشا ، ثم نتذكر بعد ذلك ما أسلفه الظاهر للاسلام من مجد حين أصبح ملكا مرموقا يحارب الأعداء فى كل مكان ، فيعز علينا أن نغمض الطرف عن فتوحه وأياديه ، وهو يعد من الذين خلطوا عملا صـــالحا بآخر سيئا ، فجدير بنا وقد عرضنا صحيفته السوداء ، كما خطتهـــا كارثته الدامية ، أن نعرض له صحفا بيضاء تشع بالعزة والكرامة ، وهو بعد انسان يحلق ويسف ، واذا لم يكن قدوة عالية فى السلوك الانسانى فحسبه أن يكون مثالا

خارقا للبطولة النادرة والفداء الساحر ، واذا أمكن التقيد بمبادىء الخلق الرفيع فى حيـــاة بطل فذ كعلى بن أبى طالب أو عمر بن عبد العزيز أو نور الدين محمود وغيرهم من أبطال الاسلام فهؤلاء أناس قاربوا الشقة بين الواقعية والمثالية حتى اتحدتا فيهما اتحادا يبعث الدهشة والاعجاب فليكونوا مثلا تحتذى ٠٠ ولينهضوا على الأحقاب ألوية تخفق ، ومنارات تلوح ! ٠

لقد تولى بيبرس الحـــكم وأمامه عقبـات متجمعة تحتـاج الى دربة حازمة ، وكياسة فائقة ، فالشعب المصرى حزين متألم لما فوجىء به من مصرع ملك عـــزيز ، والأمراء المناصرون لغريمه الشهيد يتربصـــون به الدائرة ، ويمهدون لمطامعهم تحت ستار الثأر والاباء ، وهناك غير هذين شرور وأعباء ، هناك الصليبيون يربضون على سواحل الشام ينتظرون الفرصة السانحة لقتال المسلمين والتحرش بالمصريين ، وهناك الغاصبون من التتار ممن تنج فى صدورهم الأحقاد ، ويرمض جوانحهم أن يتذكروا أهوال الجيش المصرى وما جلبه عليهم من شرور بمكانتهم الســـاحقة ، وجعلتهم فى أعين الناس بشرا يهزمون وينتصرون ، بعد أن كانوا أبالسة من الجن لا تقوم أمامهم الحواجز ولا تنهض دونهم الســـدود ، وهناك الاسماعيليون الناقمون يظاهرون العدو ويعتصمون بعدة الغرماء من تتر وصليبيين ، ولهم من قلاعهم الحصينة ومكايدهم القاتلة جنة سابغة ودرع لا تقده السيوف ٠ وهناك فى الشرق والغرب غير هؤلاء جميعا نفوس تتألم لما تقوم به مصر من أمجـــاد ، فلا يفتأ أصحابها ينصبون المكايد ويرصدون الفخاخ ، ولابد من عمل حازم سريع ، ولن تنفع القوة وحدها فى مواجهة الصعاب اذا لم تسندها سياسة حصيفة ماهرة ، وقد تجلت كياسة « بيبرس » فى استئصال هذه الصعاب تجليـــا باهرا كتب له الخلود والنجاح ، وجعل الدنيا كلها تتحدث عنه ، وتنسج له من الأساطير غرائب عجيبة يتوارثها الناس حتى تم له الفوز الساحق ، وان انســـانا يكابد هذه المآزق المتراكمة المتجاورة ، ثم يسير فى طريقه فلا يتعثر بمأزق حتى ينجو منه ، مجتهدا فى استئصاله ومحقه ، ان انسانا يواجه هذه المآزق المتراكمة ثم ينتصر عليها انتصارا باهرا تدوى به الدنيا وتترنم به الأساطير جدير حقا بالرفعة والخلود ! ٠

لقد بدأ الظاهر فى استرضاء الجبهة الداخلية من خصومه المسلمين، وهم المصريون المتألمون لمصرع « قطز » من ناحية ، والامراء المغرضـــون ذوو المطامع السياسية والأهواء الطامحة من ناحية أخرى ، فأما المصريون

فقد بادر باسترضائهم فأبطل جميع ما أحـــدثه « قطز » من الضرائب والمكوس ، وكان الملك الراحل قـد اضطر اليهـــا لمواجهة أعباء الحرب والنهوض بما تتطلب من عدة وعتاد ، فانزاح عبء ثقيل ناءت به الكواهل حينا من الدهر ٠

وسار الظاهر بيبرس خطوة ثانية فأحضر المماليك البحرية المتفرقين في أنحاء مصر يعيثون فسادا فى الارض ، ويمعنون سلبا فى الاموال ، وحصرهم فى القاهرة لا يبرحونها لغير حاجة داعية تحدد زمانا ومكانا بقدر معلوم ، فسد بذلك على الناس كوى يتساقط منها الشر كل آن ، كما اهتم بالنظام الادارى الحازم فاعد مطافىء الحريق وأماكن الاسعاف ، وهيأ البريد الدائب المنتظم ، وأدخل نظما جديدة تتبع فى مجالس القضاء والحكم ٠٠ لتعود على الرعية بالأمن والاطمئنان ، وأقام مقاييس النيل ، وأنشأ الجسور والمعابد مخصصا من يقوم على حراستها بأجر معلوم ، واهتم بالصناعة حربية ومدنية فاستغلت عددا كبيرا من العمال العاطلين، وأقام الاسواق التجارية على سنن خاصة فى الايراد والتصدير فعاد ذلك على الأمة برغم حروبهـــا المتواصلة بالرفاهية والرخاء أما الامراء الذين شقوا عصا الطاعة عليه فى دمشق وحلب والكرك فقد أخذهم بالحيلة تارة ، وبالقوة تارة أخرى ، وكانت الأصقاع النـــائية عن مصر لا تكاد تعترف للرجل بولاية شرعية صحيحة ، فرأى أن يعيد الخلافة العباسية ليكسب من تعضيدها قوة تجمع القلوب ، وتخرس الشفاه ، ومن ثم سعى سعيا حثيثا الى استدعاء أمير عباسى ذى حاشية وأتباع ، فاستقبله بمصر استقبالا كريما ، وأقام حفلا بهيجا جمع عليه القوم من الامراء والاعيان والعلماء وتلا نسبه العباسى مجمعا عليه من عرب ثقات ، وقد بالغ الظاهر فى احترام الخليفة الجديد احتراما أكيدا أمام الناس ، فقدمه على نفسه فى الدخول الى القلعة ، وجلس دونه فى المكانة ، وضرب النقود باسمه ، وطبيعى أن يقوم الخليفة بعد هذا الاستقبال الرائع بمباركة الظاهر ، والدعوة الى تأييده ، وأن يخلع عليه حلة السلطنة ليكون سلطانا شرعيا يستمد رياسته من الخليفة العباسى ، فلا يتحرش به أمير أو يتبرم بحكمه أتباع ! ٠ وتلك خطة حفظت للظاهر ملكه فقطعت السبيل على كل متمرد ثائر ٠٠ والعجيب أن الظاهر خاف على سلطانه من انسان صنعه على عينيه وأمده بقوته فحبسه فى مكان خاص ، وعاق أمراء الدولة ووجهاءها عن رؤيته كى لا تتأثل به الصلات ، وتمتد معه أسباب الوداد ، فيصبح ذا خطر حقيقى يعز به ويذل مما يؤكد أن الخـــلافة المصطنعة مناورة

سياسية ماهرة حفظت حق الظــاهر وايدته ، ولكنها سلبت سلطتها المباشرة ٠٠ فأصبحت بريقا خادعا ، وسرابا يحسبه الظمآن ماء دون ارتواء ، واذن فقد تغلب « الظاهر » بما صنع على المنازعات الداخلية ، وكفى نفسه أضرار طابور خامس يصنع داخل الصفوف المتآخية مايصنعه العدو الخارجي بجيشه المتجمع ، وعتاده الكثيف ، وعليه الآن أن يتجه الى عدويه الحقيقيين شراذم الصليب الرابضة بالشام ، وكتائب التتار المتأهبة على ضفاف الفرات ، ففى هاتين الجبهتين يكمن الخطر الحقيقى على الاسلام ، وفى هاتين الجبهتين يضع « الظاهر » تاج البطولة الظافر على رأسه الأشم ! ٠٠

فقد بدأ بمناورة الامارات اللاتينية ، فجاءت رسل أنطاكية تطلب الصلح على شروط معتدلة قبلها الظاهر بارتياح ، ولكن الغدر الشائن يكمن خلف هذا المظهر الخادع ، فان الصليبيين يحرصــون على كسب الوقت بالأخذ والرد ، فى حين يتأهبون لهجوم تفد أسلحته من أوربا دون انقطاع ، ولم تمض أيام حتى نقضت العقود ، وأخل أصحاب الشروط بما تعاهدوا عليه من التزام أكيد ، فلم يكن بد من النزال الماحق دون رحمة أو استعطاف ، ولهذا جرد البطل جيشا سار هو على رأسه الى عكا ، وكانت محاطة بخندق يحتمى به الصليبيون ويستظهرون بقلعتها ، مرسلين نبالهم وسهامهم الى الجيش المغير ، وقد أغلقوا الأبواب ، وأقاموا المتاريس ، وأخذوا لكل طارىء عدته الواقية ، ولكن « بيبرس » تمكن من ردم الخندق ، وحمل حملة مستميتة على الأبواب ، فانفرجت انفراجا يؤذن بالوبال الصارم ينصب على الأعداء ، وتعرض الصليبيون لمذبحة مروعة عاد اثمها المنكر على قوم من أهل الكتاب لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ٠٠

وقد دارت المعــارك الصليبية أكثر من عشر سنوات بين الظاهر وأعدائه حتى انكمش الفرنجـة فى ساحل ضــيق يتربصــون بأنفسهم الدوائر ، ووقف خليفة صلاح الدين ووارث عرشه بمصر يصل ما انقطع من جهـــاده المستبسل المرير الدائب ، فهو مرة أولى فى (قيسارية) يزاحم الفدائيين من « الهوسبتاليين » مزاحمة مجاهدة مرهقة ٠٠ فهؤلاء المتعصبون ينذرون أنفسهم للموت ، اســتجابة لوعـــود أكدها أسقف موتور ، فيدفعون بأنفسهم مستيئسين وخلفهم نساؤهم يقدمن أزواجهن ضحية رخيصة هينة طمعا فى جنة يباركها يســـوع المسيح ! ، هؤلاء الفدائيون يرون فى جيش الظاهر موتا حاضرا ، فتتراجع فلولهم على

أعقابها ، ويتقدم الجيش الاسلامى متوجا بالنصر فيقطع القطائع ، ويفرق الأسلاب والغنائم ، وقائده منه بمنزلة الرأس من الجسم ، يدبر ويشير ثم يثب ممتلئا عزيمة وتصميما ! .

وهو مرة ثانية فى « حمص » ينقذها من مخالب (بوهمند) صاحب أنطاكية حتى اذا استتم له النصر ، سارع الى « صفد » فحاصر قلعتها الحصينة ثلاثة أســـابيع فتضطر حاميتها الى الاذعان ، فالهروب ناجية بأرواحها دون أن تستصحب سلاحا أو ذخيرة ، وكأنها ترضى من الغنيمة بالفرار لا بالاياب ..

وهو مرة ثالثة يثب الى يافا ويمزقها شر ممزق ، ثم يتجه الى شمال سورية فيهاجم البلاد المحيطة بها ، ويعمد الى أنطاكية الحصينة لتدور رحى حرب حمراء فاجعة يضطر بها رجال الحامية الى التسليم وعددهم ثمانية آلاف ، على أن يؤمنــوا حيــاتهم ، تاركين وراءهم خزى الأبد ، ومذعنين لفاتح قاهر عنيد ، وقد هزت كارثة أنطاكية أوربا الصليبية هزا عنيفا فباتت تعض بنان الندم على ما تسوقه من خراف واهنة تكابد حتفها الرهيب فى الشرق دون أمل تلمح بوادره فى ليل حالك بئيس ! .

وتوالت روائع الظاهر وبواهره حتى استنزف قوى الدخيل الماكر، وآل أمره الى الانزواء فى حصن أو حصنين فأى جهاد قام به هذا البطل المغامر ، وكيف تسنى له أن يصعد الى القمة السامقة ، متوجا بالنجاح العظيم ؟

تلك هى الجبهة الأولى ، أما الجبهة الثانية فجبهة التتار الحاقدة الموتورة ذات الغيظ الكمين ، فقد أرمضها أن يقف الجيش المصرى بعين جالوت فى طريقها الى غايتها الدموية الرهيبة ، وكان التتاريون يحيطون أنفسهم بدعاية خادعة ذات ضباب كثيف ، فهم كما يزعمون أنهم لعنة الله فى الأرض أرسلها على من غضب عليهم من عباده الآثمين ، وهم مؤيدون بنصر يزلزلون به الجبال ، ويفجرون البراكين ، فحين اندحرت فلولهم المهزومة فى « عين جالوت » انكشف ضباب هذه الدعاية الواسعة ، وعلم الناس أن التتر أصحاب قوة عاتية أخذت تصطدم بالصخور صخرة وراء صخرة حتى أوشكت أن تتحطم وتنهد ، وقد بدءوا بمحالفة الصليبيين محالفة باغية ليقفوا معهم فى صف واحد أمام العدو المشترك الجرىء ، وقد نفذت نصوص هذه المعاهدة فى أكثر بنودها ، فاذا التحم الجيش المصرى بالصليبيين انبرى له الجيش التتارى فى جبهة ثانية ليشتت جهوده ، ويبعثر قواه ، واذا ذهب بيبرس لمقاتلة التتار ثار الصليبيون

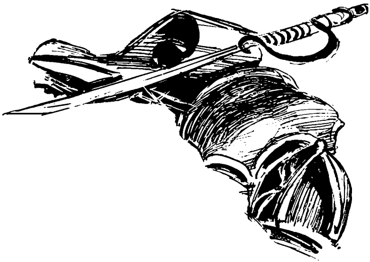
فى جبهة مضادة ليردوا ما أسلف لهم الجيش التتارى من يد تذكر بالحمد والثناء ! والمصريون بين أولئك وهؤلاء يقدمون من حرب الى حرب ، ومن نضال الى نضال ، وقائدهم أمامهم يضرب لهم المثل بعرقه فى النضال ، واستبساله فى الكفاح ، وقد أغار « هولاكو » على (البيرة) وحاصرها ونصب حولها المجانيق ، فخف اليها « بيبرس » مغيثا ناصرا ، ودب الرعب فى قلوب التتار ففزعوا لرؤية بيبرس ، وأسلموا سيقانهم للريح هاربين ! .. وقد مات هولاكو وأعقبه نجله (أباقا) فسار على سنة والده فى عداء مصر ومحالفة الصليبيين ، بل انه توسع كثيرا فى هذا الميدان ، فصاهر امبراطور القسطنطينية وتزوج ابنته ، وأرسل الوفود الى بابوات روما وأباطرة أوربا ليضمهم الى صفه فى الكفاح المشترك العنيف ، وقامت بينه وبين المسلمين معارك شديدة كان النصر فى أكثرها لبيبرس ، ولكنه كان نصرا غاليا يكتسب فى طريق وعر شاق ، ولا تقطف ثمرته المستعصية دون نضال مرير ، وقد تخللته رغبات خادعة ، فى الصلح والتهادن كان يضطر اليها الظاهر اضطرارا ليقوم بهجوم مفاجىء على معاقل الصليبيين ثم لا يلبث أن يشم رائحة الخيانة التتارية ليرتد سريعا الى ميدانه الشاق الكريه ، وقد أرسل الى الظاهر أحد أمرائه يذكرون مايعانون فى القتال والمحاصرة من شدة وعناء ، فكتب اليهم يقول : انا بحمد الله ما خصصنا عنكم براحة ودعة ، وما أنتم فى ضيق ونحن فى سعة وليس بيننا الا من يباشر الحروب وينقل الأحجار ، وقد تساوينا فى هذه الأمور وليس ثم ما تضيق به الصدور ، ولعمرى لتلك رسالة تنطق بالبلاء والجهد ، وتصور الكفاح المستميت الذى يقوم به الجيش الاسلامى فى كل ميدان حتى ما يجد متنفسا وادعا يعقب بعض الراحة والهدوء ، وصدق القائل : لولا المشقة ساد الناس كلهم ! ..

واذا كان تحالف التتار مع الصليبيين منطقا طبيعيا توحى به الحوادث المتوقعة فان من الغريب الشاذ أن يتحالف الاسماعيليون وهم بعد مسلمون موحدون مع الصليبيين فيكونوا عدوا ثالثا يوجه مكايده النكراء الى المسلمين ، ولا تنس أن الاسماعيلية طائفة ارهابية تتخذ من الغدر والاغتيال والمغامرة المجنونة أسلحة ذريعة لتحقيق المآرب واشعال الثورات ، وقد احتال « بيبرس » حتى اقتحم حصونهم وشرد عصائبهم ، وضم كثيرا منهم الى صفه ، وكان الأولى بهذا الجهد الجاهد أن ينصرف الى أعداء الاسلام لو فهم الاسماعيليون أسرار دينهم ، وخضعوا لما يوحيه من اتحاد وأخوة ، ولكن روح الاسلام قد جهلها الاسماعيليون واستشفها

زعيم مغولى هو الملك المسلم « بركة خان » فأرسل جنوده لمساعدة الملك الظاهر ضد ابن عمه هولاكو ٠٠ وحارب المغول بعضهم بعضا ، لكنهم كانوا فريقين مختلفين ٠٠٠ فريق لمس هداية الايمان فاستضاء بنوره ، وفريق غرق من الوثنية المظلمة فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ماطر وابتهج المسلمون باخوانهم فى الدين ابتهاجا تفتحت به القلوب ، وانشرحت له الصدور على حين اكتئاب الوثنيون من المغول اكتئابا خلع النفوس وأظلم العيون ، و « بركة » هــذا هو الملك العظيم الذى اعتنق الاسلام عن رغبة صادقة ، فقد هيأت له المصادفات السعيدة من أطلعوه على القرآن ، ففهموه روح الاسلام ومبادئه القويمة ذات النهج الصحيح كما ألم بما يدعو اليه الدين الحنيف السمح من حرية ومساواة وعدالة ، وما ينادى به فى دنيا الأخلاق العالية من حياة طاهرة يغمرها الصدق والاخاء والأمانة ، وقد أدرك هذا الزعيم بفطرته الطاهرة البيضاء تعــاليم محمد فصادفت منه نفســا عالية كريمة تدعو الى الحق والخير والجمال ، ولك أن تمتلىء اعجابا بمثل هذا الغالب المنتصر الذى يعتنق الاسلام عن طواعية واختيار ، فلم يفرض عليه بالسيف فرضا كما يزعم ذلك المتخرصون ، وقد وصلت رسل «بركة خان» الى القاهرة فاحتفل بهم الظاهر احتفالا رائعا ، وخلع عليهم خلعا نفيسة غالية وبعث معهم الهدايا النادرة ، بل أمر خطباء المساجد بأن يدعو للملك المغولى بعد الدعاء لبيبرس على منابر دمشق ، ومـكة ، والقدس ، والقــاهرة ، فانظر كيف يرأب الاسلام قلوبا متباعدة ، وكيف يفرق الكفر نفوسا متآخية ، بل استمع الى الملك « بركة » يقول فى كتاب أرسله الى الظــاهر ٠٠ لقد حاربت «هولاكو» الذى هو أخى من لحمى ودمى اعلاء لكلمة الله العليــا وتعصبا لدين الاسلام ، لأنه باغ ، والباغى كافر بالله ورسوله ٠٠ فيالها من أخوة صادقة فى الاسلام يعتصم بها أتباع الفكرة المحمدية فى كل مكان وزمان، وتلتئم بهــا جراح ناغرة توشك أن تنفجر لولا أن تداركتها رحمة الله بالبلسم الناجع ، والشفاء السريع ، « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » ٠

وقد تكللت جهود «بيبرس» بالنجاح ، ففرق شمل التتار، وأصبحوا شراذم تفترق ، وتجتمع لتسلب قافلة عابرة أو تحارب فى جبهة محدودة ، أما أن يتحدوا فى جيش كثيف ملتئم يرهب الدنيا بزحفه المتوحش فهذا ما تقادم عليه العهد ، وأصبح تاريخا يسرد ، وذكرى أليمة يتردد صداها البعيد ! ٠٠

ولك أن تقدر عظمة الظاهر ومكانته فى الشرق والغرب بعد أن قهر أوربا الصليبية ، وبدد طغيان الهمج من المغول ، فقد اكتسب مجدا قويا يجلجل حديثه فى الآذان ، وانطلق الحداة فى بواديهم النازحة يهزجون بوقائعه الغريبة كحوادث رائعة تخال من الخرافة وهى صدق تلمسه اليد وبراه العيان ، وقد رجع ذات مرة من بعض غزواته الظافرة الى القاهرة فوجد فى عاصمة ملكه خمسة وعشرين رسولا لخمسة وعشرين ملكا من ملوك الارض يحملون الهدايا والنفائس ، ويطلبون المحالفة والتعاهد بعد أن امتد سلطانه الشاسع الاطراف على امبراطورية كبيرة يحدها المحيط الهندى جنوبا ، والبحر الاسود شمالا ، والفرات شرقا ، وتونس غربا ، وكأنى به وقد سبح بخاطره فرأى أن ما تم له من المجد العظيم لم يكن ليخطر على باله يوم قبض على زمام الحكم بمصر متآمرا مع شيعته ، بل حين اغتصب صغيرا من بلاد «القفجاق» ليؤدى رسالة خالدة ويكتب فى تاريخ الاسلام صحيفة بيضاء ٠٠٠ انه الكفاح الصابر المرير يسانده الحظ الموفق السعيد ، فيؤديان للأمم الناهضة رسالة البعث والحياة٠٠ ويكتبان حديث المجد والخلود لكل عصامى باسل جاهد فظفر ، وبنى فشيد ، ورجا فتحقق الرجاء ٠



موسى بن أبي الغسان
فارس غرناطة

اننا نعجب بالبطل الكمى اذا قاد الجحافل الجرارة من نصر الى نصر، وقـذف بأبطاله المغـاوير فى ميـدان الدفاع عن العـزة فأحرز المفاخر الرائعة بجهادهم المستميت ، وتركوا لاسمه الخالد صدى يدوى ، وذكرا يتردد ، وهو من ورائهم يرسم الخطـة ويدير المعركة حتى يقتعد غارب المجد ، معتمدا على جنوده الأشاوس ، وقواه الهائلة مع ما منحه الله من شجاعة حازمة وعقل مدبر حصيف ..

ولكن العجب يتجاوز حده فيصل الى الروعة والادهاش حين نرى بطلا آخر لا يملك من الجنود كتائب متزاحمـة ، ولا يحرز من الذخيرة كمية متناسبة ، بل يركن الى نفر قلائل من ذوى العزم ، ويقف أمام عدد محتشد متكاثر يمرح فى آلاته وأسلحته وقذائفه ، ومع ذلك كله نرى البطل المغامر يقذف بنفسه فى لجج الموت ، ويتصور أن كتيبته المحدودة العدد قوة عاتية فيهجم بها كالاعصار وينقض أمامها كالصـــاعقة لا يعبأ بعاقبة ولا يهتم بموت ، بل انه ليتأكد من الخاتمة الرهيبة ثم لا ينى فى اندفاعه عن تلبية نداء البطولة مرحبا بالاســتشهاد فى سبيل المبدأ والعقيدة فاذا أبطأ عليه قليلا طار اليه موفور الكرامة ، مرفوع الرأس ليعلم الاجيـال القادمة أن الموت فى نور الحرية يفضل الحياة فى المذلة والاستعباد، وهذا مافعله البطل الاندلسى العظيم «موسى بن أبى الغسان».

ونحن لا نستطيع أن نعقد موازنة بين هذا البطل العظيم وغيره ممن اعتمدوا فى انتصاراتهم على الذخيرة الموفورة والعدد الكثير ، فبطلنا المغوار فدائى يطلب الشهادة غير متوقع جاها فى دولة أو منصبا فى مملكة ، والآخر رجل باسل تزدحم فى صدوره الآمال ، ويترقب اليوم الذى يتألق فيه كوكبه على مسرح السياسة والسلطان ، وبهذا الأمل المشرق يندفع بجيشه الحافل وعدده المتكاثر ، ولئن جاز لنا أن نقدر فيه روائع البطولة وعظمة القيادة فان تقديرنا العظيم يزداد ويمتد الى أقصى مدى يتاح لذلك

الذى فقد الأمل فى أحلك مواقفه ، فثبت فى الكريهة قدميه ليموت مرفوع الجبين كريم الاباء .

كان موسى بن أبى الغسان فارس غرناطة من أشجع من عرفهم التاريخ من الأبطال ، وهو ينتمى الى أكرم أصول العرب فى غرناطة ولهذا فقد أورثه محتده العربى همة عالية واباء بارزا ، واتخذه الشباب الغرناطى مثلا نادرا فى الفروسية والبطولة ، وتطلعت العقائل من وراء الخدور ليشهدنه ممتطيا جواده ، فى درعه السابغ ، وسيفه اللامع ،وقد سارت أحاديث بطولته فأرهبت العدو الزاحف ، ولو تقدم به الزمن حينا لاستطاع أن ينقذ الاسلام هناك بكفايته وفدائيته ، ولكنه أتى فى الرمق الاخير فشاهد الاحتضار الفادح فما استطاع أن يعيد الحياة الى ميت طريح .

كانت غرناطة فى أيامها الأخيرة مصابة بما أصيبت به الاندلس عامة من تنازع المطامع ، وتناحر الأهواء واشتداد الفتن والثورات وتسلط الأجنبيات من بنات النصارى ذوات الضغائن والأحقاد على الصعاليك من الملوك والوزراء ولئن كان « ابن حزم » قد قال فى أيامه انها قضية لم يأت الدهر بمثلها ، أربعة رجال يسمى كل واحد منهم نفسه أمير المؤمنين ، أحدهم بأشبيليه ، والثانى بالجزيرة الخضراء ، والثالث بمالقه والرابع بسبته » فان الشر بعد ابن حزم قد تفاقم وتطاير ، حتى كادت كل مدينة أن تصبح بنفسها ذات ملك وادارة وجيش ! . فى حين أخذ العدو يتجمع ويتآزر ، فاتحا عينيه على المدن الاسلامية ينصب الاشراك ويقيم الثورات ويبعث الدسائس والارصاد حتى أفلح فى تقويض الصرح الشاهق فانهار متخازل الدعائم ، مفتت اللبنات ، وكان من الحظ الأشأم أن سلمت غرناطة مقاليدها قبل مصرعها الأخير الى أبى عبد الله بن الأحمر ، وهو ملك لم يخلق للقيادة والكفاح ، بل انحصرت آماله وانكمشت آفاقه فى مدى يحتقره ذوو الهمم والمطامع .. ثم هو فى الوقت نفسه يرضى بأن يكون آلة مسخرة فى يد « فردناند الخامس » .. يضرب به ذوى قرابته من المسلمين ، فتقوم الثورات الداخلية، ، وتتزايد الحرب الأهلية ثم يهيىء له ملك الفرنجة محاربة عمه « محمد بن سعيد الزغل » فتنقسم غرناطة الصغرى الى قسمين : قسم يحكمه أبو عبد الله ، وقسم يسيطر عليه عمه ويهتبل « فردناند » فرصة التناحر الداخلى فينقض أولا على « الزغل »ويخلص منه خلوصا يضمن له السيطرة على بلاده المحدودة .. واذ ذاك يتابع خطته الماكرة فيزحف الى غرناطة ، وهى يومئذ عزلاء شلاء .. فيهجم عليها هجوم الصاعقة وتحين الساعة الفاصلة لتصطرع القلة المتخاذلة مع العدو الحاقد فى قوته العاتية ، وبأسه الشديد .

ان سياسة « فرق تسد » تلك التى يستغلها الاستعمار الغربى فى عصرنا الراهن ليست وليدة هذا القرن ، ولكن جذورها تمتد فى أعماق الاجيال الى مدى شاسع الأطراف يعرفه من يطالع صحف التاريخ ، ويلم بالبواعث الأصلية لسقوط الحضارات ، وانهيار الأمجاد ، ومع أن تاريخ الأندلس فى عهد ملوك الطوائف حافل بشـتى العظات البـالغة والعبر القاسية، فان هذا الملك الصغير قد أغمض عينيه عما يزدحم به الأفق من غواش دامسة ، وأوصد أذنه عما تقدم به الناصحون من رأب الصدع وجمع الكلمة ، ولن نعفى مع ذلك عمه من التثريب والملامة ، فقد كان عليه أن يكون أشد حصافة وأوسع ادراكا ، فيجنح الى المسالمة فى جو تحوم فيه النسور الجارحة فوق ضعاف العصافير ، ولكنها الأنانية المفرطة التى تقدس الذات وتهوى بالمثل الرفيعة مهما رجفت الأهـوال وتطـايرت الخطوب .. وهاهو ذا « فرديناند » يزحف بخيله ورجله ليمحو العروبة والاسلام من ربوعها الزاهرة .. وليصفع هذين القزمين صفعة أليمة تهوى بهما الى القاع !! ثم تدور الدائرة فلا تبقى لدى الرجلين غير ذكريات حزينة يلفها الأسى وتكفنها الأشجان ..

لقد سـارت جيوش العدو الى غرناطة وقد حسبتها مائدة حلوة الازدراد ، ومنهلا عذب الورود « ففرديناند » أدرى الناس بتضعضع ابن الأحمر وتخاذله ، ولكنه لا يدرى أن الأقدار قد اصطفت موسى بن ابى الغسان ليجرعه كئوس العلقم والصاب ، فقد بادر القائد العربى الباسل الى تنظيم السرايا وتهيئة العدد ، وأخذ يقود الكتائب بنفسه وينقض على الجمع المتكاثر مع الصفوة المختارة من جنوده فيثخن ويصرع !! ويظهر من خوارق البطولة ما يفوق الظنـون ، ويعـدو الأوهام حتى تحير « فرديناند » فى أمره ، وأصبح اسم موسى مثار القلق والفزع من نفسه فهو يعجب لقائد فى كتيبة صغيرة يفر أمامه الطوفان اللجب كقطيع متخاذل تفزعه طلقة رئبال جرىء ..

واذ لم تجد القوة الطاغية فى بأس البطل الكمى فقد عمد العدو الى حصـار غرناطة من كل ناحيـة ، فواجه موسى أزمة اقتصادية حادة كانت أشد عليه من طعن السيوف والرماح ، فقد نفدت المؤن وتلوت بطون الجياع من الأطفال والنساء والكهول ..

ولكنه اعتمد على ذكائه اللماح فوضع بنفسه نظاما خاصا لتوزيع الطعام ، وقاد الفرق الفدائية من الشباب الباسل للتسلل بين الثغرات واختطاف المؤن من براثن الأعداء ..

ونظر العدو الى الكتائب الصغيرة تنقض انقضاضا طائرا فتخطف المؤن وتسرع بها الى البطون الساغبة والأحشاء المنخوبة فتطعم من جوع وتدفىء من برد .. ولم يجد الحصار شيئا فى تضعضع القوى وانخذال العزيمة كما كانوا يظنون .. واذ ذاك صمم « فرديناند » على اقتحام أسوار المدينة وأصدر أمره السريع بالزحف ، ولكن عين موسى تمتد الى خارج الأسوار فتدرك ما طرأ من التجمع والتحفز ، ويرى أن يتخذ للموقف عدته ، فيجهز كتائبه ويخرج الى اللقاء دون ما اكتراث بالحشد الزاخر والعتاد الوافر ، ودارت معركة رهيبة بين قوتين غير متكافئتين ، وأبلى المسلمون بلاء حسنا فقتلوا من أعدائهم جموعا كثيرة ، ولكن الكثرة الكاثرة تتغلب وتتقدم ، فانسحب موسى الى الوراء وهو يضطرم غيظا لما يشاهد ، فقد عدم السلاح والرجال الا نفرا لم تغن شجاعتهم شيئا ازاء ما يواجهون من فيضان صليبى يكتسح السهول ويعشى الأنظار ، وقد بادر القائد الفدائى فأغلق أبواب غرناطة ، وتراجع ليبحث فى الأمر بعد أن تفاقم الشر واندلع اللهيب !! .

لقد اجتمع أبو عبد الله بن الأحمر مع رجاله وأعيان دولته يتشاورون فيما عسى أن يكون ، وقد سد عليهم اليأس كل سبيل فشبح الهزيمة يدنو ويقترب ، وقد نفدت المؤن ، وتراكمت الجثث ، وأخذ حاكم المدينة أبو القاسم بن عبد الملك يشرح الموقف على حقيقته وقد نكست الرءوس ، واندلعت الحسرة فى القلوب ، وأجمع الحاضرون على أن الشعب لم يعد يستطيع دفاعا فى حومة خاسرة مهلكة ، فالاستسلام وحده هو الحل الأصوب للمأزق الضائق .. ولئن أقنع هذا جميع الرؤساء ممن يتشاورون فان موسى وحده ينفرد بالمعارضة ويرى مواصلة الدفاع مفضلا أن تفنى قوات المدينة ويصرع أبطالها بعد أن يصرعوا أضعاف عددهم من أعدائهم واذ ذاك يدفع العدو ثمن غرناطة باهظا فتتعاظم النكبة وينقلب نصره الى مأتم نواح ! ..

رأى جرىء تدفعه غيرة الشباب ، ويمليه طموح القائد وفدائيته ، ولكنه مرهق عسير لا سبيل لتنفيذه بحال ، فقد أقر المجتمعون الصلح ووفد عليهم رسول « فرديناند » يحمل شروطه المغرية موشاة بوعوده المعسولة وخداعه البراق وشروط العدو مقبولة فى مثل هذا المأزق البهيم لو تمسك بها صاحبها ، فارتبط بما تعاقد عليه من مواثيق ، ولكنه يقدمها بيمينه ليمزقها بشماله بعد أن ينتهى التوقيع وتستسلم المدينة الى عدوها المغير !! .

قرأ موسى شروط العدو فماذا رأى ؟ ٠٠ رأى سبعة وستين شرطا تتضـــمن اخلاص العدو ووفاءه ٠٠ فهـو يود اطلاق سراح الأسرى من المسلمين والنصارى بلا فدية ٠٠ ثم يطمئن العرب على دينهم وأعراضهم وحريتهم مع اجازة من يريد الهجرة الى بلاد المغرب ، كما أنه ســيقطع أبا عبد الله بن الأحمر ضياعا واسعة يعيش فيهــا بقية حياته ٠٠ وعلى المدينة أن تقدم خمسمائة شــاب من أبطالها رهينة تضمن الوفاء والطاعة وأن يقسم الملك وكبار القادة يمين الولاء لملكى قشتاله وارغون ! ٠٠

قرأ الشروط وابتسم ٠٠ فهو يعلم أن هذا الغادر قد نكث كثـيرا بما سبق أن تعاهد عليه ، فبالأمس القريب عاهد صاحب « مالقه » حتى اذا تمكن منه قذف به فى بئر مظلمة رهيبة ثم ساق المســلمين أرقاء الى أشبيلية فسلط عليهم الأسنة والحراب ، وأقام المشانق والأنطاع وأجبرهم على الانسلاخ من دينهم العزيز ، وانتهك حرمات المســاجد وعبث قوانين الاسلام وصــنع ما يصــنع الحاقد الألد ، وقد تمكن من غريمه الواهن الضعيف فشرب من دمه ، ونثر أشلاءه على الثرى أكداسا فوق أكداس ! ٠

لقد قرأ المجتمعــون الشروط وانفرد موسى بالمعارضــة ، وذهب أبو عبد الله ليسلم مفاتيح المدينة ، على حين انطلق موسى فلبس درعــه السابغة ، وركب جواده الأصيل وأعد من شبابه الفدائيين كتيبة باسلة تقذف بأرواحها فى صفوف العدو ، وقد تعاقد الأبطال على أن يقـوموا بهجوم جنونى ماحق ، فهم قلة ضئيلة لا تلبث أن تتجمع عليهم الكتــائب فتعصف بهم فى أقرب مدى يتاح ،فعليهم ـ وقد صمموا على الاستشهاد ـ أن يدعوا منطق الروية والتدبير ، فيعملوا ســيوفهم ذات اليمين وذات الشــمال طائرين متوثبين ليأخذوا بالثــأر الناقم ، قبل أن يتهاووا الى مصارعهم مستشهدين ٠٠ وطارت النسور الى ميدانهــا الرهيب فكأن اعصارا يهب فيكتسح الصــفوف ٠٠ وفتح الفرنجة أعينهم على كتيبة صغيرة تمحق ما تأتى عليه ٠٠ وقائدها الباسل يطير من صف الى صف فينثر الأشــلاء ويقط الرقاب ، ولقـد تجمع الطوفان العرمرم بعد أن أذهلته روعة المفاجأة وأحاط بالفدائيين مناضلا مجالدا ، وبعــد كفاح عاصف مرير صعدت أرواح الشــهداء قريرة مغتبطة برضوان الله ، أما موسى العظيم فقد اعتورته الســيوف وتقاذفته الرماح ، فما وجدت من دروعه السوابغ منفذا تصيب منه مقتلا ترديه الا بعد أن ذبح كثيرا من أعدائه وحين تكاثر عليه الجمع قذف بنفسه الى الموج فاحتضنه النهر دون أن يسلم جثته للباغين ٠٠ وكأنى به وقد قر عينا بما صنع فودع الحياة وقد أعذر نفسه أمام ضميره ، ذلك الضمير الثائر الطموح الذى ارتفع

يصاحبه عن ضعف البشرية واستسلامها وطاربه أفق ساحق لا تبلغه ذات جناح !! ٠

واحسرتاه ٠٠ لو كان هـــذا الموقف الخالد لبطل غربى لأقيمت له النصب ودونت فى شجاعته الأسفار ، ولأصبح اسمه مقطوعة رائعة من أناشيد البطولة تتردد على الشفاه وتصدح بها الأوتار ، ولكننا لا نجـد من مؤرخى المسلمين من يعكف على دراسة سيرة هذا الفارس الأشم ٠٠ الا كلمات متناثرة تتفرق وتتبــاعد ، فاذا لم يكن مصرعه النبيل الأبى مذكيا للعواطف وملهبا للأحاسيس فيخلده الشعراء فى ملاحمهم والقصاص فى رواياتهم ، فأى موقف بعده يتخذ مهبطا للالهام وأفقا للشـــعاع ٠٠ وفى تاريخ الاسلام مئات من الأبطال قدموا أنفسهم للموت وهم يدركون نهايتهم الرهيبة ويرونها رأى العين دون أن يقعد بهم خور أو ينكص بهم أحجام !! ، فأين ما كتبه مؤلفو العرب عن هؤلاء ؟! ان الذل الاستعمارى قد جرى فى العروق ودب فى العظام ، فأصـبح الكاتب المســلم يفرد المجلدات الواسعة ليتحدث عن نابليون وجاريبالدى والاسكندر ٠٠ ثم يضن ببحثه على بطل ممتاز كموسى بن أبى الغسبان لا يكاد يلتفت اليـه شاعر محلق ، أو مؤرخ محقق أو قصاص أديب ٠

وقد كان ما توقع البطل الفدائى أن يكون ٠٠٠ فقد غدر «فرديناند» بما أخذه على نفسه وطفق ينتحل الأسباب الظالمة لمحاكمة المســلمين ، وأوقد المحارق لاعدام البررة ممن ثبتوا على دينهم ، واضطر كثـيرون الى التنصر لسانا لا قلبا ، وانتهكت أعراض وذبحت رقاب ٠

وتسـألنى أين كان المســلمون فى المشرق حين ذاك ، وقد صرع الاسلام فى الأندلس فما وجد ظهيرا يلوذ به أو سندا يحميه ٠٠ لقـد تطوع بعض الكتاب بالاجابة على هذا السؤال فأبدى معـاذير مختلفة لا تمنع المؤاخذة والملامة ، وهى بعـد فروض واهية لا تثبت لتمحيص دقيق ، أو ميزان مستقيم ، فمما لا شـك فيه أن العثمانيين وحدهم فى قوتهم الباسلة وسلطانهم المرهوب كانوا أقدر المسلمين على اغاثة اللهيف ونجدة المكروب ، ولكن أفقهم المحدود جمد بالدم فى العروق فلم تعصف بنفوسهم حمية أو تدفع بمعونتهم نخوة ! ٠

أجل لقد وجد من الكتاب من يبرر تقصير المسلمين عامة عن النهوض بالأندلس من كبوتها الماحقة ، فيقول عن أهل المغرب فى العدوة انهم كانوا فى ثورة مضطربة لحروب نشبت بين أفخاذ بنى مرين ، فمـا استطاعوا أن يقوموا بواجب الاسلام فى نصرة اخوانهم المسلمين فى حين

احتل الأسبان ثغور العدوة فحاصروا غرناطة جنوبا وشرقا بالاساطيل ، وشمالا وغربا بالجنود ! كما يقال فى معرض التبرير عن بنى الاســـلام فى مصر وتركيا حديث كله عجب !! فقد زعم الزاعمون أن قايتباى رجل مصر قد تشاور مع بايزيد الثانى صاحب تركيا على انقاذ غرناطة ، ولكن فرديناند أقنع سلطان مصر بوساطة سفيره الماكر « بطرس مارتير » بان الأسبان يدافعون عن أنفسهم أناسا غصبوا ديارهم ونهبوا أموالهم ٠٠ فاقتنع الرجل بما سمع ، وآثر السلامة مع صاحبه بايزيد ، ولعمرى ان كلمة الحق ليجب أن تقال قاسية اليمة فى هؤلاء المتواكلين عامة ، وفى الأتراك بنوع خاص ، فبنو مصر والمغرب قد يلتمس لهم بعض العذر فى قلة الحيلة وضعف الجهد ، أما بنو عثمان فما كانوا فى الواقع يحرصون على ازدهار الاسلام وانتعاشه حرصهم على الغنائم والأسلاب وما يتبعها من السيطرة النافذة والظل المديد ، ولو نفذ هؤلاء تعاليم الاسلام فيمـا ملكوا من الدول وفتحوا من البلاد لأشرقت شمس الاسلام فى أماكن يلفها الظلام وتغمرها الدياجير ، ولكن مســـتعمراتهم الواهنة ما كادت تحس تخاذلهم المترنح حتى انتفضت تخلع عنها نير الذل والاســـتعباد ، ولو أنست هذه الشعوب رحمة الاسلام وعدالته فى أناس لا يحملون منه غير اسمه لقدست فى اكبار دين الحرية والعدالة والمساواة ٠٠ وحسبك ان مصر ـ وهى المسلمة العريقة ـ قد لقيت من عنت بنى عثمان ما جعل أبناءها ينقمون على اخوانهم فى الدين ما يلقون على أيديهم من الذلة والاغتصاب ٠٠ فما بالك بأمم لم تعرف شيئا عن منابع الاسلام ومبادئه الكريمة فى الرحمة والحرية والمساواة !! ٠ هؤلاء هم الأتراك العثمانيون ! ٠

أما ملوك الاسلام الآخرون فى شتى ممالكهم المتناثرة فقد حملوا معهم ـ فى تغافلهم الشائن وتكاسلهم المؤسف ـ أكبر تبعة توجه الى اخوة جمع بينهم الدين ووحدتهم المشاعر والأحاسيس ، سلام على الأندلس الشهيدة ٠٠ وتحية عاطرة الى روح شهيدها الفدائى موسى بن أبى الغسان فى فردوسه البهيج ٠



الامام شامل

بطل القوقاز

حين زار الأمير عبد القادر الجزائرى قصر « فرساى » شاهد لوحات كثيرة تصور حروبه مع الفرنسيين وتبرز انتصاراتهم واضحة مجلية ، فالتفت الى من حوله من كبار المسئولين فى باريس وقال : لماذا لا تصورون هزائمكم هنا كما صورتم انتصاراتكم كى تصيبوا الحق ؟!

وحين دعى الامام الشيخ شامل الى احدى حفلات القيصرية بروسيا بعد استسلامه جلس بجانب الامبراطور اسكندر الثانى على المائدة فالتفت اليه القيصر مبتسما ثم قال : اننى فخور جدا أن أرى فى مثل هذا اليوم السعيد رجلا عظيما مثلكم فى ضيافتى ، فالتفت الشيخ شامل الى جليسه ثم قال :

لو أن شخصكم الكريم كان فى أسرى وضيافتى لكان سرورى أعظم وافتخارى أجل ٠٠ أرأيت الى العزة العالية لدى البطلين الكبيرين ٠٠ وتساءلت عن هذا النمط من الأفذاذ الذين تحدوا صواعق الحرب ومكتشفات العلم التدميرية فوقفوا بحقهم وايمانهم أمام الطغيان موقف القريع من القريع وماوهنوا لما أصابهم من بلاء ، بل أضافوا اليهم ذخيرة من الصبر والثبات ٠

لقد هجمت جيوش القيصرية على بلاد الداغستان الاسلامية التى تقع على الضفة الغربية من بحر الخزر ، وعلى المنحدر الشرقى لجبال القوقاز متوهمة أن طريق الهجوم معبد ذلول ، لأن العالم الاسلامى اذا كان من التفكك والتخاذل ، بحيث لا يستطيع أن يحمى عضوا منه فيجب أن تنهار جميع الأعضاء ٠٠ ولكن هذه الجيوش وجدت القدر يدخر لها البطل القوقازى المسلم الامام الشيخ شامل ليؤدى دور عبد القادر فى الجزائر ، وعبد الكريم الخطاب فى المغرب ، وعمر المختار فى ليبيا ، وأحمد عرابى فى مصر ، بل ليفوقهم جميعا شدة مراس وقوة احتمال ٠
على أن من العجب العاجب أن تسجل صفحات البطولة ـ فى

العربية ـ جميع ما قام به هؤلاء الأبطال من صراع دون أن تسجل صفحة للشيخ شامل ، فقد حاولت أن أعثر على الكثير من روائعه فلم أجد شيئا ذا بال مما أريد ، ولولا بضع مقالات للأستاذ برهان الدين الداغستانى بالرسالة وعدة تعليقات للأمير شكيب أرسلان بكتاب حاضر العالم الاسلامى ، ما استطعت أن أعد هذا الباب ٠

لقد تفرد « شامل » وحده بين لداته السابقين بأنه قضى خمسة وعشرين عاما يكافح القوة الحاشدة ، وهى أطول مدة عرفت لبطل اسلامى حارب الاستعمار ، وانى لأقرأ آيات بطولته فأعلم أن من الناس من يخيل الى أنهم ليسوا من فصيلة الانسان ، بل وهبهم الله قوة تتحدى الزمن وتخضع الطبيعة لعنصرها الفعال ، والا فكيف يقف بطل عظيم كالامام شامل بأسلحته البدائية أمام القوة الطوفانية خمسة وعشرين عاما لا يهدأ ولا يستكين ٠

أذكر أننى قلت فى مقدمة ما كتبته آنفا عن موسى بن أبى الغسان « نعجب بالبطل الكمى اذا قاد الجحافل الجرارة من نصر الى نصر وقذف بأبطاله المغاوير فى ميدان الدفاع عن العزة فأحرز المفاخر الرائعة بجهادهم المستميت وتركوا لاسمه الخالد صدى يدوى ، وذكرا يتردد ، وهو من ورائهم يرسم الخطة ويدير المعركة حتى يقتعد غارب المجد معتمدا على جنوده الأشاوس ، وقواه الهائلة ، ولكن العجب يتجاوز حده فيصل الى الروعة والادهاش حين نرى بطلا آخر لا يملك من الجنود كتائب متزاحمة ، ولا يحرز من الذخيرة كمية متناسبة ، بل يركن الى نفر قلائل من ذوى العزم ، ويقف أمام عدد محتشد متكاثر يموج فى آلاته وأسلحته وقذائفه، ومع ذلك كله نرى البطل المغامر يقذف بنفسه فى لجج الموت ويتصور أن كتيبته المحدودة قوة عاتية فيهجم بها كالاعصار ، وينقض أمامها كالصاعقة لا يعبأ بعاقبة ، ولا يهتم بموت ، بل انه ليتأكد من الخاتمة الرهيبة ثم لاينى فى اندفاعه ملبيا نداء البطولة ، ومرحبا بالاستشهاد فى سبيل مبدئه الأصيل ٠٠ هذا بعض ما قلته عن موسى بن أبى الغسان فارس غرناطة ، وانى أقوله اليوم عن الشيخ « شامل » ولداته من أمثال عبد القادر ، وعرابى ، والمختار ، وعبد الكريم ! لكى يعلم كتاب التاريخ ان هؤلاء بجهادهم المرير أصدق بطولة من قواد الأسلحة والجيوش وأرباب السفك والتدمير من أمثال الاسكندر ، وجنكيزخان ، وتيمور لنك ونابليون ٠٠ هؤلاء الذين سخروا القوى المتراصة للعدوان والطغيان ٠٠ ونحسبهم مع ذلك فى طليعة الأبطال ٠

وبعد فمن هو الشيخ شامل ·· ؟ وكيف أدى دوره ·· ؟ وما ميدانه الذى شهد روائع بطولته ؟ هذه أسئلة كاشفة سنجيب عليها الآن ·

بلاد القوقاز ـ كانت تسمى أيام الفتح الاسلامى بلاد الخزر وهى نواح جبلية مرهقة يسكنها أناس شداد صلاب الأجســـام ، وقد لاقى المسلمون من لدن عمر بن الخطاب الى ما قبل نهاية الدولة الأموية فى فتحها صعوبات مرهقة عنيفة ، فان طبيعتها الجبلية كانت تتيح لأبنائهـــا من التغلب أكثر مما تتيحه قوة الغازى الظافر ، هذا الى ما جبلوا عليه من القوة الصارمة والبأس العارم ، وقد لبثوا أكثر من مائة عام حتى فهموا روح الاسلام وتشربوا مبـادئه العـــادلة فدخلوا فى دين الله أفواجا ، وأصـــبحوا بعد ذلك أشد الناس حماســـة للحنيفة المحمدية ، وأكثر المسلمين اعتدادا بدينهم الأثيل ، وقد تقلبت بهم مظاهر الحكم من قرن لقرن حتى غزاهم السلطان العثمانى « مراد الثالث » فاستكانوا لصولة الدولة العثمانية حينا ، ثم نازعها الايرانيون حكم البلاد حين دب الوهن الى الرجل المريض ، ومازالت بلاد الداغستان تتذبذب بين تركيا وفارس حتى دهمها الغزو الروسى فى أوائل القرن التاسع عشر فشمرت للكفاح عن بصيرة واعتداد ·

كان أبطـــال القوقاز لا يهجمون بغضب فى مصاولة الأتراك أو الايرانيين ، لأنهم كانوا فى اعتقـــادهم مسـلمين مثلهم ، ولو أحســن العثمانيون سياستهم فى هذه البلاد لجعلوا منهـــا ســـياجا يقيهم بلاء القيصرية الروسية فيكونون قوة عاملة فى جيش الاسلام ، ولكن الطيش التركى اندفع يناوىء بلادا تشاطره مشـــاعره وآماله ، وتدين بمبادئه ومعتقداته فعمت الكارثة الجميع ·

لقد زحف الطوفان الروسى على بلاد عزلاء لا تملك غير ســـواعد أبنائها ، فهبوا عن بكرة أبيهم تحت قيادة البطل الأمير « سورخاى خان » وصدقوا البلاء فى معارك حمراء ردت السلاح مغلولا منكسرا فى صدور المعتدين ، ولكن المال الخادع شرى نفوسا كثيرة فهب المغرضون يعلنون أن الروس أصحاب عدالة وحرية ومساواة ، ثم أخذوا ينشرون الأراجيف ويبالغون فى مقدار ســـطوة الجيش الروسى وأدواته الجهنمية فى الفتك والتدمير متعللين بأن العقل الناصح يدعو الى مسايرة العدو القوى وأن السلم أجدى من حرب غير متكافئة ستأكل الشباب القوقازى فى غير نجاح ، ثم تستسلم البلاد فى النهاية الى فاتحها القاهر العنيد ·· واندفع الوصوليون من هؤلاء المرجفين الى المناداة بصداقة روسيا مع وجوب نقل

نظمها فى الادارة والتعليم والجيش سريعا الى البلاد ، وارسال البعوث العلمية لترد حضارتها وترجع ثانية الى شواطىء بحر قزوين فتطلع على الناس برسالة البعث الحضارى الجديد .. ونظر المجاهدون فاذا المال يخدع ، والدعاية تعنف وتستشرى ، والرأى العام حائر متذبذب لا يجد أمامه طريق الثبات والاستقرار ، فنهض ذوو الغيرة من المسلمين الى تزييف ما يقال ، وأسرعوا فجمعوا عزائمهم المخلصة تحت قيادة الشيخ محمد الغازى الكمراوى بعد أن استشهد الأمير « سورى خاى » بأعوام ، وكان القائد الجديد عالما فاضلا كسابقه الا أنه لجأ أولا الى انارة الأذهان وتعبئة النفوس بطريق الخطب والمؤلفات حتى قضى على مركبات النقص لدى بعض المتضائلين المبهورين ، وكون كتائب بدائية زحف بها على معاقل الاحتلال وظفر بالاستشهاد بعد أن حدد أهداف النضال فى وجوب طرد الغاصب واتباع الشريعة الاسلامية فى تنظيم الدولة ورعاية الحقوق والواجبات ، وخلفه الغازى الظافر « حمزة بك » فواصل الجهاد بالرأى والسيف ، وجمع القلوب على التآزر والتلاحم فى مجالدة الأعداء ثم أدركته الشهادة كزميليه السالفين ليأخذ الراية من بعده المجاهد الباسل الشيخ شامل بطل الأبطال .

لم يكن الأمير « شامل » بعيدا عن المعمعة قبل آن يتصدر القيادة ، فقد كان تلميذا مخلصا للغازى الكمراوى ، قرأ كتبه وسمع خطبه ثم انخرط فى كتائبه فداهم معه المستعمرين فى وقائع شهيرة جهيرة وفى الجولة الأخيرة التى استشهد فيها الكمراوى كان شامل الى جواره (٢٨ من أكتوبر سنة ١٨٣٢) فضيق الروس حصار المجاهدين فى منزل جبلى، وخرج الغازى مستبسلا ليفك الحصار فاستشهد ، ونظر شامل فاذا أمامه قائده يفوز باحدى الحسنيين فرخصت الحياة فى عينه وخرج من المنزل وسيفه فى يده هاتفا بشعار الاسلام لا اله الا الله .. لا اله الا الله ثم ضرب بسلاحه وحده ذات اليمين وذات الشمال غير مكترث بما سيكون ... وذعر الروس لهذا المارد الذى انبثق وسط جموعهم من الأرض فجأة وفتك بمن حوله ممن وقع عليهم السيف ، فخاف الجبناء واندحروا ووجد البطل نفسه وحيدا فابتسم ، غير أنه لمح الكتائب تتجمع بعد ذهول المفاجأة لتصده فلاذ بالفرار وظل الأعداء يتابعونه بالسهام والقسى الى أن أصابته قذائف نافذة أسالت دمه ، فلم يلتفت الى جرحه الغائر ، وواصل العدو مجروح الكتف والصدر والظهر حتى التجأ الى مغارة أكنته وامتدت به العلة ثلاثة أشهر كان حمزة بك فى أثنائها قد تولى القيادة فارتاح الجريح لمواصلة القتال وقر عينا ، حين أيقن أنه أدرك ثأر أستاذه

بما صرع سيفه من أجناد ! ، وأخذ يتماثل للشفاء فما تم له على أيسر وجه حتى أصبح رفيق القائد الجديد وصاحب مشـــورته الى أن لقى الله فتطلعت الأنظار اليه فصدق الظن وأعلن الكفاح ٠

كان « الشيخ شامل » قائدا بعيد النظر ، فقد أدرك للوهلة الأولى أنه أمام قوات جرارة لا ينقطع لها مدد ، ولديها من السلاح والعتاد والقوة ما يكفل لها اخماد أى وثبة تنتفض ٠٠ وهو فى موضعه من القيادة لا يجد لديه غير أناس يؤمنون بحقهم على قلة فى العدد ، وضآلة فى المعدات ، ومن سبقه من الزعماء لم يستطع أن يدير الأمر ادارة شـــاملة ، فليس هناك فرق لاعداد المتطوعين ، ولا مصـــانع للأسلحة ، ولا خزانة لتوفير المال وتهيئته ، وكل ماليده جماعة متحمسون عزموا على النضال دون أن يأخذوا للحرب أسبابها الدافعة للنجاح ، فواجه الخطر فى ميدانه ، وملك عليه أقطاره الشاسعة كيلا يفلت من المجاهدين الزمام ٠٠ ومن ثم فقد أقام معسكرات للتدريب ، وحدد السن المهيئة لحمل السلاح ، وعين الضباط من المدربين ، وفرض المال والطعام لمن بذلوا أنفسهم للجهاد ، ثم اهتم بالناحية المالية فأنشأ بيت المال على غـــرار النظام الاســـلامى فى صدر الاسلام ، وقسم الغنائم متقيدا بآية الأنفال : خمس لبيت المال ، وأربعة أخماس للمجاهدين والمحاربين ، ولم يغفل الناحية الدينية ، بل جعلها مصدر الحماسة الدافعة ، اذ عين الوعاظ والمرشدين وأرسلهم الى الأقاليم والدساكر يشجعون على الجهاد ويتلون آيات الدفاع والقوة ، ومن ورائهم قضاة الشرع وجباة الزكاة ونواب الأمير يعيدون الخلافة الراشدة بالنصح للرعية والمساواة بين الناس واقامة حـــدود الله واتباع هـــدى الاسلام ٠٠ ونظر القوقازيون فاذا البطل القائد حازم يقظ ، بعيد النظر، يريد أن يقف على أرض صلبة قبل أن يقتحم الميدان ، فنهضوا الى تأييده من كل فج ، وسرهم أن يشـــهدوا بأعينهم قيام حكومة اســـلامية فى الداغستان ظلت أكثر من ربـــع قرن تحت قيادة شـــامل تنفذ أحكام الشريعة ، وتعد للأعداء ما تستطيع من قوة ومن رباط الخيل ، وتعلن أن الحياة كفاح ، وان الشهادة فى نصرة الحق مفخرة خالدة فى الدنيـــا ، ورضوان من الله فى دار السلام ٠

وكان لهذه الادارة الحازمة أثرها القـــوى فى اندحار الأعداء حتى اضطر القائد الروسى المحنك « كرف » أن ينسحب بقطيعه الصـــاخب محتميا بقلعة (شورا) فى يأس وخذلان ، وسرى نسيم الفوز عبقـــا فواحا فقوى العزائم ، ودفع اليائسين الى رحاب الأمل فأصبحوا يؤمنون بمهارة شامل وكفايته ٠٠ ويعلمون عن يقين أنه ربان السفينة فى بحرها

الصاخب المواج ! ، أما الروسيون فقد طار طائرهم ولم يصـــدقوا فى موسكو وما حولها أن القائد القوقازى يستطيع بنفر ممن حوله أن يهزم جيوش الامبراطورية القيصرية ذات اللجب والضجيج ٠٠ واندفع شعراء الروس ومن بينهم (تولستوى) نفسه الى تمجيد الجيش الروسى ليبعثوا فيه عزائم الأبطال فلا يلطخ تاريخ بلاده باندحار مشين ٠

وكأن القوم أرادوا أن ينهوا الحرب بالخديعـــة فبعثوا الى الأمير شامل يعلنون اليه أنهم يعتبرونه أميرا على بلاد الداغستان ومن حقه أن يحكم البلاد ، على أن يعترف بالسيادة الروسية ، وينهض الى (تفليس) ، فيقابل الحاكم الروسى ويوقعا معا معاهدة سياســية تنص على الاعتراف بحق البطل فى الامارة مع قبوله الســيطرة الخارجية للامبراطور الروسى اسكندر الثانى ٠٠ وقد ضحك الشيخ الباسل من آمالهم الكاذبة وأعلن أنه الأمير الشرعى للبــلاد فقد تولى القيادة بعد أن بايعه جميع المسلمين منذ أغتيل أميرهم حمزة بك ٠٠ وهم بعد أصحاب الأمر ، وقد وســدوه اليه دون أن يحتاج الى اعتراف غاصب دخيل ، يحاول أن يبسط سيطرته بأساليب منكرة من العدوان !

وقد جاء الرد الصريح صدمة مذهلة لمن توقعوا أنه فى عدده القليل وأزماته المتكررة سيميل الى الاذعان ، ومن يقرأ رسائل الأمير وكتبه يدرك مدى ايمانه بحق بلاده ، وسخطه على الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فهم فى رأيه (كفار) يحاربون الاسلام فى أحد معاقله ٠٠ ولا بد لأبناء الحنيفية من النضال حتى يندحر العـــدوان وهو اذ يبتدىء احدى رسائله الى بعض أعزائه يقول :

« من أمير المؤمنين شامل الى والده الأعز جمال الدين ، أما بعـد فلقد وقع بيننا وبين الكفار وقائع وحروب لم يقع مثلها الى الآن فى ديار داغستان يومى الأحد والاثنين بالمدافع الكبار والصغار ، ونصرنا الله تعالى وأيدنا تأييد النبى صلى الله عليه وسلم ، وخذل أولئك الملايين أينمـــا توجهوا ورجعوا مقهورين بحيث لا يرجعون الى ديارنا بعد ، فحمدنا الله وشكرناه ، ولعل هذا بســبب بركات دعواتكم وخشــوعكم وتضرعكم والسلام ٠٠ »

على أنه فى غمرات ضيقة قد اتجه الى البلاط العثمانى ليمده ببعض العون فى قتاله المرير ، ولكن خاقان البحر والبر ! ورئيس وزرائه الصدر الأعظم وأرباب مشـــورته من ذوى الحذر والخذلان لم يكونوا من المروءة

والقوة بحيث تتحقق فيهم الآمال فصموا وعموا ، ورجع رسول الأمير دون طائل .

واذا كان لنا أن ناخذ من التاريخ عبرة فلننظر الآن على ضوء فجائع الاســـتعمار فى بلاد القوقاز ، والهند ، ومصر ، والجزائر ، والمغرب ، والشام ، كم يكون لهذه الدول مجتمعة متحدة من البطش والنفـــاذ اذا شعر كل انسان أنه عضو فى جسم واحد . كما قال نبى الاسلام ، وهل كان نداء « شامل » يذهب بددا اذا كانت دول الاسلام متماسكة متآلفة ، فيحارب وحده دون نصير ، ويبطش بيده دون حسام !

هذا وقد رأف الله بالبطل الفدائى فســـاق اليه من المسلمين من أجاد صناعة المدافع ، فظهر لاعدائه مسلحا بمثل ســـلاحهم الرهيب ، ولئن بذل فى تهيئته فوق طاقته وطاقة بلاده من المال والجهد فقد كانت ثمرة البذل شهية رائعة ، اذ أوقعت الذعر من جديد فى قلوب الروس ، ونشط الزعماء الجراكسة من حوله فكتبوا اليـــه بالولاء ودعوه ليخلص بلاد الجركس من أعدائهم واعدائه ، ولم تشأ اريحيته الباسلة أن تخيب رجاءهم فيه فاجتاز نهر « ترن » بجيشه ومدافعه ، ورحب الجركسيون بالبطل الوافد ترحيب الشقيق بالشقيق .. ولكن الروســـيين تنبهوا للخطر الداهم ، اذ لم يعد كفاح « شامل » مقصورا على بلاد الداغستان وحدها ، بل ان الامارات الأخرى ستنحاز اليه معتصمة ببأســـه العنيد .. وكان الأمر اصعب من أن يحتمله عدو خسر فى ســـبيل اســـتعماره عشرات الآلاف من الأجناد فاستغاث القائد بالقيصر ، وجاءه المدد المزيد كالطوفان فحاصروا البطل فى رحلته وقطعوا عليه جسور النهر ، ودوت المدافع المسعورة الحاقدة فى طلقات لا تنقطع ، وكان الموقف فوق طاقة « شامل » الا أنه جاهد وكافح حتى استطاع بعد لأى أن ينفذ بقوته ، وكانت مهارة قائد مدفعيته « الحاج يحيى » مضرب الامثال فى الاستماتة والفـــداء ، وقد وجدت من يلومـــون الامر على سرعة اجابتـــه لاخوانه الجركسيين دون ان يحسب للمستقبل حسابه العسير .. والحق ان الرجل لا يلام لأنه قد تعود النصر فى بلاده ، فرأى أن يجرب حظه فى ارض سواها ولعله كان يحاول أن يجمع الكلمة ليقف بالمسلمين صفا واحدا فجاءت الريح بغير مشتهاه ، على أنه لم يهدأ برهة بعد عودته ، بل استعد لمعارك فاصلة أحرز فيها الانتصار ، واتسع سلطانه على البلاد ومن بينها ما أشار اليه الاستاذ برهان الدين الداغستانى ، نقلا عن مجلة الرسالة (٧٢٩) حيث قال :

« اتسع نفوذ الشيخ شامل فى بلاد الداغستان وسارت باخباره الركبان وكثرت مصادماته الناجحة ضد الروسيين .. وفى أوائل صيف الخريف فى اليوم العاشر من محرم عام ١٢٨٠ - ١٨٥٣ قام الشيخ شامل بحركة جريئة أوقعت الرعب فى قلوب حاميات الروس ببلاد القوقاز كلها ، ففى ذلك اليوم ساق سيلا عظيما من قواته ومدفعيته واجتاز بها حدود بلاد الكرج ، وحاصر قلعة « زنطة » حصارا محكما قويا ، واضطر حاميتها الى التسليم فى النهاية ثم بعث البعوث والسرايا الى القرى المتناثرة فى تلك الجهات فاغارت عليها وأخذت الأسرى وغنمت الأموال الكثيرة ثم رجع الى مقر قيادته داخل حدود الداغستان بعد أن قتل من الاعداء نحو (٢٠٠٠) قتيل ، وأسر نحو (٨٩٤) أسيرا ، وغنم من الأموال والأسلحة مقدارا عظيما ، وكان بين الأسرى الجنرال (جوجوزه) قائد حامية زنطة وبين السبايا زوجته وبنته وكثيرات غيرهن من كرائم العقيلات وبنات الأشراف فبقى هؤلاء الأسرى عند الشيخ شامل نحو تسعة أشهر حتى تبودلت الأسرى فى مشهد عظيم بعد بضع مفاوضات، واخذ شامل أموالا كثيرة فداء للاسرى الزائدين ، والسبايا من النساء والاولاد .وكان يوما مشهودا عم فيه البشر الجميع » .

وكان المظنون بالشيخ شامل أن يوالى هجماته بعد هذه الانتصارات ، ولكن حرب القرم وضعت أوزارها سنة ١٨٥٦ وكنت بين الروس من ناحية والحلفاء من الاتراك والانجليز والفرنسيين من ناحية ثانية وبانتهائها تفرغت روسيا لحرب الرجل ، فجهزت قوة عسكرية من ستين ألف مقاتل ، وقذفت بهم الى القوقاز مع ما يستطيعون حمله من المدافع والبارود والخيل ،فثابر البطل وجالد ، ولكن كثيرا من أتباعه كان قد أرهقهم النضال فى مدى ربع قرن دون أن يصلوا الى قرار ، فراوا أن يركنوا الى المسالمة بعد أن أصابهم البلاء واكلتهم السنون بحروبها الجائحة وفجاءاتها الدامية ، وانتشر الوصوليون من جديد ليتحدثوا عن حرب الابادة التى تعتزمها روسيا فى بلاد الداغستان حتى تصل الى رأس شامل ، واخذ الذهب يتدفق دون حساب فيأخذ ببريقه أبصار طائفةمن المخلفين الذين يقولون فى كل زمان ومكان ، شغلتنا أموالنا وأهلونا ، فاذا وجدوا الفنائم مع الابطال صاحوا صيحة السابقين : دعونا نتبعكم .. وهاهم أولاء يرون الذهب فى غير كفة « شامل » فاقبلوا عليه متهافتين ، على ان يبذلوا الثمن فى توهين النفوس واضعاف العزائم ، وقد حوصر البطل محاصرة عنيفة فى مقر قيادته بالقلعة ،ولكنه جاهد بالقلة القليلة حتى فك الحصار ثم اعتصم

بمن بقى معه فى قلعة (غوينب) وهم ثلاثمائة بطل أمام ستين ألف طاغ يحكمون الحصـــار ويتظاهرون بالمدفع والبارود ، وجـاء قائد الحملة الروسية يطلب التسليم من الشيخ فاشترط عليه أن يبقى على من معه من المجاهدين والابطال مع من يلوذ بهم من النساء والاطفال ، وكان لابد مما ليس منه بد ، فسلم الاسد نفسه تسليم الشجاع الصنديد بعد أن أدى واجب البطولة وحفظ الكرامة الاسلامية ، اذ أبى على نفسه أن يقول قائل « سلمت البلاد دون دفاع ثم ألقى سلاحه مكرها بعد خمسة وعشرين عاما لم تخل فيها ساعة واحدة من عناء ، وسافر الى روسيا فقابله القيصر مقابلة الشجاع الباسل الصنديد ، ولكنه عمل على احتجازه داخل البلاد كيلا تتاح له فرصة سانحة للتجمع والوثوب ، فظل قرابة عشر سنوات معتقلا فى مدينة « كالوغة » يعانى الغربة والشيخوخة والاسى ، ولكنه يروح عن نفسه بالتلاوة والصيام ، ويتأسى بمن أوذوا من قبله فى الله فيستشعر نسمات العزاء ..

ثم أذن له الحاكمون بأداء فريضة الحج فانتقل الى الحجاز بعـد أن طاف فى أثناء سفره بكثير من عواصم الإسلام فشاهده اخوانه ، ورأى من احتفائهم به واهتمامهم ببطولته ما صادف لديه موضع الارتياح ، ولقد اختار المدينة المنورة سكنا طيبا فظل بها حتى آثره الله بجواره فى ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٢٩٧ (٢٨ من مايو سنة ١٨٧٠) ودفن بالبقيع الطاهر بجوار قبة العباس عم رسول الله ، فانضم الى الرفقة المختارة من أبطال بدر وأحد ، والقادسية واليرموك ، مع الذين أنعـــم الله عليهم من الصالحين والشهداء وحسن أولئك رفيقا .. ذلك الفضل من الله ..



الأمير عبد القادر

بطل الجزائر

كان من سياسة الدولة العثمانية أن تسيطر سـيطرة مطلقة على أكثر الممالك الاسلامية دون استثناء ، فهى تجمع فى قبضتها القوة الغالبة دون أن تتيح لهـذه الممالك أن تعـد من الجيـوش ما يـكون عونا لها فى الشدائد ، وكان الوالى العثمانى يصل الى مقر عمله مع حامية من الاتراك تكفى لارهاب الناس وتخويفهم دون ان تحفظ أمنا أو توفر عدالة ، بل انها كانت فى أكثر الاحوال مبعث الاضـطراب بما تثيره من اغارة على المتاجر . ونهب للاسواق . وليتها اذ حتمت سياسة الاضعاف الحربى بالشعوب الخاضعة طوعت لها بأن تأخذ فى تكاملها الطبيعى ، لكى تساعد على رقى العـلوم والفنون والصـناعات بها رقيا يدفع الى التقـدم الحضارى ، بل صممت على سـحق ما يبعث هذا الترقى واجتثاث جذوره . فحين جاء السلطان سليم مثلا الى مصر وشاهد ما بهـا من التقدم المعمارى ، ومن بها من المهرة فى الصناعة والهندسة والبناء أمر بتقويض هذه الذخائر الرائعة فى دنيا الفنون والتشييد ، ثم حملها الى الآستانة مع من يقوم عليها من المهندسين وحذاق الصناعات ، وكان من آثار ذلك كله أن اصبحت الشعوب الاسـلامية ضعيفة واهنة لا تجد الجيش المدافع ، ولا العلم المسـعف ، ولا الفـن الملهم ، وتطلعت الامم الغربية الى انتهابها بغيا وعدوانا حين رأت « الرجل المريض » فى درجة من الاعياء لا تسمح له بأن يصون عاصمته فقط ، فضلا على مايسيطر عليه من ممالك كثيرة لا تحسن اساليب الدفاع اذا هاجمها العدوان ، ولو أن الدولة العثمانية نظرت الى هذه الممالك نظرة الاخوة المنصفة ما تركتها من الهوان والضعف فى حالة متهافتة تطمع فيهـا كل راغب ، ولجعلت منها درعا واقية لها قبل أن تكون قوة غالبة ترهب الاعداء ، وهكذا أضاعت سياسة العثمانيين شعوب الاسلام اضاعة عادت على المسلمين فى مدى قرنين أو أكثر بالتفكك والانحلال .

هذه مقدمة موجزة اذكر انى قرأت ما يشير اليها من زمن بعيد

بأحد أعداد الرسالة للكاتب الاسلامى الكبير الاستاذ أحمد رمزى ، وقد حاولت الرجوع اليها الآن لأنقل من كلام الرجل بأسلوبه الرائع ما يقوم بالبسط الشافى والتحليل الناقد فلم أوفق الى تاريخها المحدود ، وهأنذا اشير اليها الآن لتكون تمهيدا طبيعيا للحديث عن البطل الخالد عبد القادر الجزائرى كما فعل الاستاذ الكبير ٠

لقد كانت الجزائر احد هذه الشعوب المستضامة التى جردها العثمانيون من كل سلاح ، حتى تطلعت اليها فرنسا بعد أن ضاعت ممتلكاتها الاستعمارية فى الهند وأمريكا ، وبعد أن فشل نابليون فى احتلال مصر ، ورأى الفرنسيون أن يتجهوا وجهة أخرى تمكن لهم أن ينهبوا بعض الشعوب المستضامة نهبا ينكره الخلق الحر ، ويأباه الضمير النبيل ٠ وقد كانت الجزائر أول دولة فى المغرب تتلقى الضربة الاولى وحدها أمام العاصفة ، مؤدية ضريبة الشعوب الأبية فى عزم قاهر واصرار عنيد ٠

لقد أفاق الشعب العربى فى الجزائر صبيحة يوم ١٩ من يونية سنة ١٨٣٠ على نذير فاجع يعلن نزول القوات الفرنسية فى مرسى سيدى فرج ، اذ هجم القائد الفرنسى على البلاد دون انذار موجه ، وصوب مدافعه الى الآمنين من السكان ، واحتل بعض البلاد القريبة ، وملأ البحر بسفنه واساطيله ، والارض بحديده وناره ، ولم تستطع حامية تركيا أن تثبت لحظة واحدة اذ ذاك ، فآثرت التسليم وانسحبت آمنة وادعة الى الآستانة لتخبر بما كان فقط فلا تجد لدى السلطان وأشياعه غير السكرت والاستخذاء ٠

ولكن الحمية الاسلامية تتحدى الموت فتتكالب الجموع محتشدة مصممة على الدفاع ، وتنازل بأسلحتها البدائية قوات منظمة حذقت أساليب العدوان ، وتأهبت له بأحدث ما انتجته أوربا المعتدية من ذخيرة وعتاد ، ومع اندحار العرب المستبسلين أمام طلقات المدافع المتتالية وفوهات البراكين المتفجرة فقد صمموا على مواصلة القتال وقد آلمهم أن يلتفتوا ذات اليمين وذات الشمال فيجدوا جميع اخوانهم لا يحسون بكارثتهم الدهماء ، واذا أحسوا بها فلن يجدوا لديهم من القوة ما يسعف بالمعونة والامداد ٠٠ حتى الدولة العلية ــ كما كانت تسمى ــ قد أصمت اذنها عن كل نداء ، وكأنها ترى العدوان حقا مشروعا لا يدفع الى المقاومة والنضال ٠

وقد أحسن الجزائريون الظن بسلطان مراكش فبايعوه ملكا على

بلادهم ليسارع بجيشه الى انقاذهم ، وانى له ، وهو الآخر ضعيف لايملك وسائل الدفاع عن نفسه ، ومع ذلك ثارت فى نفسه الحمية بعض الوقت فاستعد للنزال وهيأ جيشه للكريهة ، ولكن تحذير فرنسا له أرهبه وجعله يؤثر التراجع ، تاركا اخوانه يواجهون وحدهم مصيرهم المرير ، وشاء الله أن يهبهم قائدا جريئا ، وشابا غيورا يستعذب الموت ذيادا عن بلاده ، وحفاظا على عروبته واسلامه ، ذلكم هو الأمير البطل عبد القادر الجزائرى ذو التاريخ الفواح والروائع الخالدات ... نشأ الامير الشاب فى أسرة محترمة ذات رياسة روحية يلتف حولها الناس مكبرين لائذين ، فأبوه محيى الدين عالم روحى ورع يقود بلده الى مراشد الخير والفلاح ويدعو الى شريعة الاسلام وهديه الحميد ، وهو رجل سخى الكف كثير العطاء يجد لذاذته النفسية فى اطعام الوفود واستقبال اللائذين ، وقد نشأ نجله فى كنفه فأنهله موارد الثقافة الاسلامية منذ شب عن الطوق ، فحفظ القرآن . وروى الحديث وتأدب بأدب السلف الصالح من صدور الفضيلة وأعيان الأدب ، كما ظهرت موهبته الشعرية مبكرة فكان ينظم القصائد البديعة ويتدفق لسانه بالسلسل العذب من البيان الرائق ، هذا الى ما اتجه اليه من ممارسة ضروب الفروسية بأنواعها الذائعة فى عصره من ركوب الخيل ، وارسال النبال والقسى ومصاولة الرماح والسيوف فى مواقع الاهوال ، ثم طمحت به أشواقه الى الرحلة فى دنيا الاسلام . فسافر مع أبيه لأداء فريضة الحج وانتهزها فرصة سانحة لرؤية بلاد التوحيد ، فنزل مصر وشافه وجوهها وعلماءها وأمضى بدمشق زمنا ليس بالقصير ، ثم اتجه الى بغداد بعد أن أدى الفريضة الواجبة فى البلد الحرام ، وظل يتنقل فى مدى ثلاث سنوات مع أبيه بين ديار اخوانه وذوى اعتقاده حتى رجع يحمل ذكريات طيبة عما شاهد ، وقد درس التاريخ الاسلامى على مد عصوره السالفة فى شتى عواصمه من أموية وعباسية وفاطمية ، ولا شيء كالتاريخ الاسلامى يطفح بالبطولة فيلهم الرجولة والاستبسال .

وقل ان يتاح للعالم الباحث أن يكون شاعرا سباقا ، اذ ان الذهن المثقل بثمار المعرفة يعوق جناح الشعر عن الانطلاق والتحليق فى أرحب الآفاق ، فيجيء شعر العلماء هادئا ورتيبا ، ولكن الامير من هؤلاء الذين خرجوا على القاعدة فنظم الشعر بقوة وابداع فجاء شعره سليما من شوائب عصره ، فليس به البديع المستكره ، ولا التصنع المتكلف وانما ينهج نهج ذوى الأصالة من صدور العصر الأموى والعهد العباسى ، ولو أنصف مؤرخو الادب لجعل الامير رائد التحرر من البديع قبل أن يظهر

البارودى فى مجال الادب بسنوات ، ولكن شهرة البارودى جعلته ينتزع زيادة التركيب الحى ، والنسج المتلاحم فى الشعر . وهى مسألة تحتاج الى نظر جديد ، ولك ان تسمع بعض أبيات الامير كشاهد لما نقول :

تســـائلنى أم البنين وانها
لأعلم من تحت الســـماء بأحوالى

الا فاسألى جيش الفرنسيس تعلمى
بأن منـــاياهم بكفى وعســـالى

ومن عادة السادات بالجيش تحتمى
وبى يحتمى جيشى ويمنــع أبطالى

وقوله :

ومن عجب صــبرى لكل كريهـــة
وحملى لأثقـال تجل عن العــد

ولست أهــاب البيض كلا ولا القنـا
بيوم قصير الهام للبيض كالغمــد

ولا هالنى زحف الصــفوف وصوتها
بيــوم يشيب الطفــل فيه مع المـرد

وأرجاؤه أضحت ظلاما وبرقــه
سيوفا واصــوات المــدافع كالرعــد

فليت شعرى أفى هذا النظم جناس مستنكر أو طباق مستثقل أو أثر من آثار الأدب الملوكى الذائع فى عصر عبد القادر .. ؟ واذا كان نظم الأمير على هذا المنوال فلم لا يسجل له ذلك فى ميدان التقــدير وهو بعد : الأمير العالم ، والشاعر البطل الجرىء .

تولى الأمير الشاب قيادة بلاده وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، بعد أن ظهرت مواهبه الحربية فى الموقعــة الأولى مع الفرنســيين .. وقد كانت الآمال متجهة الى تولية والده الشيخ ، ولكنه آثر ابنه بالقيادة ، اذ رأى فى شبابه وحفاظه وايمانه ما يرشحه للنصر المنشود .. وانها لتبعة مرهقة نهض بها البطل على أرهب طريق وأخشاه ! .

كان القائد يدرك خطورة موقفه ، فهو يعرف أن الدولة العثمــانية لا تستطيع أن تغنى عنه شيئا ، وأن الشعوب العربية من حوله لا تجد من

القوة ما يسمح لها بمؤازرته فى محنــــة الجزائر ، كما يعرف أن الدولة الفرنسية قد حشدت جحافلها الجرارة ومبيداتها الساحقة مستعينة بما أتيح لها من حديث المكتشــفات فى ميــادين الحــروب ، وما تمرس به « مارشالوها » من أساليب القتال على احتلال شعب مسالم أعزل لايوحى مظهره السلبى بمقاومة جادة !! أدرك الأمير هذه الخطورة ادراكا تاما ، ولكنه لبى نداء البطولة حين تحمل تبعة القتال ، فكان مثله مثل الشهم الأبى يرى النار تندلع فى بيته وتحاصر أولاده وذويه فيقدم على اقتحام اللهيب لانقاذ ما يستطيع انقاذه وان داهمه الخطر من كل مكان ٠٠ على أن الله عز وجل قد أخزى الباطل على يده فاستطاع بايمانه الصابر أن يشتت شمل الدخلاء فى معارك فاصلات !٠

لقد نازل الجنرال « بوبه » منازلة حامية ، فاستطاع أن يطارده من معاقله الحصينة اذ قسم جيشه العربى الى فرق مختلفة ، ووقف فى الطليعة يتحدى القذائف الصاعقة دون مبــالاة حتى اضطرت فرنســـا الى عزل « بوبه » وتعيين الجنرال « ديمشيل » مكانه ! وكان القائد الجــديد أراد أن يثبت كفايته فحشد جميع قواته ليواجه بها البطل الشـاب مواجهة تقضى عليه ، ولم يكن يدور بخلده أنه سيقف أمام جيش بامــل يخضع لقيادة فدائية ماهرة ، فما اشتبك الفريقان حتى أخذت ظنون « ديمشيل» تخيب ، وواجهه الفشل من كل مكان ، اذ أن سرعة عبد القادر وقدرته الباهرة على التجمع والالتفاف والانسحاب وفق ما يوحى به الموقف من مفاجآت ، هذه القدرة الباهرة أحبطت مكايد القائد المعتز بمهارته ، فجمع مستشاريه ليناقش الموقف فى ضوء ما رأى من الثبات . ومال الرأى بأصحابه الى مهادنة البطل ، فسارع بتوقيع معاهدة «ديمشيل» الشهيرة ، وبمقتضاها تعترف فرنســا مقهــورة بســيادة الأمير على جميع العمـــالة الوهرانية ، وتوجب له الحق أن يعين قناصله فى كل مكان ، وأن يستورد الأسلحة من أى مــكان يريد ، وقد كان ذلك نصرا حاســما للأمير ، اذ أصبح صاحب الحق الشرعى فى البلاد ، وامتد سلطانه الى أماكن متناثرة فى الجزائر ، لأن طبيعة البلاد تباعد ما بين المدن فى الساحل الجزائرى ، فكان هذا البعــد مما يصــعب تجمع الوطنيين ، وان أتاح لهم فى بعض الأحوال أن يعتصموا بالمغاور والكهوف ٠

اعتقــد الأمير أن الهــدنة مع الاعـــداء لن تدوم ، اذ أنهم اضطروا اليها اضطرارا ليجمعوا جنودهم فى معركة مقبلة متجنبين ما تورطوا فيه من أخطاء ، ومن ثم أعد للموقف عدته ، وأرسل مبعوثيه الى المدن المختلفة

يجمع السلاح ويجبى الزكاة ، ثم رتب جيشا منظما على أحدث ما وصل الى سمعه من نظام الدول المتحضرة ، واهتم بالفرسان والمشاة والمدفعية ، ثم رأى أن يستعين باخوانه الأقربين من بعض الضباط فى تونس ومراكش وتركيا ، وهم قلة من الأفراد شاعت لهم كرامتهم أن يخفوا الى الجزائر مناضلين ، فكانت لهم أعمال التدريب الحربى فى دروس مرتبة مستوفاة، ولم يغفل عبد القادر وضع قانون صارم للجيش يوضح قواعد الترقى ونظام المرابطة ويعين الرتب ويمنح الأوسمة ·

ولو وجه الأمير كل اهتمامه الى هذه الناحية لاستنفد الوقت الطويل، ولكنه اهتم معها بشئون الزراعة والتجارة والتعليم ، وأقام المخازن لادخار الحبوب والأقوات ، وفرض العقوبات المجزية على المحتكرين ومروجى الاشاعات ، ومهما يكن من شىء فقد أنشأ دولة وهيأ جيشا واستعد للمستقبل بما يستطيع !! ·

وقد كان الظن بجميع القبائل العربية والبربرية أن تبذل جهدها الجاهد فى مناصرة الأمير ، ولكن المال الرخيص استطاع أن يجذب الى فرنسا نفرا من الوصوليين لايخلو منهم زمان أو مكان ، فاحتالت لكى تستميل اليها قبيلتى الدوائر والزمالة ، فاستعد البطل لمحاربتهم ، وكتب الى الجنرال الفرنسى « تريزيل » مطالبا بتسليمهم ، فهم بحكم المعاهدة السابقة من أتباعه ·· ولكن الاستعمار كان ينتهز هذه الفرصة ليغضب الأمير بالرفض ، وينقض المعاهدة فى قحة فاشتعلت الحرب فجأة ، وسار البطل بجيشه الباسل ليحرز الانتصار فى معارك متتابعة أخذت تتوالى دون انقطاع ، فلم تفته معركة دون أن ينجلى معدن عبد القادر كالذهب الخالص بين اللهب !

فلقد وقف فى موقعة (خنق النطاح) بين الصفوف الأولى يحث المجاهدين على الثبات ، ويدعوهم الى التقدم من خلفه ، فحمل عليه فارس فرنسى برمحه يريد أن يلتمس منه مقتلا صائبا ، ولكن الرمح مر من تحت ابطه دون أن يصل اليه فشد عليه الأمير فى سرعة نادرة وهوى بسيفه على كتفه فقده نصفين ! فأشعل بذلك عزائم الجزائريين · وقد حاول المستعمر أن ينتقم فهجمت كوكبة ثائرة على البطل فى ميدانه ولكنه ثبت لها مع أصحابه ثبات من لم يبال بالحياة ، فقد طعن فرسه الباسل ثمانى طعنات بحراب العدو ، ثم رماه أحدهم بالرصاص فوقع صريعا ، وترجل البطل فى مكانه حتى وجد فرسا آخر امتطاه واندفع يشجع المسلمين وكان فقهه الغزير ، وادراكه البصير لتاريخ الصدر الأول من رجال الاسلام يسعفه

بعبارات التحميس والتشجيع ، فهو يخطب فى وسط المعركة ليذكر الناس ببدر وأحد والأحزاب ، ثم يندفع الى المعمعة مرددا أسماء على وحمزة ، وخالد ، وسعد ، وطارق ، وأبى عبيدة ٠٠ فيكون لحديثه من التأثير ما يفوق عتاد العدو وذخيرته ، وقد بلغه ذات مرة أن المشاة نفد عتادهم من الرصاص فبادر اليهم بما يكفيهم منه وقذائف العدو تهوى فوق رأسه فى ذهابه وايابه ، ولكن ثقته بالله كانت تدفعه الى الموت ليصدق القتال ٠

واذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء فان الداهية الانجليزى الشهير المستر تشرشل كتب تاريخ عبد القادر كتابة تحفل بالدهشة والاعجاب لما أبداه الأمير من استبسال ، فسجل وقائع انتصاره تسجيل المأخوذ وكان مما قال :

« ان أعمال الأمير كبيرة جدا اذا قورنت بسنه ، ولكنها صغيرة بجانب ذكائه الفريد ، فقد احتاجت فرنسا الى مائة الف عسكرى لتقف فى وجهه عدا الامدادات الخارجية والمساعدات الأدبية مع أن الأمير البطل لم يكن حوله غير عشرة آلاف من الوطنيين اكثرهم لا يعرف كيف يستخدم السلاح » ٠

ثم يقول بعد ان يذكر سرعته النادرة ونشاطه الفائق فى حرب العصابات : « لقد عجب الفرنسيون من شجاعة هذا البطل ، وظهوره فجأة واختفائه سريعا وفق ما يتطلبه الموقف ، وقد سمعت جنرالات كثيرين يدهشون لبراعته وسرعته فى الوثوب والاختفاء ، وقد كان ذا شهامة حية ، فهو يحسن معاملة الأسرى ويخصهم بالشفقة والمرحمة ، بل انه كان يكافىء من يأتيه بالأسير حيا مكافأة طيبة ، هذا الى أن والدته كانت تعنى مثله بالأسيرات عناية تنسيهن المحن والأرزاء ، وقد جاءه مرة أحد أعوانه بأربع من أسيرات النساء فحول وجهه عنهن فى شهامة وقال كلمته المأثورة « الأسد يقنص الحيوان القوى ، أما ابن آوى فيقع على الضعيف » ٠

هذا وقد أغنته الحيلة الماهرة غناء حميدا ، فكان يرسم الخطة الداهية لاتكلفه غير اليسير لتترك وراءها خسارة فادحة فى جموع المحتلين ، نظر ذات مرة موقعة فرأى جيوش الأعداء تسد السبيل أمامه ، وقد نصبوا خيامهم وشرعوا مدافعهم وتأهبوا لمصاولته ، وليس فى مقدوره أن يهجم بأعوانه فى معسكرهم فيتعرض لابادة منكرة ، فخلا لنفسه لحظات ثم أحضر ثلاثة جمال فشد على كل جمل حزمتين كبيرتين من الحلفاء ودس بينهما قطعا من القطران والقار ثم أضرم النار بكل حزمة فذعرت الجمال وانطلقت تجوس خلال المعسكر قاذفة بنثار النار المتساقطة على الخيام ، ورأى العدو

اللهيب يشتعل من حوله ، ومن خلفه كتائب عبد القادر تدوى بالرصاص والقذائف فظن الأمر خطيرا ، وانطلق الفرنسيون يجفلون هاربين متصايحين فداهمهم الجيش العربى واستولى على جميع ما تركوه من الذخيرة والمتاع ورجع البطل منصورا يوزع الأسلحة المسلوبة على أبطاله ويهيئهم لقتال قريب ٠

أما افتتانه الحربى فقد ظهر بجلاء فى مدينته الحربية السيارة ، اذ رأى أن طبيعة جهاده المتنقل تفرض عليه أن ينشىء مدينة حافلة بالأسواق والمتاع والمؤن تتبعه أنى سار ، فاذا اضطر الى اعداد ميدان حربى جديد نظر فوجد المدينة وقد نصبت بخيامها وأثاثها وتجارتها ، ونهضت قائمة من حوله لتمد جيشه بما يريد ، وكان يقسمها أقساما مختلفة ، فناحية للجند وناحية للقواد ، وشارع لضرب السلاح ، وفسطاط كبير لاجتماع المجلس العمومى ، ومسجد فسيح للصلاة ، ومستشفى للعلاج ، والحق أن هذه المدينة العجيبة كانت موضع غيظ الفرنسيين واستثارتهم ، فقد حاولوا أن ينشئوا مدينة على غرارها فعز عليهم أن يحاكوها مع كثرة مالديهم من المال والعتاد والرجال ووفرة من كانوا يحشدونه معهم من المهندسين والبنائين وحذاق الصناعات ، ثم رأوا أن يصوبوا اليها هجومهم مهما تكبدوا فى سبيل افنائها من الصعاب ، فنازلوا الأمير عليها منازلة مرهقة حتى استطاعوا ببعض أساليب الخيانة بوساطة الضعفاء من الوصوليين أن يضرموا فيها اللهيب ثم يهجموا بقذائفهم قبل محاولة اطفائها ٠٠ وكان فناؤها الأليم تحت ألسنة النيران مدعاة حزن أكيد للأمير واصحابه ، ولكنه لم يسمح للحزن البائس أن يستبد به فجمع عسكره ليقول : « كل شىء كنا نحبه وتعلقت به افكارنا كان يعوق حركتنا ويحول دون مانريد ، والآن صرنا بعد ضياع المدينة أحرارا متجردين » ولك ان تعجب بالبطل الفذ اذ يحاول فى ظلمات الليل الحالك أن يوجد بصيصا ضئيلا من الضياء يهدى الحائرين ويبعث العزيمة على الثبات ، وتلك همة سامقة لاتتاح لكل بطل ولكن تختص بها القلة من الأفذاذ ٠

ولك أن تعجب حين تعلم أن المعارك الدامية بين طوفان الاحتلال الداهم على أرض الجزائر ، وبين القلة من رجال الأمير قد اطردت سبعة عشر عاما لا تكاد تبدأ حتى تشب والأمير مثابر على النضال لا يخرج من موقعة « خنق النطاح » حتى يصطدم بموقعة فى رأس (برج العين) ، ولا ينتصر فى غزوة (المقطع) حتى يعاود المعركة فى (معسكر) ، وكان قلبه يتقطع حين يرى جنوده يتساقطون من حوله دون أن يخلفهم مدد يقف موقف المستشهدين ، فى حين تتدافع كتائب العدو ، فترمي الشواطىء

كل يوم منهم بعشرات الآلاف موقرين بقذائفهم وخيولهم وبنادقهم دون أن ينقطع مد هذا الفيضان ، وقد زاد من فداحة خطبه ما قام به جاره المراكشى من تواطؤ مع « جنرالات » فرنسا ، فهو يشن الحرب على الأمير من ناحيته ليقع عبد القادر وسط شقى الرحى بين عربى غادر ، ومحتل باغ ٠٠ ثم يفكر البطل فى أمره فيميل الى انهـــاء الموقف ، ويقدم شروطا للجنرال « لامور سيير » يطير لها فرحا فيقبل الصلح ، على أن يغادر عبد القـــادر موطنه مع أهله وحاشيته الى بعض بلاد الشرق ، ولكن الجنرال الغـادر يخدع الأمير فيأمر باتجاه سفينته الى باريس ليقع أسيرا فى يد أعدائه حتى تسعفه الظروف بالفكاك بعد سنوات ثقال ، فيلقى عصاه بدمشـــق كما اختار ، قال الأستاذ « محمد أسامه عليبه » فى بحث له عن البطل بمجلة الرسالة (العدد رقم ٧٨٤) ٠

« وقد لام المسئولون فى فرنسا الجنرال « لامور سيير » على عدم أسر الامير بدلا من قبول تسليمه فقال الجنرال : لو حاولت أسر الأمير وزحفت عليه لهذا الغرض مارجعت بغير خيمته وسجادته ، فانه يختفى فى الصحراء دائما بحيث لا أستطيع الوصول اليه ٠٠ وان الظفر الذى أحرزه فى حربه معنا هو ثمرة ما قررناه ، فارجعوه ان شئتم الى موطنه وردوا اليه القوة التى بقيت معه ثم اقبضوا عليه عنوة ان قدرتم فانى ما قبلت انا والحاكم العمومى تسليمه على شروطه الا حرصا على راحة فرنسا وجنودها ، وضنا بأموالها الكثيرة التى تنفق فى هذا السبيل ٠

ثم قال الأستاذ : « وبعد اقامته فى بلاد الشرق ســـافر مرة الى باريس لبعض الشئون ، فزار قصر فرساى ودخل الى مكان فيه صـــور الوقائع التى دارت بينه وبين فرنسا ، وكان النصر فيهـا لهـم ، فقـال للجنرال المحافظ على القصر : « لماذا لم تثبتوا صور الملاحـم التى كانت فيها الهزيمة لجيوشكم والدائرة عليهم ! فضحك الجنرال ومن حضر معه من الأعيان وأيدوا كلام الأمير !

على أن اقامته بدمشق كانت خيرا وبركة على أبناء العروبة فى ديار الشام ، فقد استقبل لأول قدومه بمظاهر الحفاوة والاجلال ، وكان منزله كعبة الناس من كل فج ، وقد أبدى الأمير من ضروب الشــهامة والمروءة ما جعله مضرب المثل فى الفتوة العربية ، والهمة الاســلامية ، والأريحية العالية ! ، وكانت أبرز مواقفه شــهامة وغيرة يوم زحفت جموع الدروز ببنادقهم وسيوفهم الى منازل المسيحيين لابادتهم ، فوقف الأمير حائلا دون الطغيان المتعصب ، وجعل داره الكبيرة حرما آمنا للنصارى ، بل أعلن

استعداده لمنازلة الباغين من أولى العدوان مرددا آيات التسامح والأخوة فى القرآن ، وأحاديث البر المتواصل فى الهدى النبوى ، وكان بموقفه ذلك مفخرة للانسانية ، ومثلا صادقا للمسلم الأصيل ، وقد صادف اذ ذاك استحسان جميع الناس بالشرق والغرب فجاءته أوسمة التقدير من الملوك والرؤساء والسلاطين ، وهى بعد لا تزينه فى شىء كما ازدانت الرجولة الأبية بتاريخه الحفيل .

وقد اتجه فى مقره الجديد الى التاليف ، فاصدر كتبا علمية فى الفقه والتصوف والتوحيد ، لعل من أهمها كتابى « المواقف » و « ذكرى العاقل » أما ديوانه الشعرى فقد عمل على جمعه وتدوينه فجاء تحفة أدبية ممتازة ، وقد دعونا فى صدر هذا المقال الى دراسته الفنية من جديد ليأخذ الشاعر به وضعه الصحيح بين المعاصرين ، وهكذا ظل الامير يجاهد بقلمه بعد أن ناضل بسيفه حتى لقى ربه سنة ١٣٠٠ هـ فضجت عليه الجموع ، وانتقل الى جوار الله فى مشهد حاشد حزين .. قال صديقى الدمشقى : انى أزور دائما ضريح الامام الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى بالصالحية فى دمشق فأجد الى جانبه ضريح الأمير البطل عبد القادر الجزائرى ، وأعجب اذ أرى الزائرين يعظمونه فى مرقده تعظيمهم للعالم الصوفى الكبير !

فقلت فى دهشة : وهل كان الأمير دون صاحبه حتى تعجب لمشاركته اياه تقدير الوافدين ؟ ، فسكت الصديق كمن يتعجب ! ، ولكنى هتفت به : يا أخى لقد فضل الله عز وجل فى هذه القضية حين قال :

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى،وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة .. وكان الله غفورا رحيما ».



عمر المختار

بطل ليبيا الكبير

يخطىء من يظن أن الجذوة الملتهبة التى أوقدها الاسلام فى صدور أبنائه قد خمدت على تناسل الاحقاب ، ومرور السنين ، فمهما تألب الباطل على الحق بجيوشه وعدده فلن يستطيع أن يقوض العزة الاسلامية المنيعة التى يعتصم بها أبناء الاسلام والتى يذكى القرآن الكريم أوارها فى القلوب فتندفع بأصحابها الى التضحية والاستشهاد ، ويسجل ذووها الابرار للعالم المتربص أن المسلمين خير أمة أخرجت للناس ٠

والذين يذيعون الافك عن الاسلام وأبنائه المستبسلين تنقبض صدورهم غيظا والما حين تقدم اليهم شخصية فذة متوثبة كشخصية الشهيد عمر المختار ، ذلك البطل الأعزل الذى انتزع سلاحه من عدوه المتوحش ، ووقف برهطه الضئيل أمام جيوش الاحتلال المتلاحقة فأطاح برقابها ، ومزق أشلاءها وجعلها أضحوكة الناس فى كل مكان ، وأعلم أوربا المتوحشة كيف تندحر الذئاب العاوية أمام الآساد البسلاء . وكيف يروعها الزئير المجلجل فترتعد فرائصها المتخاذلة ، وتلقى السلاح مذعورة مقهورة ثم تتجمع وتحتشد لتثبت أقدامها أمام فئة محدودة مجهودة تعتصم بدين عزيز ، وتتسلح بايمان قوى يدك الحصون ويهوى بالآطام ٠

أجل ! تنقبض صدور أعداء الاسلام غيظا حين نقدم لهم بطلا فدائيا سرت دماء العروبة فى عروقه ، ورفرفت روح الاسلام بين جوانحه ، فرفعته الى أفق زاهر تتألق فيه البطولة والكرامة والفداء ، وانك لتتصوره فى ملابسه الفضفاضة الواسعة ، ولحيته البيضاء الناصعة وكهولته الفتية الشامخة ، وقد حمل السيف فى كفه واعتلى جواده ، يتفقد حصونه المنيعة فى قلعة (الجبل الاخضر) ، ويستشف خطط عدوه المسلح المتحفز!! ثم يمضى بكتيبته القليلة ليهاجم الدبابات الزاحفة ، والقنابل الصاعقة ، والموت العاصف فى بسالة خارقة وايمان معجز ثم تنكشف غياهب المواقع الدامية عن انتصارات مشرفة تتلاحق وتتابع ٠٠ ويعترف أعداؤه

المسلحون بعجزهم الفاضح فيلجئون الى الدسيسة والرشوة والوقيعة !٠٠ ليحولوا بين الأسد وأبطاله البسلاء ، ويبذلوا النضار والجاه والسلطان لمن يؤازرهم فى احتلالهم الآسن البغيض ، ولكن الليث يصمد للخطوب ، ويزأر فى وجه العاصفة الكالح ، ويتحدى القوة والخيانة والذهب ٠٠ حتى اذا جاءت الساعة الفاصلة ثبت على ظهر جواده مع كوكبة فدائية من جنده ، وصال فى ميدان اللهب المشتعل ، صـــولات البطولة والتضحية ولولا أن منظـــاره يسقط من عينيه فى موقعته الاخيرة فتغيم الدنيا فى وجهه ويتخبط على جواده باحثا عن مصباحه الوضيء ، لولا تلك المصادفة الأليمة ما استطاع العدو أن يأخذ بعنان جواده فيسوقه الى محاكمة ظالمة أثيمة يظفر فيهـــا البطل بالاستشهاد ويكتب فى سجل التـــاريخ أنصع صحيفة عاطرة تسطر آيات العظمة والفداء ٠

نشأ عمر المختـــار فى بيئة عربية مسلمة ، تدين بالمروءة والكرامة والعزة ، وقد وجد فى البـــادية حقلا فسيحا لانماء مواهبه العربية ، واكتمال رجولته الأبية ، كمـــا وجد فى دينه منهلا عذبا يغذى الارواح الظامئة للمجد والحرية والايمـــان ، فقرأ الذكر الحكيم ودرس الحديث الشريف ٠

وسرت تعاليم الاسلام حارة ، دافقة فى دمائه ، وصعدت الى عقله الناهض وضيئة متألقة ، فشع متوهجا يضيء الحنادس، ويكشف الخطوب، وبرزت فضـــائله الكاملة ، فعينه السيد المهدى السنوسى شيخا لزاوية (القصور) يقيم القضاء بين الناس ، وينشر العلم والثقافة الاسلامية فى رهطه المتجمع حوله ، ويضرب بسلوكه الممتاز مثلا عاليا للأخلاق الاسلامية العظيمة فيطعم السائل ، ويقرى الضيف ، ويعفو عن المسيء ، ويدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ثم ترشحه مواهبه الى السفارة عن بلاده فى احدى زوايا السودان فينهض برسالته الغالية ، وتتجمع حوله القلوب والأبصار ثم يكر ثانية الى وطنه الجريح ليحمل به مشعل الثورة والجهاد !! ٠

وقد كانت ايطاليا تريد منافسة انجلترا وفرنسا فى استعمار الشرق لتنهب معهما قسطها من تراثه المبدد ، وكنزه المستباح ، فدرست بلاده دراسة فاحصة ، ووجدت « ليبيا » فى زعمها فريسة سهلة المنال ، ومنهلا عذب الورود ، فأهلوها فى أكثرهم بدو ينتهجون أسلوب الصـــحراء فى معيشتهم وحياتهم ، وليس لديهم من الدربة الحربية ما يقفهم أمام الغزاة المدججين بأفتك الاسلحة وأخطر الادوات الفـــاتكة ، والدولة العثمانية

المريضة مشغولة بمرهقاتها الجسيمة عن الصمود للغازى المحتشد ، ومن ثم فقد هاجم الاسطول الايطالى مدينة «بنغازى» وأمطرها وابلا من قنابله الحاصدة ، ومدافعه المدمرة ، وخرج سكان البدو من أصقاعهم المتباعدة يدافعون عن الحمى الجريح ، ويقفون عزلا أمام أسطول ضـــخم عاصف وعدو متجمع متكاثر ، وخطط منظمة مدروسة ، وقد استطاعوا برغم هذه الفروق الشاســـعة الاطراف بين القوتين المتصارعتين أن يرهبوا عدوهم الآثم فالقوا عليه دروسا قاسية ، طاطأ لها رأسه صاغرا واخلفوا ظنــه الابله ، فى النصر السريع ، والسيطرة العاجلة ، وكان عمر المختار فى طليعة المجاهدين من صناديد البادية ، وأبطال الصحراء ، فتولى حراسة منطقة خطيرة يترصدها العدو وكسب لها المنعة والاعتصـــام ، غير أن انسحاب الجيش العثمانى نهـــائيا من طرابلس قد وقع من نفسه موقعا أليما ، وشاهد تذمر الليبيين وغضبهم الصارخ لما عدوه تقصيرا بليغا فى حق العروبة والاسلام ، ووقعت بين الفريقين محن أليمة حين أصر الجيش المنسحب على حمل معداته الحربية ، فى حين أصر الليبيون على استخدامها فى كفـــاحهم الرهيب ، واندفع الغلاة من أولئـــك وهؤلاء الى القتـــال والتراشق ، وتساقط الصرعى من الجانبين شهيدا خلف شهيد ، ولكن عمر المختـــار يملك زمام نفسه فى هذا المازق الـــكريه ، فيجمع شيعته وأتباعه ، ويدعوهم الى الكف عن مصاولة اخوانهم المسلمين مهما أرهقوهم بما لا يطيقون ٠٠ وكللت جهوده بالنجاح ، فيتراجع المحنقون عن القتال ، وفى نفوسهم غيظ دفين ، وأسف قاتل ، ولولا حكمة المختار وبعد نظره لما حسم الأمر فى موقف تغلى به الصدور وتتواثب النوازع الهوج !!

وهكذا نجد من الفرقة والتخاذل والاستسلام معاول هدامة فى كيان الوحدة الاسلامية ، وقد كان على الجيش العثمانى اذ آثر الانسحاب ألا يضن بأسلحته على أناس كان يقاتل من أجلهم ، ومهمـــا قيل فى تبرير موقفه من أنه يفى باشتراطات دولية ظالمة ، فما كان له الحق فى أن يناجز قوما يحتاجون الى القوة فى أزمتهم الحرجة ، ولو رزق قادة الامة حمية صادقة لعز عليهم أن يتركوا اخوانهم المجاهدين يتساقطون تحت وابل من الرعود العاصفة دون أن يجدوا موئلا يعتصمون بمناعتـــه الحصينة لا أن يشتبكوا معهم فى قتال مؤسف مرير تتقهقر بسببه الدعـوة الى الحرية والاستقلال آلاف الخطوات الى الوراء !! ٠

وقد طال أمد الحرب بين ايطاليا وليبيا ، وتفنن المحتلون فى مكايدهم النكراء ، فكانوا يستميلون الخونة من الليبيين بالامل الكاذب ، والذهب

اللعين ، ويتخذون منهم عيونا راصدة تتتبع المجاهدين وتنشر بينهم بذور القطيعة والتفرقة كما تصور ايطاليا وجيوشها وأسلحتها وعتادها فى صور رهيبة مفزعة لتفت فى الأعضاء وتدعو الى اليأس والاستسلام ، وهى من جهة أخرى تبذل الوعود المعسولة لمن يتخلف عن الجهاد ، وينكص على عقبه مع المرتدين ، ولكن الصفوة المختارة ممن صدقوا ماعاهدوا الله عليه ـ قد ضربوا عرض الحائط بما يسمعون من تهديد واغراء وسعوا الى بيعة (السنوسى) أميرا على برقة وعرضوا فى كتاب البيعة الى ماسنه الاسلام من الشورى والمساواة والكفاح ، ورسموا الصورة المثلى للأمير المكافح فى وطن جريح ، وكانوا يأملون أن تتوحد الجهود المخلصة على يديه فيقود أبناء وطنه الى الاستقلال ، ولبثوا ينتظرون مقدمه السريع من مصر ، ولكنه تخلف بها أمدا طويلا وذهب عمر المختار يناشده العودة فى غير طائل ، ثم قفل راجعا الى حومة جهاده فترصد له الايطاليون وداهموه فى ثلاث سيارات حافلة بوسائل الموت والتدمير ، ولكن المعجزة الكبرى تتم للمختار بانتصاره على أعدائه ، فقد قتل مهاجميه وحمل أسلحتهم الى قومه ، واستطاع بكتيبته المحدودة أن يقهر الطغيان فى موقف خائن دنىء ، ويعود الى وطنه مرفوع الرأس عريض الآمال . .

لقد بدأت ايطاليا تقوم بهجماتها الحمراء على الوطنيين ، فكانت تشن الغارة تلو الغارة دون أن تصل الى نصر يطمئنها قليلا الى الاستقرار وكانت تنوء تحت أثقال فادحة من الغيظ والالم ـ حين ترى الفشل يلاحقها فى كل ميدان ، وصحف العالم من حولها تهزأ بالتياثها العاجز أمام مئات من البدو يذيقونها الموت ويلطخون سمعتها الحربية بالأوحال ، وقد زحفت فى موقعة (البريقة) بجيش كثيف يناهز خمسة آلاف مع أكثر من مائة سيارة مدرعة وأطنان من القنابل المحرقة ،وكانت الكارثة فادحة حين رجع الجيش المدجج مقهورا ، وصال الكماة من جنود البادية على الغزاة المسلحين ، صولات رهيبة أسالت دماءهم كل مسيل، ولاننكر أن كثيرا من الفدائيين الأباة قد رزقوا الشهادة تحت وابل المدافع الرعناء ، ولكن ماتكبدته ايطاليا من نكبات فادحة فى الأرواح والعتاد ، قد كتب لهؤلاء الشهداء فخرا عاطرا تعبق به صحائف الاجيال .

لقد تسلم عمر المختار قيادة الجبل الأخضر وهو غابة معشبة تكسوها المروج الخضراء ، وتمتد عليها الظلال الوارفة الى مدى فسيح فياح ، وأرضها مفطاة بالشجر الفارع المياد ، وفيها من الزيتون والصنوبر والصفصاف وأنواع الزهور والورود ألوان بهيجة تأخذ بالعيون والألباب

فاذا هب النسيم عليه تهادى ثملا بالعطور الفائحة ، مثقلا بالأنفاس العبقة ذات السحر الخلاب ، وقد تفجرت منه العيون الدافقة على طول اربعمائة كيلو متر لترسل ماءها الفضى الى السهول الواسعة فى الوادى الفسيح ، وفى هذا المكان الشاعرى الملهم ربض الأسد المختار محتميا بكهوفه ومغاراته ، متحصنا بآطامه وصخوره ، وقد لاذ به تلاميذه الفدائيون وجنوده المغاوير ، وطارت شهرته الى الأقاصى النائية فجذب اليه عشاق الكرامة وأبناء الحرية من مختلف الأودية ، وأصبح عمر العظيم قائدا لجيش فدائى يتكاثر ويتزايد ، وهو فى سنه العالية وكهولته البيضاء يتعهده بالحراسة والدربة ، ويسهر على حمايته وتحصينه ، كما يرسم له خطط القتال ويتقدمه فى أحلك أزماته ، وأخطر مواقفه فبات الايطاليون منه على ذعر فاتك ، وحقد لهيف !!.

ولم تفلح تلك الوعود المعسولة التى غرر بها الأعداء فريقا من مشايخ البدو ، ومع استكانة بعض المخدوعين الى وعودهم الزائفة فقد سار المخلصون الاشاوس خلف عمر المختار ، ونظروا الى حلفاء الاستعمار نظرات السخرية والازدراء ، وقد أحس الايطاليون أنفسهم بقلة جدوى أشياعهم فى حرب عمر !! فعمدوا الى القوة الرعناء ، وشهدوا مع الأمير البدوى مواقع دامية كانت تعود عليه بالنصر والذيوع .

وقد يرى بعض الناس عجبا فيما كانت تحمله أنباء المكافح العملاق من الانتصار على جيش فاتك يتحصن بدباباته ومدرعاته ، ولكن ايمان الوطنيين وطبيعة الصحراء ووعورة الطريق وجبن الطليان الشهير الذائع !! كل هذه كانت حوافز قوية ساعدت الفدائيين على الصيال والوثوب ، كما وضعت العوائق الشائكة أمام آلات لم تألف الآطام والسهول !! وفضيحة الجندى الايطالى فى ميادين الكفاح ذائعة مضحكة، فهى تصفه دائما بالجبن والحذر والانهيار ، ولو كان لعمر المختار عشر معشار أسلحة عدوه ماترك فى افريقية ايطاليا واحدا يتنسم هواء الصحراء .

ان الخشوع الغامر ليظلك بجناحه حين تجد الكفاح الليبى المستبسل يعيد الى ذاكرتك وعينيك معا ، صورا من البطولة العربية فى عصور الاسلام الزاهرة ، فهؤلاء هم البدو الصناديد ينسلون من الاغوار والأنجاد فى ثيابهم الفضفاضة ، وعمائمهم البيضاء وخيولهم الصافنة السريعة ، وسيوفهم اللامعة البراقة ، وهاهى ذى الصحراء الممتدة بآجامها ورمالها وأغوارها تذكرك بكتائب على وسعد وخالد ، ثم هاهو

ذا عمر المختار يقف أمام العدو فيروعه بالهول الراصد .. ويذيبه بالبأس الصارم ، ثم يحين ميعاد الصلاة فيقسم الجيش الى معسكرين ، ويصلى بالطائفة الأولى صلاة الخوف ، فاذا أتمت صلاتها حملت عدتها وواجهت العدو مستبسلة مجالدة ، وتاتى الطائفة الاخرى لتأخذ مكانها خلف الامام المنتظر ، وتتم صلاتها فى هيبة وخشوع .. أجل كل شىء يذكر ببدر ، والقادسية ، واليرموك ، ولو وجد عمر المختار مساعدة فعالة من أبناء الاسلام فى أقطارهم المتاخمة لتكلل جهاده بالكفاح ، كما كان جهاد السابقين ، ولكن العدو متجمع ، والصديق متدابر ، والخيانة متيقظة وارادة الله فوق الجميع .

لقد اعترف القائد الايطالى (جرازيانى) بأن المعارك التى وقعت بين جنوده وجنود المختار مئتان وثلاث وستون معركة فى مدة لاتتجاوز عشرين شهرا ، ويقول الكاتب الليبى الاستاذ أحمد محمود تعليقا على ذلك : ان هذه المدة هى التى تبتدىء بتولية «جرازيانى» قيادة الجيش الايطالى ببرقة ، وتنتهى بموت عمر المختار ، فاذا أضفنا الى هذا العدد الضخم الذى وقع فى مدة عشرين شهرا ماوقع قبله من وقائع فى مدة عشرين سنة كان السيد عمر يحمل علم الجهاد فيما قارب عدد معاركه الألف (١) ›

مواقع كثيرة ، وحروب متطاولة ، وخسارات متتالية ، هذا هو ما أيأس ايطاليا من القتال ، وهى فى عدتها المدمرة وقطيعها المتلاطم ، وثروتها الطائلة ، ولكنه لم ينن من عزيمة الصنديد الكهل الذى جفت موارده ، ونفدت ذخائره ، وتألب عليه حاسدوه ومناوئوه ٠ فقد أشاع المغرضون من رواة الافك وشيعة البهتان ــ أن المختار يحارب لمأرب شخصى ، وأن ايطاليا تمد اليه يد المصافحة والسلام ، فيعتصم بالاباء الجموح وقد كذب المتخرصون فيما يأفكون ، فعمر المختار قد سعى الى المسالمة سعيا وقبل الهدنة مرات تلو مرات ، فما وجد من أعدائه غير المراوغة والتربص والانتهاز ، فهم يكسبون الوقت فقط بما يبدونه من حب زائف للمسالمة ، ثم انهم يجمعون ــ آن ذاك ــ عتادهم وأسلحتهم ليصيبوا من غريمهم مقتلا نافذا ، اذ يأمن شرهم فلا يتحصن بسلاح أو يستصحب كتيبة ! وقد سار عمر فى طريق المسالمة الى أبعد مدى يرضى به كهل مكدود يتساقط أعوانه من حوله ! على أن يضمن لدينه العزة والسيادة ، ولوطنه الحرية والسلامة ،وقد قامت مفاوضات عديدة بين

---

(١) من كتاب عمر الخيام ــ ص ٤٥ للاستاذ أحمد محمود ..

الفريقين ووضع عمر المختار شروطا معقولة للتسليم يمكن أن نلخص أهمها فيما يلى :

١ ــ الا تتدخل الحكومة الايطالية فى أمور الدين ، وللوطنيين كل الحق فى الخارجين عليه ، والمتهاونين فى أداء واجباته ٠

٢ ــ أن تكون اللغة العربية معترفا بها رسميا فى دوائر الحكومة الايطالية ٠

٣ ــ أن يكون الموظفون من الوطنيين والايطاليين ٠

٤ ــ أن تنشأ مدارس خاصة للتوحيد والشريعة الاسلامية ٠

٥ ــ أن تكون ادارة الأوقاف تحت هيئة مسلمة وباشراف رئيس مسلم ونظار مسلمين !

٦ ــ أن تفتح مدارس لتعليم اللغة العربية مع الايطالية ، وألا يحرم الوطنيون من التعليم العالى ٠

٧ ــ أن ترد الحكومة جميع الأملاك المغتصبة من الاهالى الى أصحابها ٠

٨ ــ أن يكون للأمة رئيس تختاره بمحض ارادتها ، وله مجلس من كبار الأمة ٠

٩ ــ أن يكون للوطنيين الحق فى شراء السلاح وحمله واستيراده من أى قطر أجنبى (اذا امتنعت ايطاليا عن بيعه) ٠

فاقرأ معى هذه الشروط مرة ومرة ، فانك لاتجد فيها تزمتا كريها أو غرضا مقنعا ٠٠؟ لا شىء الا ما يحرص عليه العربى الغيور ! دين يجب أن تنشر تعاليمه وينير ضياؤه فلا يقف الايطاليون ليضعوا السحب الكثيفة على الأشعة الوهاجة ، ولغة حبيبة يجب أن يهتف بها كل ليبى يؤمن بعظمة الرسول العربى ، ويهيم بقرآنه وحديثه وسيرته ، وشريعة سماوية ذات مواد ومبادىء يجب أن يتفهمها المسلمون تفهما بصيرا يدفعهم الى تقديسها وتنفيذها ليضمنوا صلاح الدنيا ومثوبة الآخرة ، ورياسة حرة يختارها الشعب بمحض ارادته ، فينشر كنانته بنفسه ليصطفى أصلبها عودا وأصدقها بأسا وأصحها عقيدة ثم عدة قوية تحمى العقيدة واللغة والشعب فى زمن يحتقر الضعيف الواهن ، ويخفى رأسه للصارم العنيف !

هذا ما اشترطه عمر المختار ! وطبيعى أن يقابل بالرفض الصريح من دولة باغية تحتل أمة مهضومة ، فهى تريد أن تعصف بدينهـا ولغتها وتاريخها وتمتص بعد ذلك ما تجده لديها من كنوز وخيرات ، لولا ثبـات عمر لتحقق للدخلاء ما يأملون فى أقل مدى يتاح ، وقد كابدت ايطاليـا الأهوال من بطولته حتى نفد الصبر ، واشتعل الغيظ ، فلم يبق الا أن تستميل من بنى وطنـه من يقبلون شروطا جديدة لا تمت الى شروط المختار بسبب ، فهم يريدون تسريح الـكتائب الوطنيـة ، ونزع جميع الأسلحة من الوطنيين مع معاقبة أعوان المختار ونقلهم الى أية جهة يريدون، كما تكون رياسة جميع الضباط لضابط ايطالى ، يأمر وينهى كما يشاء ، وقد أعلنت الحكومة الايطالية انها تتعهد بعد ذلك بمعاش قدره خمسون ألف فرنك شهريا لعمر المختار ، وتبنى له مسجدا ومئذنة ، وقد ظنت أنها بذلك تدفع البطل المكافح الى الاستسلام والخنوع ، ولكن هيهات ، فقد رفض الشروط الظـالمة ، وقوبل رفضه بمعـارضة لئيمة من ذوى الاغراض أوقعت الفرقة فى الصفوف وأوهت القـوة فى الكفاح ، وعمر لا يحفل بما تأتى به الحوادث من خطوب ، فحسبه أن يعتصم بعرينه فى الجبل الاخضر ولتسر الايام بعد ذلك كما يريد خالقها أن تسير ..

سار المختار الى حصنه الأشم ، وقد تنـاثرت الشائعات المسمومة حول موقفه من الغزاة ، وأحاط المرجفـون اباءه بما شـاء لهم غرضهم الدنىء ، وعدوه جانحا الى التعلق بالاوهام فى مطالبه المشروعة ، وحقه الصريح ، ولكنه قتل كل دسيسة تحاك حوله بنداء جهير وجهه الى بنى وطنه يستعرض فيه مطالبه العادلة ، وما تفرضه ايطاليا على الوطن من قيود ، ويميط اللثام عما تقدم المفاوضات وما لحقها من عروض ووعيد.. ويقول فى صراحة سافرة :

« فليعلم كل مجاهد أن غرض الحكومة الايطالية انما هو بث الفتن والدسائس لتمزيق شملنا ، وتفكيك أواصر اتحادنا ، فتتم لها السيطرة القاهرة ، وليشهد العالم أجمع ان نياتنا نحو الحكومة الايطالية شريفة ، وما مقصدنا الا المطالبة بالحرية ، ولكنها ترمى الى القضاء على كل حركة قومية تدعو الى نهوض الشعب الطرابلسى وتقدمه ، وها نحن الآن ندفع عن كياننا ونبذل دماءنا الزكية فداء للوطن ، فى سـبيل الوصول الى الغاية المنشودة (١) .

وقد عجز الجيش الايطالى عجزا تاما عن مواجهة مئات من الفدائيين

---

(١) ص ٩٤ من المصدر السابق ..

يعتصمون بزعامة المختـــار فى الجبل الاخضر ، وكنت تعجب للدبابات الزاحفة ، والمدافع المنطلقة ، والقنابل المحرقة تنهال جميعها على الجبل المنيع فتتحداها صخوره الصلبة وقممه السامقة ، وأبطاله الكماة يهزءون بالرعد المجلجل ، والموت القاصف كأنهم يســـتمطرون رذاذا من الغيث لا قذائف من الموت ، وقد امتدت الايام على الهـجوم الحربى فما رجعت بغير الفضيحة على ثعالب روما العاوية فى بطاح افريقية تتلمس الانتصار ولات حين !

وأمام هذا الفشل الفاضح فكر الايطاليون فى حصـــار اقتصادى يحدث مالا يحدث الهجـــوم الحربى فقطعوا جميع المواصلات المؤدية الى الجبل ، واحتلوا جغبوب المصرية و «أوجلة ،وفزان ،وجالوا ، والكفرة»ووجدوا من صنائعهم الأنذال من برروا هذه النكبات الفـــادحة للمواطنين ، اذ زعموا أن ايطاليا تبحث عن حقوقهـــا المشروعة فى بلاد تنطق بالعربية ، وتدين بالاسلام ... ويجد هـــذا الزعم صدى لدى الكثيرين ، فيذعنون للمحتل الآثم كصاحب حق تجب طاعته ، وينظرون الى الفدائيين وكأنهم يبحثون عن مأرب شخصى لا يتعلق بكرامة البلاد ، واستعادة ابائها الأسير ومجدها الذبيح ! .. عجبا . ! . عجبا ..

لقد فصل الايطاليون عن الجبل الاخضر جميع من يجـاورونه من السكان .. فساقوا الى «العقيلة ، من هؤلاء ثمانين ألف عربى بحيواناتهم وخيامهم ومؤنهم ، وهناك تلقفهم الأوبئة والأمراض فى بقعة ضيقة لاتتسع لخمسة آلاف فقط ... وطار الفناء الى وجهائهم وذوى الرياسة من ذويهم فجعلوا يتساقطون عشرات خلف عشرات حتى بلغوا خمسة عشر ألفا .

واضطر المحتلون الى اعادتهم ثانية كفلول جيش منهزم ضاع أبطاله فى غير ميدان ، وليت هؤلاء الضحايا انضموا الى كتائب المختار فرزقوا الشهادة حيث تحمد ، أو ساهموا فى النصر حيث يتاح ! .

وقد كانت الأسواق المصرية آخر خيط يصل المختار بالحياة ، فمنها كانت تتسرب المـــؤن الضرورية الى الاحـــرار المستبسلين ، وبرذاذها المتقطر – على فترات متفرقة – يقاومون جيشا تئز طائراته ، وتدوى مدافعه فعجل القائد الايطالى باقامة الأسلاك الشائكة على الحدود المصرية فاضاف هذا الاجراء أهوالا الى أهوال – فما وهن المجـاهدون لما أصابهم ، وكان ايمان « عمر » وحده يضىء له الحنادس ، ويكتسح أمامه الظلمات .

وقد شاء القدر أن يعجل بالخاتمة على غير مايتوقع الفدائيون الاحرار

فقد علم المحتلون أن القائد الشـيـخ يقوم بجولات استكشافية فى غبش الظلام فيحيط بما يفعله أعداؤه من حوله ، متلافيـا ما قد يجر عليه من الصعاب ، واذ ذاك أقاموا كمينا هائلا بأسـلحته وقذائفه فى ناحيتين متقابلتين ، وجاء البطل كعادته فى كتيبة لا تتجاوز الأربعين فهاجمها الفريق الاول فاستبسل المدافعون حتى كادوا يحرزرن النصر، ولكن الكمين الثانى ينقض من الخلف فيوقع الكماة البسلاء بين المطرقة والسندان ، ومع ذلك لم يفقد القائد العظيم شـجاعته فى أخطر موقف تعرض له ، بل صال وجال متحاميا رصاص مهاجميه لولا أن جواده سقط صريعا بقذيفة صائبة فسقط عمر على الأرض وطار منظاره عن عينيه فلم ير شيئا ممـا حوله ، وحاول النهوض فى ضبابه المتلاحم فاخذه الجنود من كل ناحية وسيق الى المحاكمة الغادرة فى محكمة كان قضاتها هم خصومه الموتورون ، وهيهات أن يعتدل فى يد ظالم طاغية ميزان ٠٠ فيجنح قليلا الى الانصاف ٠٠٠٠

لقد توقع البغاة أن يرتجف الكهل الأسير بين أيديهم فيحـاول المراوغة والاستكانة ، وينتحل الأعذار المريبة فى موقف يلمع فيه السيف، وتتراقص به أشباح الدماء ، ولكن دهشتهم تتجاوز أقصاها حين يرونه ثابت الجأش ، مرتفع الهامة ٠٠ يجيب على الاتهامات المدونة بكل زراية واستخفاف !! وصاحب الحق لا يعبأ بباطل وان شحذ الأسنة والرماح ٠

فقد قال له رئيس المحكمة فى غطرسة منتفخة : هل أنت قائد الثوار المحاربين ؟ فأجاب نعم ، فسأله ثانيا : هل شهرت السلاح فى وجه القوات الايطالية ؟ فقال نعم ، فسأله ثالثـا : هل أمرت بتحصيل الضرائب من الأهالى ؟ فكانت الاجابة نعم عالية صريحة ، ولما تضـايق الرئيس لعزة غريمة صاح متبرما : هل لديك ما تقوله ٠٠ ؟ فسمع الاجابة « لا » عزيزة كريمة ، وكان ماتوقععمر أن يكون ، فقد صدر الحـكم باعدامه شنقا ، فما ارتعشت به هزة أو اختلجت فى عروقه نابضة ، ثم عجل بالتنفيذ أمام جمهور محتشد ليكون الشهيد العظيم عبرة بالغة لمن يطالب بعزة واباء ٠

وصعدت روح المختار لتتبوأ مكانها مع الذين أنعم الله عليهـم من الصديقين والشهداء ، ولتضيف الى صحائف الأبطال صحيفة عبقة فواحة تسجل لأبناء الاسلام عزة قائد باسل رفض الزائف من المال ، والبهرج من المجد ، وتكالبت عليه السنون العجاف بما تحمل من جبروت وحرمان فظل شـامخ الرأس ، عزيز النفس يصيح بمخالفيه لن أهزم ومعى فى الحياة روح الاسلام وعدالة محمد ، ولى فى الآخرة سكينة المؤمن ومثوبة الاستشهاد ٠٠

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
المثنى بن حارثة (بطل الاسلام)	٧
النعمان بن مقرن (بطل نهاوند)	١٧
عقبة بن نافع (فاتح افريقية)	٢٧
عبد الله بن الزبير (الشجاع الأبى)	٣٧
موسى وطارق (فاتحا الاندلس)	٥١
قتيبة بن مسلم (البطل الجرىء)	٦٧
محمد بن القاسم الثقفى (فاتح الهند)	٧٧
عبد الرحمن الغافقى (فارس بلاط الشهداء)	٨٥
الأنشين (بطل باسل مضطهد)	٩٥
محمود الغزنوى (الفاتح الاسلامى)	١٠٣
عماد الدين زنكى (فارس الحروب الصليبية)	١١٥
نور الدين محمود (البطل المثالى)	١٢٥
صلاح الدين الايوبى (الفاتح العظيم) ..	١٣٩
الملك قطز (فارس معركة عين جالوت)	١٥٥
الظاهر بيبرس (قاهر التتار والصليبيين) ..	١٦٥
موسى بن أبى الغسان (فارس غرناطة)	١٧٩
الامام شامل (بطل القوقاز) ..	١٨٩
الامير عبد القادر (بطل الجزائر)	٢٠١
عمر المختار (بطل ليبيا الكبير)	٢١٣

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ١٢٣
ـــ
الثمن ٢٧
١٩٦٦/١/١٠